نساء حكمن اليمن

١- بلقيس بنت الهدهاد ٢- أسماء الصُّليحيَّة

٣- أروى الصُّليحيَّة

إعداد

عفت وصال حمزة



دار ابن حزم

نساء حكمن اليمن

بسم الله الرحمن الرحيم

نساء حكمن اليمن

١ - بَلْقِيسُ بنتُ الهدهاد
٢ - أسماء الصُّلَيْحِيَّة
٣ - أروى الصُّلَيْحِيَّة

إعداد
عفّت وصال حمزة

دار ابن حزم

الطبعة الأولى
١٤٢٠هـ - ١٩٩٩م

الكتب والدراسات التي تصدرها الدار
تعبر عن آراء واجتهادات أصحابها

دار ابن حزم للطباعة والنشر والتوزيع
بيروت - لبنان - ص.ب: ١٤/٦٣٦٦ - تلفون: ٧٠١٩٧٤

الإهداء

إلى أخواتي نساء اليمن.

وإلى كل امرأة مسلمة طموحة. ليعلمن أن لهن تاريخاً عظيماً، حملت راياته نساء مثلهن. وأن عليهن أن يتابعن دربهن في المجال الصحيح، كما يريده الإسلام، وبما أعطاهن من حقوق.

واثقات أن بينهن من هي أهل للمسؤولية والحكم.

عفت

بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم

الحمدُ لله ربِّ العالمين والصلاةُ والسّلامُ على سَيِّدِ المرسلين محمد وعلى آله وصحبه أجمعين. وبعد..

فإن في الكلام عن **نساءٍ حكمن اليمن** هدفين اثنين، درساً وقدوة.

درساً نأخذه من تاريخ ذلك البلد العريق، في مجده وعزته ومركزه المرموق، في الأزمنة القديمة أولاً، وفي العصور الوسطى ثانياً.

والدروس المستخلصة من سيرة هؤلاء النسوة كثيرة؛ لأن في كل موقف من مواقفهن درساً وعظة وفائدة ومعرفة.

وقدوة لكل إمرأة طموحة واسعة العقل بعيدة المرمى؛ لتعلم أنها ليست الوحيدة في طموحها ومرماها. وأنها ليست في هامش الزمان بل إنها في رأس صفحاته، إذا تيسرت لها الفرصة المناسبة وأتيحت لها الأجواء الملائمة.

وإذ أنتقي من **اليمن نساء حكمنه**، وقمن بإدارة ملكهن عن جدارة واستحقاق، فإنني أبرهن على فكرة هامة هي: إن بعض النساء الطموحات إذا أُعطين فرصتهن وأُفسح المجال لهن، وصلن إلى مراكز عالية ومقدرة فائقة كالرجال تماماً. كما هي الحال في كل البشر لا فرق بين هذا وهذه.

وصفحات التاريخ في الماضي، وشاشاته في الحاضر، ترينا ما تصل إليه المرأة إذا نالت فرصتها.

وأعظم مثال لنا السيدة **خديجة أم المؤمنين**؛ فقد كانت بحقٍّ امرأة أعمال، تمتلك من أمر نفسها وحريتها ما يمتلكه الرجال، فهي تدير مؤسساتها التجارية، وترسل القوافل شمالاً وجنوباً وشرقاً وغرباً، وهي تنتقي الرجال الأكفاء، فتضع الرجل المناسب في مكانه المناسب، فتحاسب المقصر وتكافىء المبرز والمجلّي، وتوزع الحوافز، لا يعترضها أب أو أخ أو زوج، أليست مملكتها مملكة صغيرة؟ وجاء الإسلام فعزز مكانتها، ودعم مركزها، فصارت بالإضافة إلى وضعها السابق أماً للمؤمنين، فأضحت الدعامة الأولى التي رسّخت الدعوة وقوّت أركانها.

وحديث رسول الله ﷺ عن **عائشة أم المؤمنين**: **«خذوا نصف دينكم عن هذه الحميراء»** حديث خطير؛ فنصف الدين ليس بالأمر القليل، فقد وضع رسول الله ﷺ، نصف الدين في كفتها والنصف الآخر في كفة بقية المسلمين. فلو لم تكن سيدتنا عائشة تستحق أن تتبوأ مركز الينبوع بالنسبة لنصف الدين لما ذكر ذلك رسول الله ﷺ. وعائشة رضي الله عنها أفقه نساء المسلمين وأعلمهن بالدين والأدب. وكانت أكثر نساء النبي ﷺ رواية للحديث ولها خطب ومواقف. وما كان يحدث لها أمر إلا استشهدت به شعراً، وكان مسروق إذا روى عنها قال: حدثتني **الصديقة بنت**[1] **الصديق**. وقد روي عنها (٢٢١٠) حديثاً عن رسول الله ﷺ. هذا وقد عاشت بعد رسول الله ﷺ أكثر من أربعين سنة كانت المرجع الأول والموثق لفقه النساء المسلمات وغير النساء.

أليس في ذلك برهان على عظمة المرأة إذا فسح لها المجال؟

والغريب أن المرأة إذا حكمت فأخطأت ـ كما يحصل لجميع الحكام دون استثناء، والإنسان خطّاء ـ فإنهم يحمّلونها مسؤولية خطئها لأنها امرأة. بينما يمر التاريخ بجميع الحكام، فلا نجد حاكماً لم يخطىء في أمر من أمور الحكم. والكمال للّه وحده. ولكن أخطاء الحكام مقبولة أما المرأة فإن

---

(١) عن الأعلام للزركلي ج٣/٢٤٠.

هفواتها توضع تحت المجهر وتكبر آلاف المرات، فأخطاؤها فادحة لأنها أخطاء أولاً ولأن التي وقعت فيها امرأة ثانياً.

ولا أظن أن امرأة حكمت بريطانيا كما حكمتها المرأة الحديدية مرغريت تاتشر.

وقارة الهند: الم تخطط لها أنديرا غاندي سلماً وحرباً وسياسة ودبلوماسية لفترة طويلة؟ حتى العدو الصهيوني ألم تحكمه غولدا مائير فترة ليست قليلة!! ولا نبعد كثيراً ففي بلاد إسلامية كالباكستان تربعت بناظير بوتو. وفي البنغال خالدة ضياء وحسينة واجد وغيرهن كثيرات.

وفي التاريخ الإسلامي أمثلة لنساء حكمن فوفقن أمثال **ضيفة خاتون** التي حكمت من وراء ابنها ـ ولي العهد الطفل ـ مدة سبع سنوات. وأمثال **شجرة الدر** التي حكمت إلى جانب زوجها حكماً لا تشوبه شائبة ثم أخفت وفاة زوجها خوفاً على مصلحة بلاد المسلمين، ثم أظهرت وفاته بعد أن اطمأنت للوضع الحربي. ولولا أن نهايتها كانت فاجعة لكانت في ذؤابة النساء العظيمات اللواتي حكمن بكل جدارة واستحقاق، بل وإن كثيراً من الرجال الحكام نهايتهم فاجعة.

والمجال لا يتسع لذكر الكثيرات فقد برهنّ دون شك بأن المرأة إذا وصلت إلى القمة بإمكانها أن تحكم بجدارة، وبعد نظر وعمق تفكير، كغيرها ممن يصلون إلى القمم.

يقول الأستاذ أحمد الوادعي في ملحق الثورة الأسبوعي العدد ٤٤٢٨:

(إنها المساواة الكاملة في الدنيا وليس في الآخرة كما يرى الطغاة وأعداء الإنسان، وهي مساواة أعطت المرأة بتوجيه من السماء كل ما للرجل من حقوق في التعليم، في الجهاد، في الحكم، في العمل. وفي مختلف نواحي الحياة كالرجل تماماً، وهذا لم يحدث في أوربا إلا في وقت متأخر، وبعد ثورات دموية وصراع فكري عنيف، اهتزت له الأرض والأفكار وتساقطت له أبراج التقاليد).

وإذ أنقب عن **نساء حكمن اليمن** بدءاً من **بلقيس ملكة سبأ،** وانتهاء **بأروى الصليحية؛** ومروراً **بأسماء الصليحية؛** فليس معنى هذا أنهن النساء الوحيدات اللواتي كن في قمة الهرم عبر تاريخ اليمن، فقد ذكر الشاعر في الإكليل نساء أخريات، لكن المصادر لم تذكرهن حتى ضاع ذكرهن، فقد قال الشاعر:

ولدتني من الملوك ملوكٌ كل قيلٍ متوجٍ صنديدِ
ونساءٍ متوجاتٍ كبلقيس وشمسٍ ومن لميسَ جدودي

ومعنى هذا أن في اليمن غير بلقيس ملكة اسمها لميس وقد ذكرها الشاعر علقمة بن ذي جدن فقال:

ولميسُ كانت في ذُؤابةِ ناعطٍ يجبي إليها الخرجَ ساكنُ بربرِ
والصامخ الملك المملك بعلها ذو التاج حين بلوته والمحضرِ

هذه الأبيات موجودة في الإكليل الذي يضيف قائلاً:

ولميس هي بنت أسعد تبع.

ويبدو من الأبيات أن هنالك ملكة متوجة أيضاً اسمها لميس. فأين هي ومتى حكمت؟ أكانت قبل بلقيس أم بعدها؟ وأسئلة كثيرة تجعل المرء يتساءل: هل كان في اليمن نساء أخريات حكمنه عبر التاريخ؟ وهل اقتصر حكم النساء على بلقيس في العصور القديمة؟ وعلى أسماء وأروى في العصور الوسطى؟ أسئلة لا إجابة لها في الوقت الراهن.

والملفت للنظر أن ملوك آشور ومصر كانوا يسجلون للأجيال أعمالهم الضخمة مؤرخين مجدهم بقولهم: أنا فتحتُ وغلبتُ وخربتُ وفرضتُ الجزية ودككتُ وقتلتُ وحملتُ الغنائم. أو يقول قائلهم: أنا دمرتُها، أنا أحرقتُها بالنار، أنا قطعتُ أشجارها وسبيتُ نساءها وأبدتُ معالمها. أما السبئيون فيسجلون أعمالهم بقولهم: أنا بنيت أو وقفتُ أو رمّمْتُ أو أنشأتُ.

وكتاب **(نساء حكمن اليمن)** استغرق بلقيس ملكة سبأ أكثر من غيرها لأن الحديث عنها يطول، ولأن ذكرها جاء في القرآن الكريم، ولأن حياتها متعددة الجوانب، ولأن حولها خلافاً كثيراً لبعد العهد. فالكلام عن أبويها والأساطير في ذلك، وعن تسلمها الملك، ثم عن مقابلتها لنبي الله سليمان عليه السلام وما قيل فيها من شعر. كل ذلك يجعل الحديث عنها يطول ويتشعب.

أما أسماء الصليحية وكنّتها (أي زوجة ابنها) أروى فإن الحديث عنهما متعلق بالخلافة الفاطمية في مصر، فكان لا بد من التطرق لذلك، ثم من الكلام عن أسماء لأنها أكبر سناً وأقدم عهداً. وهي إلى جانب زوجها أسست معه الدولة الصليحية التي وصلت في عهده إلى ذروة القوة والازدهار والتوحد. أما أروى فقد كانت بعدها زمناً وأصغر سناً، وأقرب عهداً، لذلك جاءت بعد أسماء ترتيباً.

والغاية أن أبين للنساء جميعهن أن الفرصة أمامهن مفتوحة على مصراعيها، وأنه لن يقف في وجههن عائق ما دمن يملأن مركزهن، ويتصرفن بحكمة وتعقل، وأنهن جديرات بكل مسؤولية صغرت أو كبرت. وما عليهن إلا أن يجدن الفرصة وينتهزنها ويتبوأن مكانهن اللائق في النور. لا كما أريد لهن في الظل. وفي رأس الصفحة لا في هامشها.

وأنهي تقديمي هذا بالشكر العميم للسيدة **أسماء أحمد عبدالفتاح الحصيني** (أم أسامة) فهي التي اقترحت علي موضوع الكتاب، وأمدّتني بالمصادر والمراجع، وزوّدتني بمعلومات عن اليمن كنت أجهلها. وحَدّتْ من عنف قلمي في بعض المواضع. إلى جانب التشجيع والدعم الدائم. جزاها الله عني وعن نساء اليمن خاصة والمسلمات عامة خير الجزاء.

والله من وراء القصد وهو يهدي إلى سواء السبيل.

عفت وصال حمزة

بلقيس ملكة سبأ

المثال والرمز
... ق م ـــ... ق م

قال الشاعر اليمني:

وَلَدتْني من الملوكِ ملوكٌ كلُّ قيلٍ مُتَوَّجٌ صِنديدُ
ونساءٌ متوَّجاتٌ كبِلْقيـ ـسَ وشمسَ ومن لميسَ جدودي

الإكليل ص ٤٢

قال علقمة بن ذي جدن:

ولميسُ كانتْ في ذؤابةِ ناعِطٍ يجبي إليها الخرجَ ساكنُ بَرْبَرِ
الصامِخُ الملكُ المملَّكُ بَعْلُها ذو التاج حين بَلَوْتَهُ والمحضرِ

ويقال بأن أبا لميس أسعد تبع.

الإكليل ص ٤٣

بسم الله الرحمن الرحيم

جغرافية اليمن وتاريخها

للكلام عن نساء حكمن اليمن، نرى أن المدخل الصحيح يجب أن يبدأ من تقصي جغرافية وتاريخ بلادهن.

فالمسرح الجغرافي لقصة النساء اللواتي حكمن اليمن هو جنوب الجزيرة العربية، الذي عرف تاريخياً باسم اليمن. ومن خلال الآثار التي عثر عليها في مأرب ـ عاصمة سبأ الثانية ـ التي تقع على بعد حوالي مئة وتسعين كيلومتراً شرقي صنعاء، يتبين أن جنوب جزيرة العرب شكل منذ أقدم العصور مركزاً حضارياً متقدماً؛ حيث قامت على أرضه إحدى أقدم الممالك العربيّة. فمملكة سبأ تشكلت قبل عشرة قرون من الميلاد، واستمرت في الوجود حتى سيطر عليها الحميريون في القرن الأول قبل الميلاد. وكلامنا عن اليمن في ماضيها السحيق سببه أن الملكة الأولى بلقيس كانت في ذلك الماضي.

وسبأ اسم أرض في شرق اليمن تمتد في الأصل على ضفاف وادي (أذنة) وأشهر حواضرها مأرب، وقد يطلق اسم سبأ على بلاد اليمن كله.

وسبأ اسم دولة كانت عمود الكيان السياسي في اليمن عبر تاريخه القديم، وباسمها ارتبط عدد من الرموز التاريخية التي اشتهرت بها اليمن مثل: ملكة سبأ، وسد مأرب وجنتيه، آية سبأ، ومأرب مدينة سبأ، والبلدة الطيبة في أرض سبأ.

والمثل العربي المشهور: (تفرقوا أيدي سبأ) وهو رمز الضعف والشتات[1].

والاسم سبأ ليس من الفعل سبى بمعنى أسر ومنه المصدر (السبي) بمعنى الأسر، والسبايا بمعنى الأسرى من النساء والأطفال، وإنما اشتق الاسم من الفعل سبأ، ومعناه في اللغة اليمنية القديمة غزا أو قام بغزوة. وسبأة تعني غزوة أو حملة. وقد جاءت كلمة سبأ في العهد القديم حوالي ثلاثٍ وعشرين مرة وجاء اسم سبأ في القرآن الكريم في سورة النمل ﴿وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ﴾ [النمل: ٢٧].

وفي سورة سبأ ﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ ءَايَةٌ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ ﴿١٥﴾﴾ [سبأ: ١٥].

وتاريخ سبأ في حقيقة الأمر عمود التاريخ اليمني القديم. ودولة سبأ في الألف الأول قبل الميلاد أكبر تكوين سياسي ظهر في اليمن. وما تلك الدول التي تذكر معها سوى تكوينات سياسية أقل شأناً منها؛ ترتبط بها حيناً وتنفصل حيناً آخر. أما آخر تلك الدول ظهوراً فهي حمير، حتى أن ملوك حمير ظلوا يحملون لقب (ملك سبأ) إضافة إلى ذي ريدان، وذو ريدان هم حمير في الأصل[2].

وكانت مأرب عاصمة دولة سبأ، وموقعها في وادي سبأ على مشارف الصحراء، يتحكم بطريق التجارة المعروف بطريق اللُبان. وكان اللُبان من أحب أنواع الطيوب وأغلاها في بلدان الشرق القديم، وحوض البحر المتوسط. وكان أجود أنواعه يأتي من اليمن وذلك لتوفر الشروط الطبيعية الملائمة. وقد أدى ذلك الطلب المتزايد للُبان إلى تطوير تجارته، ومرورها عبر طريق تجارية طويلة تمتد من البحر العربي إلى غزة وطريق أخرى تمتد

(١) الموسوعة اليمنية ص٥٠٣ و٥٠٤.

(٢) في كتاب الأنباء عن ملوك سبأ قوله إن اسم سبأ عبدشمس بن يشجب وهو أوا سبى في حروبه من ملوك العرب وأول من أدخل السبايا إلى اليمن ص١٣.

من نجران نحو الشمال فاليمامة ثم إلى جنوب وادي الرافدين.

وإذا كانت التجارة ومواردها المالي الوفير، قد أسهمت بقسط وافر في الحياة العامة وازدهارها، فإن سد مأرب هو أهم شاهد على أن اليمن شهدت أيضاً حضارة زراعية فائقة. وكان هذا السد آية ما وصل إليه السبئيون من رقي حضاري ومهارةٍ فنيةٍ، في مجال السيطرة على المياه، ودرايةٍ وخبرةٍ في مواجهة الظروف الطبيعية القاسية، وحسن تدبير في استغلال تربة الأرض الطيبة. وكان سد مأرب رمز تلك الحضارة نشأ معها وصاحب أوج نفوذها، وواكب فترات ضعفها وقوتها، وشهد لحظات انهيارها بل وانهار على أثرها[1].

وأراضي هذه الشعوب شديدة الخصوبة؛ تنتج اللبان والبخور والقرفة. ويمكن العثور على البلسم في شواطئها. وكذلك على كل الأعشاب العطرة التي تفقد أريجها بسرعة، وهناك أيضاً نخيل حلو الرائحة. كما يوجد أفاعٍ بلون أحمر داكن وهي بطول شبر، لكنها تزحف بسرعة الأرنب البريَ، ولسعتها قاتلة، وقد أوجدها الله لتحمي النباتات والأشجار مما قد يتلفها. ويسبب توفر الفاكهة فإن السكان كسالى حياتهم متمهلة ورتيبة، وينام معظم الناس على جذور أشجار استخرجت من باطن الأرض. وعندما يغلب عليهم النعاس، بسبب الروائح العطرة، فإنهم يتغلبون على ذلك باستنشاق عبق الراتنج وذقن الماعز. هذا ما تذكره الكتب التاريخية القديمة.

وتقع عاصمتهم مأرب[2] على جبل ذي أحراش كثيرة. ولهم ملك مسؤول عن القضايا القانونية وغيرها. ولكن ليس من المسموح له مغادرة قصره. وإذا فعل ذلك يقوم الناس برجمه فوراً، ويعيش هو وبطانته في بذخ وترف. لكن معظم الناس يعملون في الزراعة أو يتاجرون بالنباتات العطرية، المحلية والحبشية التي يحصلون عليها بعبورهم للمضيق في قوارب جلدية.

---

(١) الموسوعة اليمنية ص٥٠٧ و٥٠٨.

(٢) معنى مأرب: ماء رب، أي الماء الغزير المحفوظ. انظر: لسان العرب/ ربب.

وتتوافر تلك النباتات العطرة بكثرة لدرجة أنهم يستخدمون القرفة والأكاسيا والنباتات الأخرى كوقود بدلاً من الأغصان. وقد صاروا من أكثر الأقوام ثراء من خلال التجارة فصاروا يمتلكون كميات كبيرة من الأدوات الفضية والذهبية وكذلك كؤوس الشرب. ويمتلكون كذلك بيوتاً فخمة للغاية؛ ذلك لأن أبوابها وحوائطها وسقوفها مرقشة بالعاج والفضة ومطعَّمة بالأحجار الثمينة.

ثم إن السبئيين أكثر قبائل الشعوب العربية عدداً، وهم يقطنون ذلك الإقليم من جزيرة العرب المسمى العربية السعيدة، والذي ينتج معظم الأشياء التي نعتبرها ثمينة، كما يحتضن قطعاناً من كافة أصناف الحيوانات وبكميات تفوق أي تصور. وتعم كافة نواحي الإقليم الروائح الزكية لأن كل النباتات المتميزة بعطرها تنمو هنالك بشكل دائم. وهناك في الأقاليم الداخلية من البلاد غابات كثيفة تحوي أشجاراً ضخمة تنتج البخور واللبان، وكذلك النخيل والقرفة، وكافة الأصناف التي تمنح رحيقاً مماثلاً في حلاوته. ويبدو الأريج وكأنه شيء إلهي أعظم من أن تصفه قوة اللغة لأنه ينفذ ويحرك أحاسيس كل إنسان، حتى أن المبحرين على طول الساحل لا يُحرمون من الرائحة العطرة المنبعثة من أشجار اللبان وغيرها والتي تخترق هواء البحر القريب، عند هبوب الرياح في فصل الصيف.

إن هذا الثراء المغدق لهذه الشعوب لم يقد إلى هناء مثالي؛ فقد مزج هذا العطاء الكبير بما هو ضار ليكون بمثابة إنذار للبشر، الذين أصبحوا متعودين على هذه المنح الإلهية؛ فلم يعودوا يحمدون وجودها ولا يشكرون المنعم عليهم بها. ففي غابات العطور أعداد كبيرة من الثعابين ذات اللون الأحمر الداكن طولها شبر ولدغتها مميتة.

كما أن الروائح الزكية والرحيق اللزج، إذا اخترق جسم الإنسان، أصيب بمرض لا شفاء منه، لذا فإنهم يقومون بإحراق الراتنج وذقن الماعز لمقاومة الرائحة الطيبة.

وعاصمة قبيلة سبأ مبنية على جبل، ويتعاقب على حكمها ملوك بشكل وراثي، ويقدم لهم الشعب احتراماً تتجمع فيه الميزات والعوائق. فرغم ما

يبدو من عيشهم الرغيد وأنهم يوجهون أوامر للجميع دون أن يُحاسبوا، لكنهم ممنوعون من مغادرة قصورهم فإذا غادروها رجموا بالحجارة. حسب عقيدتهم في ذلك الوقت. كما مر قبل قليل.

ولم تتعرض بلادهم لأي نهب بسبب بعد موقعهم، فتوافرت في بلادهم كميات هائلة من الذهب والفضة، ولا سيما في مدينة سبأ حيث يقع القصر الملكي. وهم يمتلكون كافة الأقداح الفضية والذهبية المنقوشة. وعندهم أرائك من الفضة والذهب، وأعمدة مطلية بالذهب، ومنقوشة بحجارة كريمة، وأخرى مزينة القواعد بأشكال فضية. ويقسمون الأسقف والأبواب عبر ألواح وصناديق ذهبية مرصعة بأحجار كريمة متقاربة؛ مما يجعل كل زاوية من منازلهم عظيمة الكلفة؛ ذلك أن بعض أقسامها مبني بالذهب والفضة والعاج والأحجار الكريمة. وقد حافظوا على هذا الرخاء دون انقطاع ولفترة زمنية طويلة لأنهم منفصلون عن بقية الشعوب القديمة.

ويبدو البحر في هذه الأقاليم أبيض اللون؛ مما يجعل الرائي مندهشاً من هذه الظاهرة. وبالقرب من الإقليم جزر ثرية تضم مدناً غير مسورة. وكافة القطعان الموجودة فيها بيضاء اللون وليس لإناثها قرون.

هذه البلاد لم تحوِ أنهاراً على الإطلاق؛ ولذلك فقد برعوا في إقامة نظام ري؛ يستفيد إلى أقصى حد من مياه الأمطار، التي تهطل في أسابيع قليلة من العام، فتتحول إلى سيول وأودية. مما يستدعي ابتكار طرق شتى للاستفادة من المياه، قبل أن تبتلعها الأرض العطشى. فالهدف من السد، وسد مأرب خاصة، والهدف من القنوات هو تحويل مياه الأمطار الجارية في الأودية أو السيول إلى الأراضي الزراعية، وليس حجز تلك المياه. وتفيد التقديرات العلمية الحديثة أن سد مأرب أحد أهم ما أبدعه العرب الجنوبيون من الناحية التقنية. فقد كانت تلك القنوات تسقي حوالي ١٦٢٠ هكتاراً من الأراضي.

وقد ساعد هذا النظام في الري في سد حاجات سبأ من الغذاء. إلا أن قوتها الاقتصادية، كمنت في احتكارها للتجارة البحرية العالمية مع شرقي

أفريقيا وشبه القارة الهندية. وأهم البضائع التجارية البخور واللبان والذهب. حتى سمي طريق تصديرها بدرب البخور والذهب. وهذا يعكس الدور الكبير الذي لعبه اليمنيون في العصور الأولى حتى قبل ولادة وتأسيس مملكة سبأ. هذا الدور يصل إلى درجة خيالية.

ولاستكمال الحديث عن المسرح الجغرافي لموضوعنا لا بد لنا من الكلام عن سد مأرب فهو سد كبير أقامه السبئيون على وادي أذنة (ذَنَة) بين مأزمي جبلي البلق الشمالي والبلق الأوسط. وجبال البلق سلسلة من الجبال تؤلف الحاجز الأخير للمرتفعات الشرقية قبل أن تلتقي بالصحراء. ووادي أذنة أعظم أودية اليمن وميزابه الشرقي. وتشغل مساقطه حيزاً كبيراً من المرتفعات الشرقية ومنحدراتها، تقدر مساحته بحوالي عشرة آلاف كيلومتر مربع.

وقد ذكرته النقوش اليمنية القديمة باسم (عرمن) أي العرم. وذكر بالاسم نفسه في القرآن الكريم. قال تعالى: ﴿فَأَعۡرَضُواْ فَأَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ سَيۡلَ ٱلۡعَرِمِ﴾[1].

والعَرِم أو العريم بلغة النقوش وفي اللهجة اليمنية، هو السد أو الحاجز الذي يعترض الوادي وما أشبهه، ويحوّل سيله ويحجز ماءه وطميّه.

وكان اليمنيون القدماء لدى تشييدهم سد مأرب، قد سخّروا الإمكانات الطبيعية والجيولوجية الملائمة، واستفادوا من التجارب السابقة لهم في هذا المجال، فشيدوه في مضيق جبلي ملائم يتيح شق مخارج جانبية واسعة عبر الصخور. وعلى قاعدة صخرية يقوم عليها جسم السد، بحيث يمكن ربطه من طرفيه ربطاً محكماً بالصخر في أسفلي الجبلين، ثم أقاموا جسم السد الترابي[2].

أما لغة سبأ فقد عرفت باللغة السبئية وتنتمي إلى أسرة العربية

---

(١) سورة سبأ، الآية: ١٦.

(٢) الموسوعة اليمنية ص٥٠٥.

الجنوبية، وتقع ضمن إطارها اللهجات المعينية والقتبانية والحضرمية. وقد سجل السبئيون ومعهم باقي أقوام جنوبي جزيرة العرب إبداعاتهم الروحية والمادية، بأبجدية تضم تسعة وعشرين حرفاً، وتعرف في التراث العربي باسم المسند.

ومن الجدير بالذكر أن الكثير من عشرة الآلاف نقش سبئي - تم حصرها وتسجيلها - وجدت على صخور ومناطق معرضة للرياح، وهي مناطق لا يزورها أحد؛ مما يرجح الاحتمال أنها سجلت من قبل رعاةٍ أو تجّار أو مسافرين كانوا في قوافل، وهذا يصور الدرجة العالية من التعليم، في تلك المملكة التي ألهب ثراؤها خيال قدماء الكتاب.

ولإغناء الكلام عن سبأ وملوكها وأهلها أذكر ما فسره ابن كثير للآيات السابقة يقول: كانت سبأ، ملوك اليمن وأهلها، وكانوا في نعمة وغبطة في بلادهم وعيشهم، واتساع رزقهم وزروعهم وثمارهم، وبعث الله تبارك وتعالى إليهم الرسل تأمرهم أن يأكلوا من رزقه ويشكروه بتوحيده وعبادته، فكانوا كذلك ما شاء الله تعالى. ثم أعرضوا عما أُمروا به فعوقبوا بإرسال السيل والتفرق في البلاد أيدي سبأ.

روى الإمام أحمد عن عبدالرحمٰن بن وعلة قال: سمعت ابن عباس يقول: إن رجلاً سأل رسول الله ﷺ عن سبأ ما هو؟ أرجل؟ أم امرأة؟ أم أرض؟ قال ﷺ: **«بل هو رجل ولد له عشرة. فسكن اليمن منهم ستة والشام منهم أربعة فأما اليمانيون فمذحج وكندة والأزد والأشعريون وأنمار وحمير. وأما الشآمية فلخم وجذام وعاملة وغسان»** ويتم ابن كثير تفسيره فيقول: قال علماء النسب: اسم سبأ (عبدشمس ابن يشجب بن يعرب بن قحطان) وإنما سمي سبأ لأنه أول من سبأ[1] في العرب.

ومعنى قوله ﷺ: **«ولد له عشرة»** أي كان من نسله هؤلاء العشرة

(١) سبأ: سبأ الخمر يسبؤها شراها، وفي الصحاح اشتراها ليشربها. وسَبَأته السياط والنار لذعته. وسَبَأْتُ الرجل جلدتُه وسبأ جِلْده: أحرقه وقيل سلخه. لسان/سبأ.

الذين يرجع إليهم أصول القبائل، من عرب اليمن. لا لأنهم ولدوا من صلبه، بل منهم من بينه وبينهم الأبوان أو الثلاثة. ومعنى قوله ﷺ: «فتيامن منهم ستة وتشاءم منهم أربعة» أي بعدما أرسل الله تعالى عليهم سيل العرم، منهم من أقام ببلادهم ومنهم من نزح عنها إلى غيرها. وكان من أمر السد أن الماء كان يأتيهم من بين جبلين، وتجتمع إليه أيضاً سيول أمطارهم وأوديتهم، فعمد ملوكهم الأقادم فبنوا بينهما سداً عظيماً محكماً، حتى ارتفع الماء وحكم على حافات ذينك الجبلين، فغرسوا الأشجار واستغلوا الثمار، في غاية ما يكون من الكثرة والحسن. كما ذكر غير واحد من السلف أن المرأة كانت تمشي تحت الأشجار وعلى رأسها مكتل أو زنبيل ـ وهو الذي تغترف فيه الثمار ـ فيتساقط من الأشجار في ذلك ما يملؤه، من غير أن يحتاج إلى كلفة ولا قطاف، لكثرته ونضجه واستوائه. وكان هذا السد بمأرب. ويُذكر أنه لم يكن ببلدهم شيء من الذباب ولا البعوض ولا البراغيث ولا شيء من الهوام، وذلك لاعتدال الهواء وصحة المزاج وعناية الله بهم ليوحدوه ويعبدوه كما قال تبارك وتعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ ءَايَةٌ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ﴾ أي من ناحيتي الجبلين والبلدة بين ذلك ﴿كُلُوا مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ﴾ أي غفور لكم إن استمررتم على التوحيد (ويقال بأن رسل الله إليهم كان عددهم اثني عشر ألف نبي) والله أعلم. وفي تفسير البغوي عن ابن منبه أنه أرسل لهم ثلاثة عشر نبياً فكذبوهم.

ثم يذكر سبحانه ما كانوا فيه من النعمة والغبطة، والعيش الهني الرغيد والبلاد الرخية والأماكن الآمنة، والقرى المتواصلة المتقاربة بعضها من بعض، مع كثرة أشجارها وزروعها وثمارها بحيث إن مسافرهم لا يحتاج إلى حمل زاد ولا ماء، بل حيث نزل وجد ماءً وثمراً. يقيل في قرية ويبيت في أخرى؛ بمقدار ما يحتاجون إليه في سيرهم. ولهذا قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْقُرَى الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا﴾ قال وهب بن منبه: هي قرى بصنعاء. وقال مجاهد والحسن هي قرى الشام. ويعنون أنهم كانوا يسيرون من اليمن إلى الشام في قرى ظاهرة متواصلة. وقال ابن عباس: القرى التي باركنا فيها

بيت المقدس، وعنه: هي قرى عربية بين المدينة والشام. والقرى الظاهرة هي البينة الواضحة يعرفها المسافرون، يقيلون في واحدة ويبيتون في أخرى ولهذا قال تعالى: ﴿وَقَدَّرْنَا فِيهَا ٱلسَّيْرَ﴾ أي جعلنا بحسب ما يحتاج المسافرون إليه ﴿سِيرُواْ فِيهَا لَيَالِيَ وَأَيَّامًا ءَامِنِينَ﴾ أي أن الأمن حاصل لهم في سيرهم ليلاً ونهاراً.

فقالوا: ﴿رَبَّنَا بَٰعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ﴾ وذلك أنهم بطروا بهذه النعمة وأحبوا المفاوز والمهامه، التي يحتاجون في قطعها إلى الزاد والرواحل والسير في المخاوف. ﴿فَقَالُواْ رَبَّنَا بَٰعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ فَجَعَلْنَٰهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَّقْنَٰهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ﴾ أي جعلناهم حديثاً للناس وسمراً يتحدثون به من خبرهم. وكيف مكر الله بهم وفرق شملهم بعد الاجتماع والألفة، والعيش الهنيء، تفرقوا في البلاد ههنا وههنا ولهذا تقول العرب في القوم إذا تفرقوا: تفرقوا أيدي[1] سبأ، وأيادي سبأ، وتفرقوا شذر مذر.

وفي تفسير البغوي لآية ﴿وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ ٱلْقُرَى ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا﴾ قوله: إنه بارك لهم بالماء والشجر وهي قرى الشام قرى ظاهرة متواصلة تظهر الثانية من الأولى لقربها منها. وكان متجرهم من اليمن إلى الشام؛ فكانوا يبيتون بقرية ويقيلون بأخرى، وكانوا لا يحتاجون إلى حمل زاد من سبأ إلى الشام. وقيل كانت قراهم أربعة آلاف وسبعمئة قرية، متصلة من سبأ إلى الشام. ﴿وَقَدَّرْنَا فِيهَا ٱلسَّيْرَ﴾ أي قدرنا سيرهم بين هذه القرى، وكان مسيرهم في الغدوّ والرواح على قدر نصف يوم، فإذا ساروا نصف يوم وصلوا إلى قرية ذات مياه وأشجار، وقال قتادة[2]: كانت المرأة تخرج ومعها مغزلها وعلى رأسها مكتلها فتمتهن بمغزلها، فلا تأتي بيتها حتى يمتلىء مكتلها[3] من الثمار. وكان ما بين اليمن والشام كذلك. ﴿سِيرُواْ فِيهَا

(١) أيدي سبأ: اليد: الطريق. أي تفرقوا في طرق مختلفة.

(٢) لا يزال التفسير للبغوي.

(٣) المِكتل والمِكتلة: الزبيل الذي يحمل فيه التمر أو العنب. لسان/كتل.

لَيَالِيَ وَأَيَّامًا ﴾ أي وقلنا لهم سيروا فيها. وقيل هوأمر بمعنى الخبر. أي مكناهم من السير فكانوا يسيرون فيها بالليالي والأيام، أي وقت شئتم آمنين لا تخافون عدواً ولا جوعاً ولا عطشاً. فبطروا وطغوا وقالوا: لو كانت جناتنا أبعد مما هي كان أجدر أن نشتهيه.

وفي تفسيره لعبارة فأعرضوا قال البغوي: قال وهب: أرسل الله إلى سبأ ثلاثة عشر نبياً فدعوهم إلى الله، وذكّروهم نعمه عليهم وأنذروهم عقابه فكذبوهم وقالوا: ما نعرف لله عز وجل علينا نعمة، فقولوا لربكم فليحبس هذه النعم عنا إن استطاع. فذلك قوله تعالى: ﴿فَأَعْرَضُواْ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ ٱلْعَرِمِ ﴾ والعَرِم جمع عَرَمة وهي السُكر الذي يحبس به الماء. وقال ابن الأعرابي العرم: السيل الذي لا يطاق وقيل: كان ماء أحمر أرسله الله عليهم من حيث شاء، وقيل: العرم الوادي وأصله من العرامة وهي الشدة والقوة[(١)].

يقول الأعشى:

ففي ذاك للمؤتسي أسوةٌ	ومأرب قضى عليها العَرِمْ
رخام بناه له حمير	إذا جاءه ماؤهم لم يرمْ
فعاشوا بذلك في غبطة	فجارفهم جارفٌ منهزمْ
فأروى الحروث وأعنابهم	على ساعة ماؤهم ينقسمْ
فطار القيول وقُيّالها	بيهماء فيها سراب يطمْ[(٢)]

ومكنت اللقى الأثرية التي عثر عليها من التعرف على ديانة السبئيين؛ حيث عرف عنهم التعبد للكواكب والنجوم من ذلك شمس وعثتر والمقه: أي الشمس والزهرة والقمر فقد اكتسبت الشمس عند عرب الجنوب صفة التأنيث.

---

(١) انظر: اليمن ماضيها وحاضرها ص١٨٠ و١٨١.

(٢) اليمن ماضيها وحاضرها ص١٨٤.

أما القمر واسمه المقه فقد كان الاسم الرسمي لمملكة الآلهة في سبأ، وقد ارتبط هذا الإله أحياناً بمواقع محددة مثل نجران ومدر وأوام وصرواح، حيث وجدت أماكن عبادة، وما زال هناك آثار معبد بيضاوي الشكل قائمة آثاره حتى يومنا هذا في منطقة أوام قرب مدينة مأرب.

أما الإله الثالث والذي ذكر باسم عثتر فقد ساد في جنوب الجزيرة العربية وتبوأ المكانة الأولى في المعبد الوثني الجنوبي. وكانت الأضاحي تقدم له بهدف كسب رضائه حتى يستمر في رعاية الأراضي وسقايتها في فصلي الربيع والخريف[1].

ولنعد إلى محور حديثنا بلقيس بنت الهدهاد فقد استغرق الكلام عن اليمن السعيد صفحات تثبت أنها كانت بلاداً سعيدة فعلاً. وليس أدل على ذلك من قوله تعالى في سورة سبأ: ﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ ءَايَةٌ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ ﴿١٥﴾﴾[2].

❋ ❋ ❋

(١) اليمن ماضيها وحاضرها ص٣٩ وص٧٧.

(٢) سورة سبأ، الآية: ١٥.

أبوها الهدهاد

تولى الملك في مأرب شرحبيل بن عمرو بن غالب فجمع القبائل من قحطان وأجابته حمير، لكن عدوّه عَمْراً ذا الأذعار جمع جنوده وزحف إليه فالتقى معه في (الغالية) فاقتتلوا قتالاً شديداً، ومات بينهم خلق كثير، ثم رجع عمرو ذو الأذعار إلى غمدان، وعاد شرحبيل إلى بينون. فأقام في الملك سنة ثم مات فتولى من بعده الهدهاد ابنه (أبو بلقيس).. وكان الهدهاد بن شرحبيل رجلاً شجاعاً حازماً.

حدثنا ابن لهيعة عن مكحول عن أبي صالح عن ابن عباس قال: إنه لما ولي الهدهاد بن شرحبيل، زحف إليه عمرو ذو الأذعار، وبرز إليه الهدهاد فالتقوا بموضع معروف في اليمن فتحاربوا أياماً، فلما فصل العسكران، خرج الهدهاد على ناقة في زي أعرابي حتى وصل إلى عساكر عمرو ذي الأذعار، فطاف به، وتدبر عساكره، ثم سمع لغطهم وما يتوعدون به عمراً ذا الأذعار من الخذلان، وعلم ما يريدون له؛ فزاده ذلك عزماً على لقاء عمرو، لكن ذا الأذعار رجع عنه، فرجع الهدهاد وفرق عساكره.

ويروي كتاب التيجان قصة الهدهاد بن شرحبيل وأنه تزوج امرأة من الجن فولدت له بلقيس وأخاً لها، ثم مات الابن وعاشت بلقيس، ويسرد خرافات وأساطير مما ابتكره خيال الرواة وعشاق الحكايا.

غير أن تلك الروايات مرفوضة من أغلب الناس لأنه لا يمكن أن يتناسل جنسان مختلفان فلا ينسل إنسي من جنية ولا جنية من أنسي، وأيد هذا الرفض عدد كبير من العلماء.

أقام الهدهاد في الملك عشرين سنة، فلما حضرته الوفاة أحضر جميع وجوه حمير وأبناء ملوكهم وأهل المشورة من بني قحطان فقال لهم: يا بني قحطان، أما أنكم تعلمون فضل رأي بلقيس علي فإنها لا تخطىء ما تشير به عليكم. كيف تجدون بركة رأيها؟ قالوا: نعم، قال: وإنها أعقل النساء والرجال قالوا: نعم قال: فإني أستخلفها عليكم. فقال له رجل منهم: أيها الملك، تدع أفاضل قومك وأهل ملتك وتستخلف علينا امرأة؟ وإن كانت بالمكان الذي هي منك ومنا؟ قال: يا معاشر حمير إني رأيت الرجال وعجمت أهل الفضل وسيرتهم، وشهدت من أدركت من ملوكها، فلا والذي أحلف به ما رأيت مثل بلقيس رأياً وعلماً وحلماً، مع أن أمها من الجن وإني أرجو أن تظهر لكم عامة أمور الجن مما تنتفعون به وعقبكم ما كانت الدنيا[1]. فاقبلوا رأيي فإنها مع اختياري فيها مؤدية لغيرها من أهل بيتها. وإني كنت سميت الملك لمالك بن عمرو بن يعفر بن حمير.. وهو غلام له حزم وعقل، فإذا بلغ مبلغ الرجال فله الملك وذلك في حياة بلقيس أو بعد مماتها. قالوا: سمعنا وأطعنا أيها الملك انظر لنا. ومات الهدهاد بن شرحبيل ووليت الملك بلقيس[2].

أما عمرو ذو الأذعار فأمه العيوف بنت الرابع، فقد تولى الملك في حمير وقهر الناس وأخافهم بالجور، فلا يرفق لقريب أو بعيد، وقد أسرف على العرب بالسلطان، وشرد الناس ووسم من سخط عليه بالنار من أبناء الملوك، وبدل على الناس السيرة التي كانوا عليها يُعرفون. فذعر الناس منه ذعراً شديداً وبه سمي بذي الأذعار. وكان يزني ببنات الملوك من حمير فيؤتى بهن أبكاراً وغير أبكار، فكن يشربن معه الخمر وكان ينادمهن ثم يصيب منهن حاجته. فلما فعل ذلك بحمير كرهوا أيامه وأبغضوا دولته. وكان شرحبيل بن عمرو (أي والد الهدهاد أبي بلقيس) نازلاً بمأرب في قصر

---

(١) أي طالما وجدت هذه الدنيا. ويلاحظ في الرواية حشر موضوع الجن من قبل الرواة للأسباب التي أسلفنا.

(٢) كتاب التيجان ص١٤٥ وما بعدها.

بينون، ولم يكن بُنيَ مثلُه ومثل قصر غمدان وسلحين باليمن. فلما ولي الملك بمأرب شرحبيل بن عمرو، جمع القبائل من قحطان فأجابته حمير للذي أراد من انقطاع دولة ذي الأذعار. فبلغ ذلك ذا الأذعار فجمع جنوده وزحف إليه كما زحف شرحبيل بن عمرو فالتقوا بالعالية واقتتلوا اقتتالاً شديداً ثم افترقوا. ومات بينهم خلق كثير كما أسلفنا.

وبالرغم مما أشاعه الإخباريون عن بلقيس وأصولها الجنية فإن بلقيس دخلت تاريخ العرب والمسلمين مثالاً للمرأة الحكيمة العاقلة الجميلة وأضحت مثالاً للمرأة العربية المسلمة القيادية عند الكثيرين ومنهم الصوفية كما سنرى في باب (بلقيس في شعر الشعراء).

وأما ما ذكر من الحكايات التي هي أشبه بالخرافات والأساطير من التناكح بين الإنس والجن فهو مستحيل بدليل أنه قيل بحضرة رسول الله ﷺ: إن ملكة سبأ أحد أبويها جني فقال: **«لا يتوالدون»** أي أن المرأة من الإنس لا تلد من الجن والمرأة من الجن لا تلد من الإنس. وكيف يتزاوجون ويتوالدون وكل واحد منهما خلق من طبيعة مخالفة فالجن خلقوا من نار والإنس من طين فكيف يتزاوج الطين مع النار؟

والغاية من هذا معروفة تتلخص في عبارتين: لا تتطاولي يا حواء ولا تطمحي، وإذا قلت إن بلقيس ملكة سبأ قد حكمت فإن أم بلقيس من الجن، فهل أمك من الجن حتى تحكمي؟

وأعتقد أن هذه الروايات اختُرعت من خيال المحدّثين (الحكواتية) ولا سيما حين شاع الترف وزاد عدد السير الشعبية وانطلق خيال الرواة يؤلفون بلا حدود.

ويقول كتاب تاريخ اليمن القديم ص٥٢ والذي يرى أن المبالغات التي قيلت عن بلقيس سببها المنافسة المضرية القحطانية التي أطلت برأسها في العصر الإسلامي الأول، ثم صراع العرب مع الشعوبيين في العصور التالية أديا إلى مبالغات واضحة. حتى إن بعض كتاب اليمن شماله وجنوبه يعتبر بلقيس كلها أسطورة، وأن إطلاق اسمها على زيارة سليمان من عمل الرواة والإخباريين.

ملك بلقيس بنت الهدهاد

لما وليت بلقيس الملك ازدرى رجل منهم مكانها لأنها امرأة، وأنف أن تتولى أمرهم امرأة، وانضم إليه بعض المعارضين. فحصل بينهم لغط ومناقشات وصلت إلى عدوهم اللدود ذي الأذعار، فجمع الجيوش ونهض إلى بلقيس. ولما لم يكن لبلقيس طاقة على حربه ولا سيما أن شعبها منقسم حيالها: بعضهم يناصرها وبعضهم يعاديها، فلم تجد أفضل من أن تذهب مع أخيها عمرو بن الهدهاد في زي أعرابيين إلى جعفر بن قرط الأسدي. ويقال بأنه عمر ثلاثمئة سنة[١] وكان أنجد فارس في زمانه. وهو من قبيلة هزان التي كانت أطول الناس أجساماً وأعناقاً وكانوا يعرفون في العرب أينما ساروا وقال فيهم الشاعر:

لقد كان في فتيان قومك منكح   وفتيان هزان الطوال الغرانقُ[٢]

وأتت إلى جعفر هذا وكان قد أقعده الكبر، ويقال بأنه أطول الناس جسماً وعمراً فقالت له: أنا بلقيس بنت الهدهاد وهذا أخي عمرو بن الهدهاد، أتيتك به هاربة فأدخلني إلى بنات عمك آمنة. فأجارها جعفر بن قرط وأخاها. بينما كان عمرو ذو الأذعار يطلبها وأخاها فلا يجد لهما حساً.

(١) كتاب التيجان ص١٤٨.

(٢) الغرانق: الطوال الأعناق.

كان جعفر بن قرط قد عَوَّد نفسه، أن يذهب إلى مكة كل عام فيحرم بمكة شهر رجب، ثم يرجع إلى حصنه (علعال) وبعد رجوعه من العمرة، يجاور قبر هود عليه السلام شهر المحرم كله حتى ينسلخ. فكان يفعل ذلك كل عام ثم يرجع إلى حصنه (علعال). وكان بينه وبين قبر النبي هود مسيرة يوم.

فرحل جعفر بأهله وولده الأصاغر، وسارت معه بلقيس وأخوها عمرو طفل صغير ولا يعلم بأمرهما أحد من الناس. ويقال إن ريحاً هبت باليمن فهدَّت الصخر من قنن الجبال، وخدَّدَت الأرض ونقلت أحقاف الرمل من مكان إلى مكان، فزعم أهل اليمن أنها كالريح العقيم هبت من جور عمرو ذي الأذعار. فكشفت تلك الريح جبلاً من رمل عن منبر هود النبي عليه السلام دراً وياقوتاً وعن يمينه عمود من جزع أحمر... فأمر جعفر بن قرط بالخروج ولم يأخذ منه شيئاً.

ويروي كتاب التيجان مقتل جعفر بن قرط على يد عمرو بن عباد بعد أن شرّبه الخمر حتى صرعه[١] ثم سل سيفه وضرب به رأس جعفر ثم أخذ لحيته يجر بها رأسه، فلما نظر أهل الحي إلى رأس جعفر خضعوا لعمرو بن عباد هذا مرغمين؛ فقد قتل زعيمهم جعفر بن قرط غدراً.

وكان في الحي فتاة جميلة اسمها جدجاد فقال عمرو بن عباد هذا: زينوا لي جدجاد حتى أخلو بها فقالت بلقيس: ويلكن إني أَيِّدَة[٢] ليس في الرجال مثلي ولا من يدافعني، وقد أعددت مدية خوصية[٣] للملك عمرو ذي الأذعار. وكانت قد جعلت نصاب المدية ذهباً، ورأس النصاب ياقوتة زرقاء، فتدخلها من مفرقها في قرونها، حتى تخرج رأس المدية من شعر قفاها وتبقى الياقوتة والذهب على جبينها وهي زينة. ولكن لا يدري أحد ما وراء ذلك.

---

(١) كتاب التيجان ١٥٧.

(٢) الأيد: القوة. ورجل أيّد: قوي. وامرأة أيّدة: قوية.

(٣) الخوصة: خوصة النخل وتخويص التاج مأخوذ من خوص النخل يجعل له صفائح من الذهب على قدر عرض الخوص. عن اللسان/خوص.

فزينت بلقيس وأتي بها إلى عمرو بن عباد وقالوا له: هذه جدجاد. وكانت بلقيس أجمل من جدجاد ومن نساء زمانها. فلما رآها عمرو أنكرها، وعلم أنها ليست جدجاد. غير أنها فتنته فغلبت عليه عقله، فهمَّ بها فقالت: يا عمرو. إن الأبكار من النساء كالإناث من الخيل لا يسمحن إلا عن صهيل ومجابذة ـ وإنما أرادت أن تعلم أين هو من قوتها ـ ومد يده إليها فدافعته عن نفسها وغلبته، فأخذت يديه جميعاً بيدها الواحدة فأمسكته فلم يستطع معها حراكاً، ثم مدت يدها إلى قرونها فسلت المدية وضربت بها نحره. فلما وجأته ومات أخذت برجليه تجره في الحي وتقول: قليل لك مني هذا يا أبا عامر. ثم قالت للنساء اللواتي معها: اسرجن فرس أبي عامر فركبته ولبست لأمة أبي عامر (عمرو بن عباد) كما كان يفعل هو وقالت للنساء: ارتحلن قبل أن يشيع قتل أبي عامر فيتخطفكن العرب من هذا الشعب. فرحلن ومشت خلفهن بلقيس. ولما رجعن إلى (علعال) بكين جعفر بن قرط.

وشاع قتله في العرب فعرف عمرو ذو الأذعار مكان بلقيس فأرسل فأخذها. لكن بلقيس قالت لأخيها عمرو بن الهدهاد: إن لي حيلاً إذا لقيت عمراً ذا الأذعار فأخدعه، أما أنت فلا حيلة لك إلا الموت فاهرب. فهرب عمرو أخوها إلى البحرين مكْتَتِماً في زي أعرابي فلم يعلم به أحد. وسارت بلقيس حتى دخلت على عمرو ذي الأذعار، فأمر بالخمر ينادمها كما كان ينادم بنات الملوك ويفعل بهن. فلما أخذت الخمر منه همَّ بها. قالت له: أيها الملك سترى مني من المال أكثر مما رأيت من الحرص، وحاجتي فيك أعظم من حاجتك فيَّ. وسامرته أحسن مسامرة فألهاه ما سمع منها وما أعطته من القرب، وهي تعمل فيه بالخمر، حتى علمت أن الخمرة عملت فيه فقامت إليه وسلت مديتها من قرونها ثم نحرته. فلما مات جرّته فألقته في ركن مجلسه وألقت عليه بعض فرش المجلس. ثم خرجت إلى الحرس في جوف الليل وقالت لهم: يأمركم الملك بفلان أن تأتوا به، فلما أتوا به وكان يتبعه ألوف من حمير. فلم تزل ترسل إلى ملوك حمير وأبناء الملوك حتى اجتمعوا إليها في قصر غمدان. عندها خرجت عليهم فقالت لهم: إن

الملك قد تزوجني على أني برئت إليه من ملكي في حياته، وأنتم تعلمون أنه لا ولد له. فلما علم مني الخضوع بحقه والاستسلام لإرادته والطاعة لأمره، فوّض إليّ بعده ورآني أهلاً له وأمرني أن آخذ عليكم بذلك عهداً. قالوا: سمعاً وطاعة للملك فيما أراد. وبذلك أخذت عليهم العهد أن لها المُلك بعد عمرو ذي الأذعار. فلما توثقت منهم قالت لهم: هل تسمعون ذلك من الملك؟ فأدخلتهم المجلس. قالوا لها: أين الملك؟ قالت: ها هو ذا وكشفت عنه فرأوه قتيلاً. قالوا لها: من فعل هذا؟ قالت: أنا ولي العهد عليكم بالملك بعد موته، وها هو ذا قد مات وعهدي لكم لازم. قالوا لها: أنت أولى بالملك إذ أرحتنا من هذا الرجس الجائر. فوليت بلقيس بنت الهدهاد بن شرحبيل ملكهم(١).

ويزعم بعض الرواة أن عمراً ذا الأذعار لم يمت بل سقط شقه من الفالج ولذلك قتلته بلقيس وكان ملكه مئة وخمساً وعشرين سنة. وقد ذكره المضرب بن وائل بن يعفر الحميري في شعره قال:

عـجـبـتُ لـلـدهـر وآوانـه ... وصـرفِ أيّـام لـه فـانـيـه(٢)
فـبـيـنـمـا الـمـرءُ يـريـدُ الـهـوى ... إذ مـالَ لا يـبـقـي عـلـى بـاقـيـه
لـو كـان ذا الـدهـر إذ جـاءنـا ... يـخـتـلـبُ الـعـبـدَ وذا الـداهـيـه
لـو يـعـلـم الـدهـر بـمـا قـد أتـى ... لـم يـعـلـن الـبـيـان مـن نـاعـيـه
حـال عـن الـدنـيـا بـصـرف الـردى ... يـخـتـلـس الـحـاضـر والـبـاديـه
عـم عـلـى مـلـك لـنـا قـاهـر ... مـالـك أنـس فـي ذرا سـامـيـه
ومـلـك حـيّـانَ هُـمُ أصـلـه ... لـم يـكـن الـبـاقـي بـذي راقـيـه
أخـرجَ ذا الأذعـارِ مـن مـلـكـه ... ولـكـنِ الـدنـيـا إلـى نـاهـيَـهْ
لـم تـلـبـس الـشـمـس سـرابـيـلـهـا ... عـلـى مـلـيـك كـان ذا تـالـيـه
قـد خُـسِـفَ الـبـدرُ ولاذت بـه ... لـمـا تـولـى الأنـجـم الـسـاريـه

---

(١) في رواية أنها أمرت الحرس فقتلوه.
(٢) الآوان: يبدو أنها أوان بمعنى زمن وأزمان.

وقال عمرو بن الهدهاد (أخو بلقيس) يهجو عمراً ذا الأذعار. ويقال: إنه أول هجو كان في العرب:

أصبح ذو الأذعارِ في رمسِهِ ... يأكله الجَوْزُ الذي قدَّما
لم يحمد اللّهُ له سعيَه ... ولم يحرِّمْ دهرَه محرما
لم تبك عينٌ بعده حسرةً ... ولم يرَ الدهرُ له مُكرِما
محتْ ضياءَ الدهر أيامه ... فأصبح الدهر له أسحما[1]
اربدَّ وجهُ الدهرِ من دهرِهِ ... فظلَّ عرنينُ الرضى أكشما[2]
عاصاه وجهُ الحقِّ لما دعا ... إلى ردى الجورِ الذي خَجَّما
ينزل عن رفع العلا هابطاً ... ولم ير الدهر له سلما
كم من فتاة طفلةٍ غادة ... تذكر من يوميه ما أحرما
وكم كريم ماجدٍ سَيِّدٍ ... من حمير الأنجاد قد أوسما[3]
شكتْ وجوهُ العدلِ أيامَهُ ... أسلمه الحقُّ الذي أسلما

فلما وليت بلقيس الملك قالت حمير: رجع الملك إلى نجلته الأولى[4].

ومن قصة بلقيس مع ذي الأذعار نستدل على أمرين اثنين: أولهما قوتها الجسدية، وثانيهما قوتها العقلية، فهي تحارب كل أناسٍ بسلاحهم.

❁ ❁ ❁

(١) أسحم: السُّحْمَة: سواد كلون الغراب الأسحم وكل أسود أسحم. والمرأة السحماء: السوداء. لسان/سحم.

(٢) العرنين: الأنف. والعرنين الأشم: المرتفع، وذلك كناية عن العزة.
أكشم: كشم أنفه دَقَّه وجدعه. والكشم: قطع الأنف باستئصال. وأنف أكشم: مقطوع. لسان/كشم.

(٣) أوسم: الوشم: أثر الكي وقد وسمه وسماً وسمة: إذا أثر فيه بسمةٍ أو كيٍّ. لسان/وسم.

(٤) النجلة: النجل: النسل. والنجل: الوالد أيضاً. لسان/نجل.

اسمها

عَرّف الإخباريون العرب بلقيس ملكة سبأ بعدة أسماء هي: بلقمه، بلمقه، بلقمة. ثم يلقمة يلمقة وألقمة والمقه. وهذه الأسماء لم تكن دارجة بين العرب إطلاقاً مما يرجح أنها اسم للإله العربي الجنوبي (ألمقه) أي القمر والذي كثيراً ما ورد في النقوش العربية الجنوبية.

ويلاحظ أن بعض الإخباريين العرب أشاروا إلى وجود أخت لبلقيس اسمها شمس والذي يذكّرنا بأن بلقيس تعبدت للشمس. وفي بعض الروايات أن (سمسي) أي شمس هي أم بلقيس. وهنالك رأي أن اليمن كانت تحكم في فترة من الفترات من قبل النساء وكان لقبهن بلقيس وكان تعبدهم للقمر.

أما ابن دريد وهو المغرم بأصول الأسماء واشتقاقاتها فإنه يقول: وهذه أسماء قد أميتت الأفعال التي اشتقت منها فلا نقف لها على اشتقاق لأنها لغة قد قَدُم العهد بمن كان يعرفها.

وقد رجح أحد المستشرقين (مونتغمري وات) أن الاسم مأخوذ من المفردة اليونانية Pallakis بمعنى عشيقة ـ عبر لغة التوراة ـ.

وقد رأى المستشرق الألماني سُتَاينشنايدر بأن الاسم نتج من تحوير ناتج من إدغام المفردتين ملكة وسبأ أي بإسقاط حرفي الميم والباء وقلب الهمزة إلى ياء والكاف إلى قاف ثم حدوث قلب للأحرف. وهذا بعيد جداً.

ورأى المستشرق الفرنسي دوساسي أن بلقيس تصحيف للاسم نِقَوْليس/

نكوليس وهذا يدل على أن الاسم انتقل كتابة وهذا لا دليل له من التاريخ.

والمستشرق الألماني غستاف روش سجل رأيه الخاص بأن الاسم هو المفردة اليونانية Pallaxis-Pallakis وانتقل إلى العرب وإلى اليمن عبر التجارة البحرية مع مصر وهو أمر ثابت تاريخياً.

ومستشرق آخر يقول بأن الاسم بلقيس دمج لكلمة (بل وكيس) صاحبة الكنز ثم قلب حرف الكاف إلى قاف.

وهناك باحثة نمساوية احتملت أن الاسم عربي وهو صيغة مختصرة لـ(بنت القيس) وقد عرف العرب اسم القيس ومعنى القيس الشدة. وتقول بأن العرب عرفوا إلهاً باسم قيس. ثم دمجت الكلمتان (بنت والقيس) فصارت بلقيس(١).

ولم تعرف العرب الاسم بلقيس، كاسم علم، إلا بالارتباط مع ملكة سبأ. فلو كان الاسم سائداً في الإقليم لوجدنا إشارة إليه في الكتابات، ولوجدنا له ذكراً في أحاديث رسول الله ﷺ.

ورغم جميع المحاولات العربية والأجنبية، فإن أحداً لم يفلح في تقديم التفسير المفيد للاسم، وربما كان أقرب تلك المحاولات للعقل ما قاله روش: إن بلقيس كلمة يونانية تعني جارية. على أن مثل هذا التفسير يوحي بأن صاحبة هذا الاسم كانت امرأة ضعيفة وتابعة، وهو أمر لا يتفق مع أوصاف الملكة عند الإخباريين. ففي كتاب التيجان لوهب بن منبه أنه لما حضرت أباها الوفاة، جمع وجوه مملكته وأهل المشورة وقال من جملة ما قاله ليبرّر ويسوّغ استخلاف بلقيس عليهم: (إني رأيت الرجال وعجمتُ(٢) أهل الفضل وسيرتهم وشهدتُ من أدركتُ من ملوكها، فلا والذي أحلف به ما رأيت مثل بلقيس رأياً وعلماً وحلماً) كما ذكر على لسان الهدهد وهو

---

(١) بلقيس امرأة الألغاز ص٥٣ و٥٤.

(٢) عجمت: عجمتُ الرجل: إذا خبرته، وعجمتَ العود: إذا عضضتَه لتنظر أصلبٌ أم رخو. لسان/عجم.

يصف بلقيس لسليمان نقلاً عن هدهد مأرب قوله: (ملكتُنا امرأة لم ير الناس مثلها في حسنِها وفضلها وحسنِ تدبيرها، وكثرةِ جنودِها والخيرِ الذي أعطيتْهُ في بلدها).

والقرآن والتوراة وهما المصدران الأساسيان لقصة ملكة سبأ، لم يوردا لها اسماً، فالتوراة تنعتها بملكة سبأ أو (ملكة تيمنا) أي ملكة الجنوب وأنها زارت سليمان وقدمت له هدايا ثمينة. والقرآن الكريم لا يذكر لها اسماً. قال تعالى: ﴿وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ ﴿٢٢﴾ إِنِّي وَجَدتُّ ٱمْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ ﴿٢٣﴾﴾ [النمل: ٢٢ و٢٣].

وقد كان لانتشار القصة أثر في تنازع الناس حول الملكة، واختلافهم في اسمها وأصلها وموطنها؛ مما أضفى عليها أخباراً مصطنعة، وألواناً متعددة، تكاد تغلب القصة الحقيقية التاريخية، وتحولها إلى حكاية شعبية أو أسطورة من الأساطير؛ التي تروى في أزمنة مختلفة، ومواطن متباعدة فيضيف إليها الرواة ما شاء لهم خيالهم.

روى الخليفة المهدي بن المنصور عن جده عبدالله بن عباس قال: كان أولو مشورتها ألف قيل تحت يد كل قيل ألف مقاتل. وقال قتادة: كانت بلقيس في بيت مملكة، وكانت بأرض يقال لها مأرب من صنعاء على ثلاثة أيام وكان أولو مشورتها ثلاثمئة واثني عشر قيلاً؛ كل قيل منهم على عشرة آلاف رجل، وكذلك قال ابن جرير صاحب المذيل في عدتهم. وقال مجاهد: كان مع بلقيس ملكة سبأ اثنا عشر ألف قيل مع كل قيل مئة ألف مقاتل. ثم يضيف: وبلقيس اسمان جعلا اسماً واحداً مثل حضرموت (حضر الموت) وبعلبك (بعل بك). وذلك أن بلقيس لما حكمت بعد أبيها الهدهاد قال بعض حمير لبعض: ما سيرة هذه الملكة من سيرة أبيها فقالوا: بلقيس؛ أي بالقياس، فسميت بلقيس[1].

❀ ❀ ❀

(١) الموسوعة اليمنية ص١٦٦ و١٦٧.

أعمال بلقيس بنت الهدهاد

قلنا إن بلقيس قتلت الملك الجبار، الذي استكبر في الأرض وعلا وتجبّر وتعدّى على بنات الملوك الحميريات، وبقي في الملك زمناً طويلاً. ولما قتلته علّقت رأسه على باب المدينة فقال الشعب: لقد أراحتنا بلقيس من هذا الرجس الجائر. إنها حقاً امرأة حديدية.

ثم جمعت بلقيس الجيوش العظيمة، وذهبت إلى مكة فاعتمرت، ثم توجهت إلى أرض بابل، فغلبت على من كان بها من الناس، وبلغت أرض نهاوند وأذربيجان والصين ثم قفلت عائدة إلى اليمن.

وكان حرسها الرجال الذين يؤازرونها وبطانتها من النساء. وكان لا أرب لها في الرجال، وأنها لما غلب عليها رسول الله سليمان بن داود عليه السلام تلوّم أمره[1] فيها حتى أتاه الوحي ببراءتها من ريب الجاهلية فتزوجها وهي عذراء. وكل ذلك على رواية كتاب التيجان.

وكان معها ثلاثمئة وستون امرأة من بنات أشراف حمير. وكانت تحبس الجارية حتى تبلغ. ثم تحدّثها حديث الرجال، فإذا رأتها قد تغيّر لونُها ونكستْ رأسَها عرفتْ أنها أرادت الرجال، فسرَّحتْها إلى أهلِها ووصلتْها وزوّجتها وأحسنت إليها. ولا تزوجها إلا من أشراف قومها. وإذا رأتها مستمعة لحديثها معظمة لها، أطالت النظر غير متغيرة اللون ولا

(١) تلوّم: تلوّم في الأمر أي تمكث وانتظر. والتلوُّم: الانتظار والتلبّث. لسان/لوم.

مستحية من الحديث، علمت أنها لا تريد فراقها، وأن الرجال ليسوا من بالها. [فهي منصرفة بكل جهدها وعبقريتها لخدمة بلادها متمثلة بالملكة]. فكانت بلقيس صائنة لنفسها غير واقعة في المساوىء ولا غافلة عن المكارم، فكان ملكها قبل سليمان عليه السلام بسبع سنين. وكان أصحاب مشورتها ألف قيل تحت إمرة كل قيل ألف مقاتل.

ومن الأعمال العمرانية التي قامت بها بلقيس، ورفعت مجدها إلى أبعد صيت ترميم سد مأرب؛ الذي كان الزمان قد أضرَّ به وخلخلَ أوصاله. وينسب إليها أيضاً قصر بلقيس الذي بمأرب. ويروى أنها لما ملكت أمرت ببناء قصر فحمل إليها خمسمئة أسطوانة من رخام، طول كل أسطوانة خمسون ذراعاً فأمرت بها فنصبت على تل قريب من مدينة صنعاء، وجعلت بين كل أسطوانتين عشرة أذرع، ثم جعلت فيها سُقُفاً منظومة بألواح الرخام، وألحم بعضها إلى بعض بالرصاص حتى صارت كأنها لوح واحد. ثم بنت فوق ذلك قصراً مربعاً من آجر وجص، في كل زاوية من زواياه قبة ذهب مشرفة في الهواء، وفيما بين ذلك مجالس حيطانُها من ذهب وفضة، مرصعة بألوان الجواهر المربعة. وجعلت في بابه الذي يلي المدينة برجاً من الرخام الأبيض والأخضر والأحمر. وفي جوانبها حجر لحجابها ونوابها وحراسها وخدمها وحشمها على قدر مراتبهم. وقيل أنفقت على كوة بيتها التي تدخل الشمس منها ثلاثمئة ألف أوقية من الذهب وكانت إذا نامت غلقت الأبواب وأخذت المفاتيح فوضعتها تحت رأسها.

وقال ابن منبه وابن زيد: كانت لها كوة مستقبلة الشمس، تقنع فيها الشمس حين تطلع فإذا نظرت إليها سجدت لها[1]. وفي اليمن رخام شفاف وضع لسقف بيت بلقيس فكانت ترى الشمس من خلاله، وقصرها رمز للسلطة الزمنية التي كانت تمتلكها.

أما صفة عرشها، فيقال بأن مقدمه من ذهب مفصص باليواقيت

---

(١) تفسير البغوي لسورة النمل.

الأحمر، والزمرد الأخضر، ومؤخره من فضة، مكلل بألوان الجواهر. وله أربع قوائم؛ قائمة من ياقوت أحمر، وقائمة من ياقوت أخضر، وقائمة من زمرد أخضر وقائمة من در أصفر. وصفائح السرير من ذهب، وعليه سبعون بيتاً وعلى كل بيت باب مغلق. وكان طوله ثمانين ذراعاً في ثمانين ذراعاً في الهواء.

وفي تفسير البغوي:

سرير ضخم كان مضروباً من الذهب مكلّلاً بالدر والياقوت الأحمر والزبرجد الأخضر، وقوائمه من الياقوت والزمرد، عليه سبعة أبيات على كل بيت باب مغلق. قال ابن عباس: كان عرش بلقيس ثلاثين ذراعاً في ثلاثين وطوله في السماء ثلاثون ذراعاً. وقال مقاتل: كان طوله ثمانين ذراعاً وطوله في الهواء ثمانين ذراعاً. وقيل كان طوله ثمانين ذراعاً وعرضه أربعين ذراعاً وارتفاعه ثلاثين ذراعاً(١)، وعرش بلقيس رمز للمُلْك والعظمة والأبهة.

وأغرب ما نقرأ ونسمع: أن قصور مأرب كانت من الرخام وهي قصور الملوك الذين استووا على عرشها، يبني أحدهم فيها قصراً عظيماً يقيم به ويجعله بلاطاً له ثم يجيء غيره فيبني غيره حتى أمست قصورها كثيرة منها، سلحين قصر بلقيس والنهجر والقشيب وفيها قال علقمة:

ومنا الذي دانت له الأرض كلها   بمأرب يبني بالرخام ديارا

وقد طاف الهمداني بين أنقاض مأرب في الجيل الرابع للهجرة فذكر في كتاب الإكليل أعمدة قصر سلحين قائلاً:

إنها لا تزال قائمة، ولو اجتمع جيل على أن يصرعوا واحداً منها لم يقدروا لأنهم نقبوا لكل عمود في الصخر وصبوا النحاس في أسفله.

نعم إن قصر سلحين يسمونه قصر بلقيس وهو أعظم قصور العاصمة.

---

(١) تفسير البغوي. وانظر: مختصر أنساب الأنبياء والرسل لابن كثير ص١٣١.

وهناك أثر آخر لبلقيس يدعى حرم بلقيس، لا يبعد كثيراً عن مأرب وهذا الأثر هو أحد هياكل العبادة.

جاء في كتاب التاريخ العام لليمن[١]:

محرم بلقيس (أي معبدها) يكاد يكون بيضاوي الشكل ولكنه منبعج قليلاً، وأمام مدخله الرئيسي في الناحية الشمالية البحرية (الغربية) بهو ذو أعمدة على جوانبه وعلى بعد عشرة أمتار من المدخل، تقوم أعمدة ثمانية كُبيرة في صف واحد. عدا الأعمدة الصغيرة الأخرى التي كشفت عنها هي وما حولها.

ومعبد بلقيس رمز للسلطة الروحية لها، وهو يبعد مسافة كيلومتر من قصرها وأكثر المعبد الآن مغطى بالتراب إلا الأعمدة الثمانية ويحاولون في اليمن ترميم قصرها ومعبدها لأنهما من أعظم الآثار وأقدمها في العالم.

وفي شمس العلوم لنشوان الحميري: وباقي دعائم قصرها معروفة في مأرب قد انكبست وبقي منها في الطول على هيئة أطول الرماح. لو اجتمع جيل من الناس على قلع واحدة منها لما قدروا. يحتضن الواحدة منها رجلان بالغان ثم يمدان باعيهما فلا تلتقي أيديهما عليها[٢].

قصر غمدان:

وقصر سلحين وزخرفه وكثرة قاعاته ومقاصيره ودهاليزه تكاد تضيع كلها عندما تذكر قصر غمدان في صنعاء. قياساً على قصر سلحين.

إن بانيه اليشرح بن يحصب من ملوك الجيل الأول للمسيح. وظلّ قائماً إلى أيام الخليفة عثمان بن عفان رضي الله عنه.

كان غمدان عشرين سقفاً، غرفاً بعضها فوق البعض الآخر أي عشرين

---

(١) التاريخ العام لليمن قبل الإسلام.

(٢) الأنباء عن دولة بلقيس وسبأ ص١١.

طابقاً مثل الأبنية الشاهقة التي نراها اليوم في نيويورك وغيرها. وبين كل سقفين عشرة أذرع. وإن بانيه لما بلغ غرفته العليا أطبق سقفها برخامة واحدة شفافة، وكان يستلقي على فراشه في غرفته فيمر به الطائر فيعرف الغراب من الحدأة، وهو تحت الرخام. وكان فيه أربعة تماثيل لأسود من نحاس مجوفة، رجلا الأسد في الدار ورأسه وصدره خارجان من القصر. وما بين فمه إلى مؤخره حركات مدبرة، فإذا هبت الريح ودخلت أجواف الأسود تسمع لها زئيراً كزئير الأسد ﴿عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ۝٥﴾ وكانت غرفة الرأس العليا التي هي في مجلس الملك اثني عشر ذراعاً، ولها أربعة أبواب قبالة الصبا والدبور والشمال، والجنوب، عند كل باب منها تمثال من النحاس إذا هبت الريح زأر.

وكان فيها ستور لها أجراس إذا ضربت الريح الستور تسمع الأصوات من بعيد، ومما قيل في وصف غمدان:

يسمو إلى كبد السماء مصعداً	عشرين سقفاً سمكها لا يقصر
ومن السحاب معصّبٌ بعمامةٍ	ومن الغمام مُمَنطَقٌ وَمُؤَزَّرُ
متلاحماً بالقطرِ منه صخرُه	والجَزْعُ بين صروجِهِ والمرمر[1]

❁ ❁ ❁

---

(١) بلقيس ملكة اليمن ص٣٢ ـ ٣٦ .والجَزْع: الخرز اليماني وهو الذي فيه بياض وسواد تشبه به الأعين. الصحاح/جزع.

النبي سليمان عليه السلام

ليست بلقيس امرأة عادية مر بها التاريخ، وليست ملكة حكمت اليمن فترة من الزمن ثم غابت في زوايا النسيان كما يحصل مع غيرها. وليست جنية أو من سلالة الجن كما يزعم بعضهم ممن نسبوا كل شيء خارق لم يألفوه إلى الجن. حتى قال أبو العلاء المعري:

وقد كان أرباب الفصاحة كلما   رأوا حسناً عدوه من صنعة الجن

إنها امرأة حكيمة عاقلة، نالت الملك عن جدارة وحسن تدبير، وحكمت اليمن حكماً عادلاً حازماً يعتمد على الشورى. ولعل أعظم تخليد لها ولحسن تصرفها وإسلامها ما رواه القرآن الكريم عنها مما يتلى إلى آخر الدهر.

روى القرآن الكريم قصتها مع نبي الله سليمان عليه السلام ووصفها أنها امرأة لها عرش عظيم. ولكن...

لا بد لنا لاستكمال البحث أن نتكلم عن النبي سليمان أولاً ثم نسرد قصتها معه كما رواها القرآن الكريم. فمن هو نبي الله سليمان عليه السلام؟

نسبه:

هو سليمان بن داود بن إيشا بن عويد بن عابر بن سلمون بن

نخشون بن عمينا أداب بن إرم بن حصرون. . . . جاء في بعض الآثار أنه دخل دمشق.

وراثة النبوة:

قال سبحانه وتعالى في سورة النمل: ﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَٰنُ دَاوُۥدَ ۖ وَقَالَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ ٱلطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَىْءٍ ۖ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٦﴾﴾[1].

وسليمان من الرسل من غير أولي العزم وقد ورد ذكره في القرآن الكريم سبع عشرة مرة.

قال الله تعالى: ﴿وَحُشِرَ لِسُلَيْمَٰنَ جُنُودُهُۥ مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ وَٱلطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿١٧﴾﴾[2].

وقال سبحانه: ﴿وَدَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِى ٱلْحَرْثِ﴾[3].

وقال سبحانه: ﴿وَٱتَّبَعُوا۟ مَا تَتْلُوا۟ ٱلشَّيَٰطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَٰنَ ۖ﴾[4].

وقال سبحانه: ﴿وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَٰنُ وَلَٰكِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ كَفَرُوا۟﴾[5].

وقال سبحانه: ﴿وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَٰرُونَ وَسُلَيْمَٰنَ ۚ وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا﴾[6].

وقال سبحانه: ﴿وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ ۖ وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ﴾[7].

وقال سبحانه: ﴿فَفَهَّمْنَٰهَا سُلَيْمَٰنَ ۚ وَكُلًّا ءَاتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ﴾[8].

---

(١) سورة النمل، الآية: ١٦.
(٢) سورة النمل، الآية: ١٧.
(٣) سورة الأنبياء، الآية: ٧٨.
(٤) سورة البقرة، الآية: ١٠٢.
(٥) سورة البقرة، الآية: ١٠٢.
(٦) سورة النساء، الآية: ١٦٣.
(٧) سورة الأنعام، الآية: ٨٤.
(٨) سورة الأنبياء، الآية: ٧٩.

وقال سبحانه: ﴿وَلِسُلَيْمَٰنَ ٱلرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِي بِأَمْرِهِۦٓ﴾[1].

وقال سبحانه: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ عِلْمًا﴾[2].

وقال سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمْلُ ٱدْخُلُوا۟ مَسَٰكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَٰنُ وَجُنُودُهُۥ﴾[3].

وقال سبحانه: ﴿إِنَّهُۥ مِن سُلَيْمَٰنَ وَإِنَّهُۥ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٣٠﴾﴾[4].

وقال سبحانه: ﴿فَلَمَّا جَآءَ سُلَيْمَٰنَ قَالَ أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ﴾[5].

وقال سبحانه: ﴿وَلِسُلَيْمَٰنَ ٱلرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ﴾[6] وآيات أخرى غيرها.

قصة داود وسليمان في الحرث:

قال ابن عباس رضي الله عنهما[7]: كان الحرث زرعاً. وذلك أنه دخل على داود رجلان: واحد صاحب زرع والآخر صاحب غنم، فقال صاحب الحرث: إن هذا الرجل انفلتت غنمه ليلاً فوقعت في حرثي فأكلته ولم يبقَ منه شيء. فقال داود عليه السلام لخصمه: أعطه الغنم التي أكلت الزرع في نظير زرعه. وكان ابنه سليمان حاضراً فلما سمع ذلك قال لأبيه: إنك لم تأتِ بشيء فيما قضيت به. فقال له داود: وكيف تقضي أنت بينهما؟ فقال سليمان: آمر صاحب الغنم بأن يدفع الغنم إلى صاحب الزرع سنة كاملة فيكون له نسلها ولبنها وأصوافها. فإذا كان العام القابل وصار الزرع لهيئته يوم أُكل، سلمت الزرع إلى صاحبه والأغنام إلى صاحبها. فقال

---

(١) سورة الأنبياء، الآية: ٨١.

(٢) سورة النمل، الآية: ١٥.

(٣) سورة النمل، الآية: ١٨.

(٤) سورة النمل، الآية: ٣٠.

(٥) سورة النمل، الآية: ٣٦.

(٦) سورة سبأ، الآية: ١٢.

(٧) بدائع الزهور ص١٤٤ ـ ١٤٨.

داود: القضاء ما قضيت به أنت. وحكم داود بما قاله ابنه سليمان.

ثم إن داود استخلف ابنه سليمان على بني إسرائيل، وكان لسليمان يومئذ ثلاث عشرة سنة فشق ذلك على بني إسرائيل وقالوا: كيف استخلف علينا غلاماً صغير السن وفينا من هو أعلم منه؟ فلما بلغ ذلك داود جمع أعيان بني إسرائيل من أسباط أولاد يعقوب عليه السلام. فلما اجتمعوا قال لهم: كيف تقولون في أمر سليمان؟ فليجيء كل منكم بعصا ويكتب اسمه عليها، ويجيء سليمان بعصا ويكتب اسمه عليها، ثم أدخلوا العصيَّ كلها في بيت، وأقفلوا بابه فمن أورقت عصاه فهو أحق بالخلافة فقالوا كلهم: رضينا ذلك. فأدخلوا عصيهم كلها ووضعوها في بيت وأقفلوه كما أراد. فلما أصبحوا وجدوا العصي كلها على حالها، إلا عصا سليمان فإنها صارت مورقة. فلما رأت بنو إسرائيل ذلك علموا أن سليمان هو الخليفة عليهم من أبيه داود. واستمر على عبادة الله تعالى معتكفاً حتى مات.

قال ابن كثير: لما مات داود مشى في جنازته أربعون ألف راهب عليهم البرانس السود. ودفن في خارج بيت المقدس عند بيت لحم. وقيل دفن في عنتاب وقبره مشهور يزار عليه السلام.

قال الله تعالى: ﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَٰنُ دَاوُۥدَ﴾[1].

قال الثعلبي[2]: كان لداود عليه السلام تسعة عشر ولداً. وكان سليمان أصغر أولاده، قال السدي[3]: كان سليمان أفقه من أبيه، وأقضى منه في الحكم، ولكن داود كان أشد تعبداً. قال السُّدّي والثعلبي: لم يملك الدنيا كلها سوى أربعةٍ: مؤمنيْنِ وكافريْن؛ فأما المؤمنان فهما سليمان بن داود

---

(١) سورة النمل، الآية: ١٦.

(٢) الثعلبي: أحمد بن محمد: مفسر من أهل نيسابور له اشتغال بالتاريخ له كتاب (عرائس المجالس) في قصص الأنبياء وتفسير يعرف باسم تفسير الثعلبي. الأعلام ج١/٢١٢.

(٣) السُّدّي: إسماعيل بن عبدالرحمٰن: كان عارفاً بالمغازي والسير والتفسير وكان إماماً عارفاً بالوقائع وأيام الناس. الأعلام ج١/٣١٧.

وذو القرنين وأما الكافران فهما النمروذ بن كنعان وشداد بن عاد[١].

قال الله تعالى حكاية عن سليمان: ﴿قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِى وَهَبْ لِى مُلْكًا لَّا يَنۢبَغِى لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِىٓ﴾[٢] فأجاب الله دعاءه وأعطاه.

قال بعض العلماء: كيف طلب سليمان ملكاً لا ينبغي لأحد من بعده والأنبياء شأنهم الزهد في الدنيا؟

الجواب: اعلم[٣] أن سليمان عليه السلام علم بذلك فقال أولاً: ﴿رَبِّ ٱغْفِرْ لِى﴾ ثم طلب الملك بعد طلب المغفرة فقال: ﴿وَهَبْ لِى مُلْكًا لَّا يَنۢبَغِى لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِىٓ﴾.

قال السدي: سبب طلب سليمان الدنيا: أن جبرائيل عليه السلام جاء إلى سليمان وقال: إن الله يأمرك أن تمضي إلى مكان كذا وكذا فإن هناك امرأة أرملة ولها عند الله منزلة، فامض إليها وارفع عنها حوائج الدنيا، وجميع ما تحتاج إليه من أكل وكسوة وغير ذلك. فقال سليمان لجبرائيل: إن الله تعالى يعلم أني عبد فقير لا أملك من الدنيا شيئاً، وكان سليمان يصنع القفف ويبيعها ويأكل من ثمنها هو وعياله، ولا يقرب بيت مال المسلمين. فأوحى الله إلى سليمان أن اطلب مني ما تريد. فلما رأى الإذن من الله في الطلب طلب وما قصر؛ فطلب المغفرة فاستجاب الله له دعاءه وأعطاه الدنيا من مشرقها إلى مغربها.

قال وهب بن منبه: إن سليمان لم يطلب الدنيا لنفسه، وإنما طلب أن يكون أمرها إليه، حتى يدلي بين الناس وينصف المظلوم من الظالم، ويجود على الفقراء والمساكين؛ فإن الدنيا مع العبد الصالح، في يده لا في قلبه، فإن كان بالعكس فلهوى النفس. وقول سليمان: لا ينبغي لأحد من بعدي؛

---

(١) شداد بن عاد: ملك يماني جاهلي حازم مغوار، ولوه الملك في صنعاء، غزا البلاد إلى أرمينيا ثم المغرب. دفن في شبام. الأعلام ج٣/١٥٩.

(٢) سورة ص، الآية: ٣٥.

(٣) هكذا يقول كتاب بدائع الزهور.

لأن الله ألهمه العدل في الرعية، فعلم أن غيره لا يقدر على مثل عمله.

وكان سليمان متواضعاً يجالس الفقراء والمساكين، ويأكل معهم ويحدثهم كأنه منهم، وكان لا يُشبع بطنه من خبز الشعير، ولا يلبس إلا الصوف مع سعة ملكه، ولا ينفق إلا من عمل يديه. قال وهب بن منبه: إن الله سخر لسليمان الإنس والجن والوحوش والطيور والريح. وكانت الريح تحمل بساطه إلى مسيرة شهر في غدوة من النهار. وهو قوله تعالى: ﴿غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ﴾ قال السُّدي: كان طول بساط سليمان فرسخاً وعرضه فرسخاً، وهو مركب على أخشاب. قال مقاتل: إن الجان نسجت له البساط من حرير ملون، وهو مرقوم بالذهب، وكان يحمل عليه جنوده ودوابه وخيوله وسائر الإنس والجن والوحش والطير. وكان جيش سليمان ألف ألف إنسان ويتبعهم ألف ألف من الجان وغيرهم، وكان هذا البساط يسير بين السماء والأرض مثل السحاب ودونه إلى الأرض؛ إذا أراد أن يسيّره بسرعة؛ أمر الريح العاصف يحمل ذلك البساط، فيسير كالبرق إلى حيث شاء. وكان البساط إذا سار لم يحرك إنساناً ولا دابة ولا شجرة. وإذا مر على الزرع في الأرض لم يتحرك منه ورقة. وكانت ريح الصبا واقفة بين يديه فإذا تكلم من المشرق أو المغرب، تحمل الريح ذلك وتلقيه في أذن سليمان. قال الزمخشري: كان لسليمان كرسي من الذهب والفضة برسم الأمراء والأعيان. وحول ذلك الكرسي ثلاثة آلاف كرسي من الذهب والفضة.

قال السُّدّي: كان لسليمان ألف قصر مبنية من قوارير وفيها ثلاثمئة امرأة وألف سرية. قال كعب الأحبار: كان جيش سليمان إذا نزل في الفضاء يملأ مئة فرسخ. فكان منها خمسة وعشرون للإنس وخمسة وعشرون للجن وخمسة وعشرون للوحوش وخمسة وعشرون للطير. وكان الطير يظله من الشمس وقت القائلة. قال الثعلبي: كان مرتب[1] مطبخ سليمان في كل يوم مئة ألف شاة وأربعين ألف بقرة خارجاً من الفواكه والحلاوات وغير ذلك. ومع ذلك كله لم يرجع عن أكل خبز الشعير بالملح الجريش. وكان الجن يغوصون له البحار ويستخرجون له منها الدرر الكبار، ويجعلونها بين يديه؛

(١) أي نصاب مطبخه.

وذلك قوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلشَّيَـٰطِينِ مَن يَغُوصُونَ لَهُۥ﴾[1].

قال الثعلبي: إن سليمان كان إذا جلس في موكبه تقف الغلمان الحسان على رأسه، بأطباق من الذهب، وهي مملوءة من المسك السحيق. وفيها صحاف من الياقوت الأحمر وفيها شيء من ماء الورد، وفوقها طيور صغار مثل العصافير ترفرف بأجنحتها وتنزل في ماء الورد وتتمرغ في ذلك المسك وتطير وتنتفض على الكبير والصغير من جيشه.

قال السُدي: لم يقع لأحد من ملوك الأرض كما وقع لسليمان عليه السلام؛ وذلك أن الريح مركبه والبحار خزائنه، والجن خدمه والملائكة حفظته، والطير من الشمس تظله، والوحوش تحرسه، وآصف بن برخيا وزيره، والاسم الأعظم مكتوب على خاتمه، وقيل إن سليمان تأمل ذلك وأعجب بنفسه، فمال البساط من تحته في قوة سيره، فهلك من جيشه نحو اثني عشر ألف إنسان في ساعة واحدة، فلما رأى سليمان ذلك ضرب البساط بقضيب كان في يده وقال: اعتدل أيها البساط. فأجابه البساط من تحته: اعتدل أنت يا سليمان حتى أعتدل أنا. فعلم أن البساط مأمور فخرّ سليمان ساجداً لله.

قال وهب بن منبه: فلما اتسعت الدنيا عليه نسي الأرملة التي تقدم ذكرها، فلما تذكرها اضطرب، وتوجه إليها وهو ماشٍ على قدميه، فوقف على بابها فأذنت له بالدخول فدخل، فوجد المرأة عمياء وحولها ثلاث بنات. فقالت: يا سليمان يوصيك الله بي وتغفل عني هذه المدة الطويلة؟ فاعتذر لها سليمان من ذلك وقال لها: منذ كم وأنت عزبة[2]؟ فقالت له: منذ عشر سنين ومعي ثلاث بنات ولم يكن لي ما يكفيهن من القوت. فلما سمع سليمان ذلك حمل إليها مئة رحل ما بين قماش ومال وغير ذلك. وقال لها: متى فرغ من عندك شيء فأرسلي أعلميني حتى أرسل إليك

(١) سورة الأنبياء، الآية: ٨٢.

(٢) ربما يقصد أنها أرملة.

عوضه؛ فإن الله أمرني أن أكفيك هم الدنيا وأمر المعيشة.

قال أبو عمران الجوفي: بينما سليمان سائر على بساطه بين السماء والأرض إذ مر برجل راع، فلما رأى الراعي البساط وسليمان وجنوده ركوباً عليه قال: لقد آتاك الله يابن داود ملكاً عظيماً لم ينله أحد قبلك، فألقت الريح كلام الراعي إلى سليمان فأحضر سليمان الراعي وقال له: إن تسبيحة من مؤمن أفضل مما أوتي سليمان من هذا الملك كله.

ومن النكت الغريبة أن سليمان عليه السلام لما رأى أن الله تعالى أوسع له الدنيا وصارت بيده قال: إلهي لو أذنت لي أن أطعم جميع المخلوقات سنة كاملة. فأوحى الله إليه: إنك لن تقدر فقال: إلهي أسبوعاً. فقال الله تعالى: لن تقدر فقال: إلهي يوماً واحداً فقال تعالى: لن تقدر فقال: إلهي مقصودي ولو يوماً واحداً، فأذن الله تعالى له في ذلك. فأمر سليمان الجن والإنس بأن يأتوا بجميع ما في الأرض من أبقار وأغنام، ومن جميع ما يؤكل من أجناس الحيوانات من طير وغير ذلك. فلما جمعوا ذلك، اصطنعوا له القدور الراسيات ثم ذبح ذلك وطبخه وأمر الريح أن تهب على الطعام لئلا يفسد ثم مَدَّ ذلك الطعام في البرية، فكان طول ذلك السماط مسيرة شهرين وعرضه مثل ذلك. ثم أوحى الله إليه: يا سليمان بمن تبتدىء من المخلوقات؟ فقال سليمان: أبتدىء بدواب البحر. فأمر الله حوتاً من البحر المحيط أن يأكل من ضيافة سليمان، فرفع ذلك الحوت رأسه وقال: يا سليمان سمعت أنك فتحت باباً للضيافة، وقد جعلت عليك ضيافتي في هذا اليوم. فقال سليمان: دونك والطعام. فتقدم ذلك الحوت وأكل من السماط فلم يزل يأكل حتى أتى على آخره في لحظة ثم نادى: أطعمني يا سليمان وأشبعني فقال له سليمان: أكلت الجميع وما شبعت؟ فقال الحوت: أهكذا يكون جواب أصحاب الضيافة للضيف؟ اعلم يا سليمان أن لي في كل يوم مثل ما صنعت ثلاث مرات وأنت كنت السبب في منع راتبي في هذا اليوم وقد قصرت في حقي. عند ذلك خرّ سليمان ساجداً للّه تعالى وقال: سبحان المتكفل بأرزاق الخلائق من حيث لا

يعلمون، وقد قيل في هذا المعنى:

رزقي يأتي وخالقي يكفله فلا أقصدُ غيره ولا أسألُه
إن كنتُ أظنُّ أنه من بشرٍ لا قدّرهُ اللّهُ ولا يسَّرَهْ

ومن النكت أيضاً ما ذكره ابن الجوزي في كتاب الأذكياء: أن الهدهد قال يوماً لسليمان: أريد أن تكون في ضيافتي يوم كذا وكذا فقال سليمان: أنا وحدي؟ قال: لا، بل أنت وجنودك. فلما جاء الميعاد توجه سليمان وجنوده إلى ضيافة الهدهد، ونزل جزيرة الهدهد. فطار الهدهد إلى الجو وغاب ساعة ثم أتى وفي فمه جرادة فخنقها ورمى بها في البحر وقال له: يا نبي الله، تقدم وكل أنت وجنودك، ومن فاته اللحم فعليه بالمرقة، فضحك سليمان عليه. وصار كلما تذكر تلك الضيافة يضحك.

ومن النكت التي قيلت في مثل ذلك أن القبرة أضافت سليمان وأتته ببعض جرادة فقيل في معناها:

أتت سليمان يوم العرض قُبَّرَةٌ تهدي إليه جراداً كان في فيها
وأنشدتْ بلسان الحال قائلةً إن الهدايا على مقدار مُهديها
لو كان يُهدى إلى الإنسانِ قيمتُهُ لكانَ قيمتُك الدنيا وما فيها[1]

وفي كتاب قصص الأنبياء[2] في قوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِى وَهَبْ لِى مُلْكًا لَّا يَنۢبَغِى لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِىٓ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ ﴿٣٥﴾ فَسَخَّرْنَا لَهُ ٱلرِّيحَ تَجْرِى بِأَمْرِهِۦ رُخَآءً حَيْثُ أَصَابَ ﴿٣٦﴾ وَٱلشَّيَـٰطِينَ كُلَّ بَنَّآءٍ وَغَوَّاصٍ ﴿٣٧﴾ وَءَاخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِى ٱلْأَصْفَادِ ﴿٣٨﴾ هَـٰذَا عَطَآؤُنَا فَٱمْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٩﴾﴾[3] حدَّث البخاري مرفوعاً إلى أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: **«قال سليمان بن داود: لأطوفن الليلة على سبعين امرأة تحمل كل امرأة فارساً يجاهد في سبيل الله فقال صاحبه:**

(١) الأذكياء لابن الجوزي ص١٢ و١٣.
(٢) قصص الأنبياء ص١٢٨.
(٣) سورة ص، الآيات: ٣٥ ـ ٣٩.

إن شاء الله فلم يقل[1]. فلم تحمل شيئاً إلا واحداً ساقطاً أحد شدقيه». فقال النبي ﷺ: «لو قالها لجاهدوا في سبيل الله».

وفي تاريخ الطبري[2] قال: وذكر لي أن منزلاً بناحية دجلة مكتوب فيه: كتاب كتبه بعض أصحاب سليمان إما من الجن وإما من الإنس: نحن نزلناه وما بنيناه، ومبنياً وجدناه، غدونا من اصطخر فقلناه[3] ونحن رائحون منه إن شاء الله فبائتون بالشام. وقال: وكان ـ فيما بلغني ـ أن الريح لتمر في عسكره والرُخاء[4] تهوي به إلى ما أراد. وإنها لتمر بالمزرعة فما تحركها.

وقال الطبري كلاماً منسوباً إلى محمد بن كعب القرظي[5] قال: بلغنا أن سليمان كان عسكره مئة فرسخ، خمسة وعشرون منها للإنس، وخمسة وعشرون للجن، وخمسة وعشرون للوحوش، وخمسة وعشرون للطير. وكان له ألف بيت من قوارير على الخشب فيها ثلاثمئة صريحة وسبعمئة سرّيّة. فأمر الريح العاصف فرفعته، وأمر الرخاء فسيّرته، فأوحى الله إليه وهو يسير بين السماء والأرض: إني قد زدتُ في ملكك أنه لا يتكلم أحد من الخلائق إلا جاءت به الريح وأخبرتك.

وفي المرجع ذاته عن ابن عباس قال: كان سليمان بن داود يوضع له ستمئة كرسي، ثم يجيء أشراف الإنس فيجلسون مما يليه، ثم يجيء أشراف الجن فيجلسون مما يلي الإنس. قال: ثم يدعو الطير فتظلهم، ثم يدعو الريح فتحملهم. قال: فتسير في الغداة الواحدة مسيرة شهر.

---

(١) أي لم يقل سليمان إن شاء الله.

(٢) تاريخ الطبري ج٤٨٧/١.

(٣) أي القيلولة فيه والله أعلم.

(٤) الرُخاء: الريح اللينة.

(٥) محمد بن كعب القرظي: توفي سنة ١٠٨هـ.كان عالماً بتفسير القرآن صالحاً عابداً. كان يقول: إذا أراد الله بعبد خيراً جعل فيه ثلاث خصال: فقهاً في الدين، وزهادة في الدنيا، وبصراً بعيوب نفسه. وكان عمر بن عبدالعزيز يستشيره وقد نصحه عندما تولى الخلافة. وبينهما رسائل كثيرة. البداية والنهاية ج٢٥٧/٤، وصبح الأعشى ج١٣٨/١.

وليس هذا الأمر بمستبعد في عصرنا هذا؛ حيث سخر الإنسان فيه العلم لأغراضه البعيدة باختراع الطائرات، والطائرات النفاثة، ومراكب الفضاء، والمستقبل زاخر بشتى أنواع المخترعات مما يجعل ما ذُكر عن سليمان واقعاً وليس ضرباً من الخيال.

وفي كتاب تاريخ مختصر الدول[1] قصة عن حكمة سليمان عليه السلام وذكائه: جلس سليمان على كرسي الملك فأتته امرأتان تختصمان إليه في صبي تدّعي كل واحدة منهما أنه ولدها. فقال سليمان لسيّافه: اقطع الصبي بنصفين وأعط لكل واحدة نصفه.

فقالت الواحدة: نعم حتى لا يكون لي ولا لها. وقالت الأخرى: ادفعه إليها أيها الملك ولا تقتله، فعلم سليمان أنه ابنها فدفعه إليها.

وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَٰنَ وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِۦ جَسَدًا ثُمَّ أَنَابَ ﴿٣٤﴾ قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِى﴾[2].

وقد امتحن الله سبحانه سليمان بمرض شديد أصابه حتى صار إذا جلس على كرسيه ظهر وكأنه جسد بلا روح. ثم تماثل للشفاء. وقد يكون سبب ذلك تقصيراً في حق نفسه كما يقع لبعض الناس المفرِّطين في صحتهم. فإذا حل بالإنسان مرض وكان سببه الإسراف في إهمال الصحة والتساهل في أمر نفسه، فإذا دخل في مرضه تنبه إلى ما وقع فيه من الخطأ وطلب من الله المغفرة والرجوع إلى الصحة وهذا ما كان من سليمان.

وفي تفسير البغوي لهذه الآية أن الابتلاء كان بسلب ملكه ثم إعادته إليه.

نعم الله على سليمان:

وفي سرد للنعم التي أنعم الله بها على سليمان بعد أن دعا ربه، ليغفر له نجدها كما يلي:

---

(١) تاريخ مختصر الدول ص٢٨٦.

(٢) سورة ص، الآيتان: ٣٤ ـ ٣٥.

أولاً: أعطاه سلطاناً على الريح وقدرة عليها، فجعلها تجري بأمره إلى المكان الذي يريده.

ثانياً: سخر الشياطين لخدمته فمنهم البنّاء للقصور والحصون، ومنهم الغوّاص في البحر لاستخراج اللآلىء والأحجار الكريمة، كما جعل الله لسليمان سلطاناً على الشياطين الكفرة فكان يقيدهم لكفِّ شرهم.

ثالثاً: أعطاه ملكاً لا ينبغي لأحد من بعده، وأباح له أن يتصرف فيه على الوجه الذي يريده فيعطي منه من يشاء، ويمسك عن العطاء لمن يريد. وله بجانب ذلك منزلة كريمة عند ربه وحسن مرجع في الآخرة.

رابعاً: ويذكر القرآن الكريم أن الله سخر لسليمان عيناً من الأرض يخرج منها النحاس المصهور.

كما سخر له من الجن من يعمل بين يديه بأمر ربه، ومن كان يعدل منهم عن تنفيذ أمره يذيقه في الآخرة عذاب النار. وقد كان هؤلاء الجن يعملون لسليمان ما يشاء من معابد وقصور وتماثيل وصور لسباع وطيور وقصاع للأكل كالحياض العظيمة، وقدور لطهو الطعام ثابتات لا تتحرك لعظمها. قال تعالى:

﴿وَلِسُلَيْمَٰنَ ٱلرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ ۖ وَأَسَلْنَا لَهُۥ عَيْنَ ٱلْقِطْرِ ۖ [1] وَمِنَ ٱلْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ ۖ وَمَن يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ﴿١٢﴾ يَعْمَلُونَ لَهُۥ مَا يَشَآءُ مِن مَّحَٰرِيبَ [2] وَتَمَٰثِيلَ وَجِفَانٍ [3] كَٱلْجَوَابِ [4] وَقُدُورٍ رَّاسِيَٰتٍ ۚ ٱعْمَلُوٓا۟ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكْرًا ۚ وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِىَ ٱلشَّكُورُ ﴿١٣﴾﴾[5].

(١) عين القطر: أي النحاس.

(٢) المحاريب: جمع محراب وهو القصر أو مكان العبادة.

(٣) الجفان: جمع جفنة وهي الوعاء الذي يوضع فيه الطعام.

(٤) الجواب: الحياض العظيمة.

(٥) سورة سبأ، الآيتان: ١٢ ـ ١٣.

خامساً: ومن نعم الله على سليمان تلك الخيل الأصيلة التي كان يملكها، والتي كان يستعرضها أمامه من حين لآخر. وفي يوم أمر سليمان بإحضار الخيل بين يديه ثم قال مفتخراً لمن حوله: إني أحببت هذه الخيل لأجل أن أذكر بها ربي وأعلّي شأن دينه؛ فأنا لا أحبها لأجل الدنيا والغنى فيها. ثم بدأ باستعراض الخيل فمرت أمامه حتى غابت عن الأنظار. ولكن سليمان لم يشفِ نهمه من حب الخيل فأمر بإحضارها أمامه ثانية، وأخذ يلاطفها بالمسح بيديه على سيقانها وأعناقها. والغرض من ذلك:

١ ـ التشريف لها لكونها من أعظم الوسائل في دفع العدو في ذلك الزمن.

٢ ـ أنه أراد أن يظهر اهتمامه في ضبط سياسة الملك بحيث يباشر أكثر الأمور بنفسه.

٣ ـ أنه كان أعلم بأحوال الخيل وعيوبها وأمراضها فكان يمتحنها ليعلم هل يوجد فيها ما يدل على أمارات مرضها. قال تعالى: ﴿وَوَهَبْنَا لِدَاوُدَ سُلَيْمَانَ نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ ﴿٣٠﴾ إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِالْعَشِيِّ الصَّافِنَاتُ الْجِيَادُ ﴿٣١﴾[1] فَقَالَ إِنِّي أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ عَن ذِكْرِ رَبِّي [2] حَتَّىٰ تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ رُدُّوهَا عَلَيَّ فَطَفِقَ مَسْحًا بِالسُّوقِ وَالْأَعْنَاقِ ﴿٣٣﴾﴾[3].

وفي تفسير البغوي لقوله تعالى: ﴿يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ مِن مَّحَارِيبَ ...﴾[4] قوله: أي مساجد وأبنية مرتفعة. وكان مما عملوا في بيت المقدس، ابتدأه داود ورفعه قدر قامة رجل، فأوحى الله إليه: إني لم أقضِ ذلك على يدك بل على يد ابنٍ لك بعدك أملّكه اسمه سليمان أقضي تمامه على يده. فلما توفاه الله واستخلف سليمان أحب إتمام بناء بيت المقدس،

---

(١) الخيل السريعة.

(٢) أحببتها حباً ناشئاً عن حب ربي.

(٣) انظر ص٣١ ـ ٣٣ وانظر قصص الأنبياء في القرآن الكريم ص٢٨٥ و٢٨٦ و٢٨٧.

(٤) سورة سبأ، الآية: ١٣.

فجمع الجن والشياطين وقسم عليهم الأعمال، فخص كل طائفة منهم بعمل يستصلحه لهم، فأرسل الجن والشياطين في تحصيل الرخام. وأمر ببناء المدينة بالرخام والصفاح وجعلها اثني عشر ربضاً[1] وأنزل كل ربض منها سبطاً من الأسباط وكانوا اثني عشر سبطاً. فلما فرغ من بناء المدينة ابتدأ في بناء المسجد، فوجد الجن والشياطين فرقاً فرقاً، يستخرجون الذهب والفضة والياقوت من معادنها والدر الصافي من البحر، وفرقاً يقلعون الجواهر والحجارة من أماكنها، وفرقاً يأتونه بالمسك والعنبر وسائر الطيب من أماكنها، فأتي من ذلك بشيء لا يحصيه إلا الله عز وجل، ثم أحضر الصناعين وأمرهم بنحت تلك الحجارة المرتفعة وتصييرها ألواحاً وإصلاح تلك الجواهر وثقب تلك اليواقيت واللآلىء. فبنى المسجد بالرخام الأبيض والأصفر والأخضر وعمده بأساطين الميها الصافي، وسقفه بألواح الجواهر الثمينة وفصص سقوفه وحيطانه باللآلىء واليواقيت وسائر الجواهر، وبسط أرضه بألواح الفيروزج. فلم يكن يومئذ في الأرض بيت أبهى ولا أنور من ذلك المسجد. وكان يضيء في الظلمة كالقمر ليلة البدر. فلما فرغ منه جمع إليه أحبار بني إسرائيل، فأعلمهم أنه بناه لله عز وجل وأن كل شيء فيه خالص لله، واتخذ ذلك اليوم الذي فرغ منه عيداً.

روى عبدالله بن عمرو بن العاص عن رسول الله ﷺ أنه قال: **«لما فرغ سليمان من بناء بيت المقدس سأل ربه ثلاثاً فأعطاه اثنين وأنا أرجو أن يكون أعطاه الثالثة، سأل حكماً يصادف حكمه فأعطاه إياه، وسأله ملكاً لا ينبغي لأحد من بعده فأعطاه إياه، وسأله أن لا يأتي هذا البيت أحد يصلي فيه ركعتين إلا خرج من ذنوبه كيوم ولدته أمه، وأنا أرجو أن يكون أعطاه ذلك»** قالوا: فلم يزل بيت المقدس على ما بناه سليمان حتى غزاه (بختنصر) فخرب المدينة، وهدمها ونقض المسجد وأخذ ما كان في سقوفه وحيطانه، من الذهب والفضة والدر والياقوت وسائر الجواهر، فحمله إلى دار مملكته من أرض العراق.

---

(١) الربض: الفضاء حول المدينة، وجمعها أرباض. لسان/ربض.

وفي تفسير البغوي أيضاً لقوله: ﴿ٱعۡمَلُوٓاْ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكۡرٗاۚ﴾[1] أي وقلنا: اعملوا آل داود شكراً، أي اعملوا بطاعة الله شكراً له على نعمه. وقوله في تفسير قوله تعالى: ﴿وَقَلِيلٞ مِّنۡ عِبَادِيَ ٱلشَّكُورُ﴾ أي العامل بطاعتي شكراً لنعمتي.

وقال جعفر بن سليمان: سمعت ثابتاً يقول: كان داود عليه السلام قد جزّأ ساعات الليل والنهار على أهله، فلم تكن تأتي ساعة من ساعات الليل والنهار إلا وإنسان من آل داود قائم يصلي.

❁ ❁ ❁

(١) سورة سبأ، الآية: ١٣.

قصة النملة

قال تعالى: ﴿وَحُشِرَ لِسُلَيْمَٰنَ جُنُودُهُۥ مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ وَٱلطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿١٧﴾ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَوْا۟ عَلَىٰ وَادِ ٱلنَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمْلُ ٱدْخُلُوا۟ مَسَٰكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَٰنُ وَجُنُودُهُۥ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٨﴾ فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَىَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَدْخِلْنِى بِرَحْمَتِكَ فِى عِبَادِكَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٩﴾﴾[1].

في تفسير البغوي لهذه الآيات قوله:

وجمع لسليمان جنوده من الجن والإنس والطير في مسيره ليذهب بهم لمحاربة من لم يدخل في طاعته عليه السلام وليذهب بهم إلى مكة شكراً على ما وفق به من بناء بيت المقدس. قال قتادة: كان على كل صف من جنوده وزعة ترد أولها إلى آخرها لئلا يتقدموا في المسير. والوازع الجالس وهو النقيب. وقال مقاتل: يوزعون: يُساقون. وقال السُّدِّي: يوقفون. وقيل: يجمعون. وأصل الوزع الكف والمنع. قال محمد بن كعب القرظي: كان معسكر سليمان مئة فرسخ خمسة وعشرون منها للإنس وخمسة وعشرون للجن وخمسة وعشرون للوحش وخمسة وعشرون للطير وكان له ألف بيت من قوارير على الخشب فيها ثلاثمئة منكوحة وسبعمئة سرية. يأمر الريح العاصف فترفعه ويأمر الرخاء فتسير به. فأوحى الله إليه وهو يسير بين

(١) سورة النمل، الآيات: ١٧ ـ ١٩.

السماء والأرض إني قد زدت في ملكك، أنه لا يتكلم أحد من الخلائق بشيء إلا جاءت به الريح فأخبرتك.

وروي عن وهب بن منبه عن كعب قال: كان سليمان إذا ركب حمل أهله وخدمه وحشمه وقد اتخذ مطابخ ومخابز يحمل فيها تنانير الحديد، وقدوراً عظاماً يسع كل قدر عشر جزائر. وقد اتخذ ميادين للدواب أمامه؛ فيطبخ الطباخون ويخبز الخبازون، وتجري الدواب بين يديه بين السماء والأرض، والريح تهوي بهم فسار من اصطخر إلى اليمن. فسلك مدينة رسول الله ﷺ فقال سليمان: هذه دار هجرة نبي في آخر الزمان طوبى لمن آمن به وطوبى لمن اتبعه. ورأى حول البيت أصناماً تُعبد من دون الله. فلما جاوز سليمان البيت بكى البيت فأوحى الله إلى البيت ما يبكيك؟ فقال: رب أبكاني أن هذا نبي من أنبيائك وقوم من أوليائك، مروا علي فلم يهبطوا ولم يصلوا عندي والأصنام حولي تعبد من دونك، فأوحى الله إليه (أن لا تبكِ فإني سوف أملؤك وجوهاً سجداً وأنزل فيك قرآناً جديداً. وأبعث منك نبياً في آخر الزمان أحب أنبيائي إلي، وأجعل فيك عماراً من خلقي يعبدونني. وأفرض على عبادي فريضة يُزفون إليك زفيف النسور إلى وكرها، ويحنون إليك حنين الناقة إلى ولدها، والحمامة إلى بيضتها. وأطهرك من الأوثان وعبَدة الشياطين).

ثم مضى سليمان حتى مر بوادي السدير، وهو وادٍ من الطائف فأتى على وادي النمل. قال كعب: إنه مكان بالطائف وقال قتادة ومقاتل: هو أرض بالشام. قال نوف الحميري: كان نمل ذلك الوادي أمثال الذباب وقيل كالبخاتي[1]. والمشهور أنه النمل الصغير. وقال الشعبي: كانت تلك النملة ذات جناحين وقيل كانت نملة عرجاء فنادت: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمۡلُ ٱدۡخُلُواْ مَسَٰكِنَكُمۡ لَا يَحۡطِمَنَّكُمۡ سُلَيۡمَٰنُ وَجُنُودُهُۥ وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ﴾ فسمع سليمان قولها. وكان لا يتكلم خلق إلا حملت الريح ذلك فألقته في مسامع سليمان.

---

(١) البخاتي: الأنثى من الجمالِ البُختِ وهي جمال طوال الأعناق. لسان/بخت.

قال مقاتل: سمع سليمان كلامها من ثلاثة أميال. قال الضحاك: وكان اسم تلك النملة (طاحية) فإذا قيل: كيف يتصوّر الحطم من سليمان وجنوده؟ بينما كانت الريح تحمل سليمان وجنوده على بساط بين السماء والأرض؟ قيل: كان جنوده ركباناً وكان فيهم مشاة على الأرض تطوى لهم. وقال عز وجل: ﴿فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا﴾ قال مقاتل: كان ضحك سليمان من قول النملة تعجباً لأن الإنسان إذا ما رأى ما لا عهد له به تعجب وضحك ثم حمد سليمان ربه على ما أنعم عليه وقال: ﴿رَبِّ أَوْزِعْنِيٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِيٓ أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَيَّ﴾[1].

والمراد بوالديه داود عليه السلام وأمه، وكانت من العابدات الصالحات كما قال سيد بن داود عن يوسف بن محمد بن المنكدر عن أبيه عن جابر عن النبي ﷺ قال: قالت أم سليمان بن داود: يا بني لا تكثر النوم بالليل، فإن كثرة النوم بالليل تدع العبد فقيراً يوم القيامة[2].

وعن الزهري أن سليمان بن داود خرج هو وأصحابه يستسقون فرأى نملة قائمة رافعة إحدى قوائمها تستسقي فقال لأصحابه: ارجعوا فقد سقيتم؛ إن هذه النملة استسقت فاستجيب لها.

وعن أبي هريرة أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: **«خرج نبي من الأنبياء بالناس يستسقون الله فإذا هم بنملة رافعة بعض قوائمها إلى السماء فقال النبي: ارجعوا فقد استجيب لكم من أجل هذه النملة»**.

وقال السُّدي: أصاب الناس قحط على عهد سليمان عليه السلام فأمر الناس، فخرجوا فإذا بنملة قائمة على رجلها باسطة يديها وهي تقول: (اللهم أنا خلق من خلقك ولا غناء بنا عن فضلك). قال: فصبّ الله عليهم المطر[3].

---

(١) تفسير البغوي.

(٢) مختصر أنساب الأنبياء والرسل ص٤٤.

(٣) المصدر السابق.

ونطق النملة معجزة من معجزات سليمان عليه السلام كما نطق الضب والذراع لرسول الله محمد ﷺ. قال مقاتل: وقد سمع عليه السلام قولها من ثلاثة أميال، والسمع من سليمان غير بعيد لأن الريح ـ كما جاء في الآثار ـ توصل الصوت إليه. وقيل إنه عليه السلام لم يسمع صوتاً أصلاً وإنما فهم ما في نفس النملة إلهاماً من الله تعالى. ﴿فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا﴾ ولعله عليه السلام تبسّم سروراً بما ألهمت من حسن حاله وحال جنوده، وابتهاجاً بما خصه الله تعالى من إدراك مرادها، وربما كان ذلك تعجباً من حذرها وتحذيرها واهتدائها إلى تدبير مصالحها ومصالح بني نوعها من النمل[1] ولم يكن ذلك استهزاءً ولا غضباً إذ قال فيما بعد: ﴿وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِيٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِيٓ أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَيَّ﴾ أي: كُفَّني عن الأشياء التي تباعدني عنك وتؤدي بي إلى كفران النعمة. وأدرج والديه تكثيراً للنعمة لأن الإنعام عليهما إنعام عليه.

❁ ❁ ❁

(١) روح المعاني ج١١/٢٦٢.

وفاة سليمان

ولا بد لاستكمال البحث عن عظمة سليمان من ناحية، وبعد نظر بلقيس من ناحية أخرى، ولاستقصاء جميع جوانب سليمان وعظمته، من أن نذكر قصة وفاته ففيها درس وعبرة وبيان لما لهذا الإنسان من منزلة عند ربه وبيان أنه ليس شخصية عادية تجابهها بلقيس ملكة سبأ. إنها أمام نبي أولاً وأمام إنسان قد ملك الدنيا بإنسها وجنها وطيرها وشجرها ثانياً، وما لا يتخيله العقل من كنوزها ثالثاً.

كما نبين عظمة بلقيس في تعاملها مع هذا النبي العملاق الذي دانت له مشارق البلاد ومغاربها وكيف اقتنعت بمبادئه وأسلمت على يديه.

فلقد كان في موته معجزة وأي معجزة:

جاء في القرآن الكريم: ﴿فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَىٰ مَوْتِهِۦٓ إِلَّا دَآبَّةُ ٱلْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُۥ[1] فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ ٱلْجِنُّ أَن لَّوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ٱلْغَيْبَ مَا لَبِثُوا۟ فِى ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ ﴿١٤﴾﴾[2].

قال أهل العلم: كان سليمان عليه السلام يتجرد في بيت المقدس، السنة والسنتين والشهر والشهرين، وأقل من ذلك وأكثر. يدخل فيه طعامه وشرابه. فأدخل في المرة التي مات فيها. وكان بدء ذلك أنه كان لا يصبح

(١) المنسأة: عصاه.

(٢) سورة سبأ، الآية: ١٤.

يوماً إلا نبتت في محراب بيت المقدس شجرة فيسألها ما اسمك؟ فتقول: اسمي كذا، فيقول: لأي شيء أنت؟ فتقول: لكذا وكذا فيأمر بها فتقطع. فإن كانت نبتت لغرس، غرسها، وإن كانت لدواء كتب. حتى نبتت الخروبة فقال لها: ما أنت؟ قالت: الخروبة. قال: لأي شيء نبتِّ؟ قالت: لخراب مسجدك. فقال سليمان: ما كان الله ليخربه وأنا حي. أنت التي على وجهك هلاكي وخراب بيت المقدس. فنزعها وغرسها في حائط[1] له ثم قال: اللهم عَمِّ على الجن موتي حتى يعلم الإنس أن الجن لا يعلمون الغيب. وكانت الجن تخبر الإنس أنهم يعلمون من الغيب أشياء، ويعلمون ما في غد. ثم دخل المحراب وقام يصلي متكئاً على عصاه فمات قائماً. وكان للمحراب كوى بين يديه وخلفه. وكانت الجن يعملون تلك الأعمال الشاقة التي كانوا يعملون في حياته، وينظرون إليه يحسبون أنه حي، ولا ينكرون احتباسه عن الخروج إلى الناس لطول صلاته قبل ذلك، فمكثوا يدأبون له بعد موته حولاً كاملاً، حتى أكلت الأرضة عصا سليمان عليه السلام، فخرَّ ميتاً فعلموا بموته.

قال ابن عباس فشكرت الجن الأرضة فهم يأتونها بالماء والطين في جوف الخشب فذلك قوله تعالى: ﴿مَا دَلَّهُمْ عَلَىٰ مَوْتِهِۦٓ إِلَّا دَآبَّةُ ٱلْأَرْضِ﴾ وهي الأرضة التي تأكل منسأته يعني عصاه. فلما خرَّ: أي سقط على الأرض تبينت الجن أي علمت وأيقنت أن ﴿لَّوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ٱلْغَيْبَ مَا لَبِثُوا۟ فِى ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ﴾ أي في التعب والشقاء مُسخَّرين لسليمان وهو ميت يظنونه حياً. أراد الله بذلك أن يُعلم الجن أنهم لا يعلمون الغيب، لأنهم كانوا يظنون أنهم يعلمون الغيب لغلبة الجهل عليهم.

وذكر أهل التاريخ أن عمر سليمان كان ثلاثاً وخمسين سنة، ومدة ملكه أربعون سنة وملك يوم ملك وهو ابن ثلاث عشرة سنة. وابتدأ بناء بيت المقدس لأربع سنين مضين من ملكه.

---

(١) أي بستان له.

ولعل ما يؤكد عظمة ما وصل إليه سليمان عليه السلام قول بعض الشعراء عنه بعد موته، فقد جعلوه عبرة لكل من ملك في الأرض إنسها وجنها وطيورها وشجرها. ولا أحد كسليمان نال في الحياة الدنيا في السابقين واللاحقين فكان موته عبرة لكل معتبر.

قال الأعصم بن سام الحميري يرثي سليمان عليه السلام(1):

إن يكن الدهرُ أتى عامداً ... فنالَ بالقسوةِ خيرَ المنالْ
معتمداً قهراً إلى ذي النُّهى ... وخيرِ خلقِ الله عند الفعالْ
إلى سليمان بنِ داودَ إذ ... علا على الناسِ بفضلِ الكمالْ
فَهَدَّ بالملك ذُرا ملكِنا ... جلا بنورِ الوحي دينَ الضلالْ
هدى سريعاً بالهدى أمةً ... عارفةً في الحقِ حُسْنَ المقالْ
يا خيرَ مفجوعٍ فُجعنا به ... مصطفياً بلقيسَ دهرَ الزوالْ
لئن بعثْنا من بني حمير ... فوارسَ الهيجاءِ يومَ النزالْ
راحوا إلينا بالذي قاله ... قلنا الذي يسأل خيرَ السؤالْ
دنا الذي دانَ على أننا ... لم نعطِهِ الذلةَ عندَ المحالْ
فلم يرذ حرباً ولكنّه ... مال إلى الرحمةِ قبل القتالْ

وقال القلمس بن عمرو بن قطن بن همدان:

ألم يوجلك ذا الخبرُ اليقينُ ... بذاك وإن نأى وقتٌ وحينُ
ألم ترَ كلّنا ولّى وأودى ... قرينٌ لا يعودُ ولا يكونُ
وما دنياكَ إلا حلمُ يوم ... تنبّهْ كي تدانَ بما تدينُ
فإنَّ الزادَ محفوظٌ إذا ما ... تجمّل عن مغانيه القطينُ
ألم تسمعْ بذي القرنين لما ... تمكّنَ عنده الملكُ المكينُ
وكان الصعبُ في الدنيا ابن صعب ... وجدُّ الدهرِ فيه له قرينُ

---

(1) التيجان ص١٨٢ و١٨٣.

تقضّى طولُ مدتِهِ فأخنى ... عليه بصرفِهِ دهرٌ خؤونُ
تعدّتْ فيه أسبابُ الليالي ... وأُخرج من أمانته الأمينُ
فجاد بروحِهِ لما دعته ... دواعي الحيْن وهو بها ضَنينُ
لقد جارى الخلودَ إلى مداهُ ... وبانَ فأنجمُ الأفلاكِ جونُ[1]
ألم تر صاحب الملكين أمسى ... تخرّمُه عن الدنيا المنونُ
وكان عليه للأيام دينٌ ... وقد قُضيتْ عن المرءِ الديونُ
رفاهةُ ملكه يومٌ سواءٌ ... عليه الغثُّ فيه والسمينُ
على الكرسي معتمداً عليه ... يرف الخدُّ منه والجبينُ
فخانته العصا من بعدما قد ... ألم به حين وحينُ[2]
فخانته فخرّ لها وخرّت ... وصرح عندها الخبر اليقينُ
يسير بشرجع لا وصل فيه ... تحار الشمس فيه والعيونُ[3]
وتضحي الجن عاكفة عليه ... كما عكفت على الأسد العرينُ
فسخرت الجبال له جميعاً ... عليها الطير عاكفة عزينُ[4]
فدان له الخلائق ثم قسراً ... ودان الجن فيما قد تدينُ[5]
بنوا صرحاً له دون الثريا ... وأجريَ تحته الماء المعينُ
تراه أملساً لا عيب فيه ... يحار بصرحه الذهن الذهينُ[6]
وقد ملك الملوك وكل شيء ... تدين له السهولة والحزونُ[7]
فأفنى ملكه كر الليالي ... وخون الدهر فيما قد يخونُ

---

(١) بان: أي بعد.
جُون: سوداء، والجَوْن: الأسود المشرب حمرة والجمع جُون. لسان/جون.
(٢) هكذا جاء البيت وهو مكسور كما هو ظاهر.
(٣) الشرجع: السرير يحمل عليه الميت. وهو النعش. لسان/شرجع.
(٤) عزين: عزين هي الجماعة المتفرقة جمع عزة. صفوة التفاسير: تفسير سورة المعارج.
(٥) دان: دانت الخلائق أي أطاعت. ودِنت الرجل إذا خدمته وأحسنت إليه. لسان/دين.
(٦) الذهن الذهين: الذهن: الفهم والعقل. والذهين: القوي. لسان/ذهن.
(٧) الحزون: مفردها حزن وهو ما غلظ من الأرض.

وكـــل أخـــي مـــكـــاثـــرة وعـــز	عـلـى ريـب الـحـوادث مـسـتـكـيـنُ
كـذاك الـدهـر يـفـنـي كـل شـيء	فـيـضـعُـفُ بـعـد قـوّتِـهِ الـمـتـيـنُ[1]

وبعد[2].

فإن الحديث عن سليمان عليه السلام استغرق منا صفحات كثيرة، ولكن ذلك مما يغني البحث أولاً، ولأن ذكر نبي الله سليمان يبرهن على عظمة تلك المرأة المعجزة ثانياً ويأتي بالدليل على أنها كانت رمزاً للعقل والحكمة واتساع البصيرة مما أثار مخيلة الشعوب قديمها وحديثها. كما أننا كلما تعمقنا في الكلام عن سليمان عليه السلام، نكون قد رفعنا من منزلة بلقيس، لأنه شاهد على عظمة تلك المرأة.

ولكن لا بد لنا من العودة إليها فهي محور حديثنا وموضع اهتمامنا ولنبدأ بما حدث بينها وبين القلمس بن عمرو الملقب بأفعى نجران. وهو الذي كان الممهد الأول لإيمانها بالله والشك بجدوى عبادة الشمس.

❁ ❁ ❁

---

(١) التيجان ١٧٨ و١٧٩.

(٢) لا يعتمد على الشعر كثيراً فهو من بين المصادر الخمسة يعد من أضعف المصادر لأنه يبالغ فيه وينسخ.

بلقيس وأفعى نجران

كان القلمس بن عمرو (أفعى نجران) من بني عبدشمس بن وائل بن حمير بن سبأ، وهو عامل بلقيس على نجران حتى البحرين، وما والاهما من بلد. وكان القلمس أفعى نجران أحكم العرب في وقته، وكان حكيماً فلما رأى طوالع عسكر سليمان طلعت، تواضع وذل. وقيل له: تواضعْ وذلّ تحت عزٍ وسلطنةٍ لأن هذا شأن سماوي.

وإن القلمس أفعى نجران جمع أهل نجران ـ وهي دار العلم ـ وقال: يا أهل نجران أنتم أهل العلم الأول هل عندكم من هذا العلم؟[1] قالوا له: ما لم يكن عندك يا سيدنا وأنت جهبذ العالم لا يكون عندنا. قال لهم: إني ألبس مسحاً وعباءة وأسير إليهم بثلاث: بكهانة وطب وحكمة؛ فإن كان فيهم نبي لم يحتاجوا إلى طبي وحكمتي لأن فيهم طباً أبلغ من طبي، ولا يسمعون من حكمتي لأن فيهم من حكمة الوحي أحيا من حكمتي، ولا يلتفتون إلى كهانتي لأن فيهم من علم الوحي أصدق من كهانتي. فلبس القلمس المسح ـ وكان أول من لبس المسح يعقوب النبي ـ فسار الملك القلمس بن عمرو الحميري حتى دخل عساكر سليمان فتعرضهم بالكهانة، فلم يسألوه. وعرض الحكمة فلم يلتفتوا إليه، وعرض الطب فلم يسمعوا منه، فتركهم ومضى إلى سليمان، فرأى الريح تقله والطير تظله فرأى ملكاً عجيباً فدنا من سليمان. فقال سليمان لآصف: يا آصف ـ وكان آصف كاتب سليمان ـ سبحان قاصف الجبابرة، ذاك عميد نجران المبتكر، ادعه. فقال له

---

(١) يقصد ما جاء به سليمان من الدين.

آصف ـ أي للقلمس: هلم، الرجل. فلما وقف بين يدي سليمان سبح سليمان فسبحت الجبال. فقال أفعى نجران: بطلت حكمتي. ثم نظر إلى البقل بين يدي سليمان فوجد كل بقلة تقول له: يا نبي الله اسمي كذا وذا لكذا (أي هذا البقل لمرض كذا) فقال أفعى نجران: بطل طبي. ثم قال لسليمان (أي آصف): إن هذا عميد نجران له من الأمر أمران: بين ضلال وبيان.

فآمن أفعى نجران وآمن بما أتى به سليمان.

ورجع أفعى نجران إلى قومه فقالوا: ما رأيت؟ قال: يا قوم (الرائد لا يكذب أهله) فأرسلها مثلاً. ولم يُظهر لهم أنه أجاب سليمان إلى ما دعا إليه[١].

لم يكن إيمان القلمس بالأمر السهل؛ فهو عامل الملكة بلقيس على نجران والبحرين وما والاهما من بلد، فكيف ينفرد بعملٍ دون أن يبلغ الملكة بلقيس بما فعل؟ ولا سيما أنه خضع لسليمان وآمن بدينه. فكان لا بد أن يخبرها بما جرى معه.

بعث أفعى نجران إلى بلقيس يخبرها بخبر سليمان، وكتم عنها إيمانه. فقال لها: إني رأيت قوماً لبسوا الذل تحت العز، والفاقة تحت الغنى، والصبر تحت القدرة؛ يُنصرون بلا حرب، ويقدرون بلا استطالة. فكتبت إليه بلقيس: تفعل الملوك ذلك؛ يستميلون أهواء العالم حتى يقدروا، فإن قدروا عزوا فبزوا[٢]، ولكن لا تحاربهم ودعهم فليس كل الناس صائناً لنفسه، فإن سرقوا فليسوا بأهل دين. فخلى أفعى نجران بينهم وبين الزرع فلم يأكلوا منه سنبلة. فأرسل إلى بلقيس فأعلمها. فكتبت إليه أن ادفع إليهم الخف والظلف[٣] ففعل، فلم يأخذوا منه شيئاً فرجعت إليه كما سارت، فأعلم بذلك بلقيس فأرسلت إليه: ادفع إليهم الخيل ذكوراً وإناثاً ففعل فلم يأخذوا شيئاً ورجعوا على حالهم. فبعثت إليه أن ابعث إليهم بجارية حسناء،

(١) بلقيس امرأة الألغاز ص٦٩.

(٢) عزوا فبزوا: أي: منْ غلب سلب. لسان/بزَّ.

(٣) الخف: للإبل، والظلف: للأنعام.

وأعطها شيئاً تطوف به على عساكرهم حتى تغمر بها[1]. فأرسل أفعى نجران ابنته، ولم يكن في وقتها أجمل منها، فطافت في جميع عساكر سليمان فكانوا يساومونها (أي على السعر) ولا يرفع إليها رأسه أحد. حتى انتهت إلى سليمان فنظر إلى ما في يدها ولم ينظر إليها. فرجعت وأعلمت بذلك أباها. فكتب بذلك إلى بلقيس فكتبت إليه: كف، وملْ إلى سلمه ولا تعرض أجنادنا لأمر الله فإن الله لا يغالب[2].

إنها كلمات من نور تدل على حكمة وسعة عقل، وبعد نظر وتبصر في الأمور، مع ميل للإيمان بالله خالق الشمس التي تعبدها مع قومها.

قالت له: كفّ: أي امتنع عن معاداة سليمان ولا تقربه في شيء، ثم اجنح إلى سلمه بمداراته فإنه لا قبل لنا بحربه، ولا سيما أن ما يفعله كله من أمر الله. فإياك أن تدخل عسكرنا في معركة لا ربح لنا فيها ولا نتيجة منها ترتجى. لأن عسكر سليمان يحاربون في سبيل الله وجيش الله لا يغالب.

ويتبين من هذه القصة ـ سواء كانت حقيقية أو مبالغاً فيها ـ أن بلقيس عرفت شيئاً عن سليمان قبل أن يرسل رسالته إليها. عرفت شيئاً عن جنده وعن دعوته، وقوته..

ويتابع كتاب (بلقيس امرأة الألغاز) رواية قصة بلقيس فيقول: وقيل إن بلقيس قالت لوزرائها بعدما صارت ملكة: ما كان يعبد آبائي الماضون؟ قالوا: كانوا يعبدون إله السماء. قالت: وأين هو؟ قالوا: هو في السماء وعلمه في الأرض. قالت: فكيف أعبده وأنا لا أراه، ولست أعرف شيئاً غير نور الشمس فهي أولى ما ينبغي لنا عبادته، فعبدت الشمس من دون الله تعالى، وحملت قومها على عبادتها، وكانوا يسجدون لها إذا طلعت وإذا غربت.

❋ ❋ ❋

---

(١) ربما كان ذلك الشيء بضاعة للبيع.

(٢) بلقيس امرأة الألغاز ص٦٩.

قصة سليمان والهدهد مع بلقيس

ثم رُفع سليمان حتى كان من مأرب مدينة سبأ على مسيرة ثلاثة أيام، عندها أراد النزول ـ وكان لا ينزل إلا على الماء ـ وكان الهدهد هو الذي يدله على الماء. والهدهد طائر معروف، وكان سبب تفقده للهدهد وسؤاله عنه إخلاله بالنوبة. وذلك أن سليمان كان إذا نزل منزلاً يظله مع جنده جناح الطير من الشمس، فأصابته الشمس من موضع الهدهد فنظر فرآه خالياً. وروي عن ابن عباس[1] أن الهدهد كان دليل سليمان على الماء، وكان يعرف موضع الماء ويرى الماء تحت الأرض كما يُرى في الزجاجة، ويعرف قربه وبعده فينقر الأرض، ثم تجيء الشياطين فيسلخونه كما تسلخ الشاة في ساعة واحدة ويستخرجون الماء.

قال سعيد بن جبير: لما ذكر ابن عباس هذا قال له نافع بن الأزرق: يا وصّاف انظر ما تقول؛ إن الصبي منا يضع الفخ ويحنو[2] عليه التراب فيجيء الهدهد ولا يبصر الفخ حتى يقع في عنقه. فقال له ابن عباس: ويحك إن القدر إذا جاء حال دون البصر. وفي رواية: إذا نزل القضاء والقدر ذهب اللب وعمي البصر.

---

(١) تفسير البغوي لسورة النمل، والهدهد طائر معروف منتن يأكل الدم فيما قيل ويكنى بأبي الأخبار.

(٢) أي يهيل عليه التراب.

فنزل سليمان منزلاً فاحتاج إلى الماء، فطلبوا فلم يجدوا، فتفقد الهدهد ليدل على الماء فقال: ما لي لا أرى الهدهد؟ لأنه يعلم أنه مع الجنود. ثم أدركه الشك في غيبته فقال: ﴿أَمْ كَانَ مِنَ ٱلْغَآئِبِينَ لَأُعَذِّبَنَّهُۥ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَاْذْبَحَنَّهُۥٓ أَوْ لَيَأْتِيَنِّى بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٢١﴾﴾ واختلفوا في العذاب الذي أوعده سليمان عليه السلام للهدهد، فأكثر الأقاويل أن ينتف ريشه وذنبه ويلقيه في الشمس ممعطاً[1] لا يمتنع من النمل ولا من هوام الأرض. وقال مقاتل وابن حيان: لأطلينّه بالقطران ولأشمّسنّه. وقيل لأودعنّه القفص وقيل: لأفرّقن بينه وبين إلفه. وقيل: لأحبسَنّه مع ضده ﴿أَوْ لَأَاْذْبَحَنَّهُۥٓ﴾ أي لأقطعنّ حلقه. وفي ذلك تدرج سليمان عليه السلام من الشديد إلى الأشد.

أما ما كان من الهدهد فإنه حين رأى سليمان قد شغل بالنزول وقت الزوال، في أرض حسناء تزهو خضرتها، ارتفع في السماء ينظر إلى طول الدنيا وعرضها. فنظر يميناً وشمالاً فرأى بستاناً لبلقيس فمال إليه فإذا هو بهدهد من بني جنسه، فهبط عليه وكان اسم هدهد سليمان يعفور واسم هدهد اليمن يعفير. فقال يعفير اليمن ليعفور سليمان: من أين أقبلت؟ وأين تريد؟ قال يعفور: أقبلت من الشام مع صاحبي سليمان بن داود. فقال: ومَن سليمان؟ قال: ملك الجن والإنس والشياطين والطير والوحش والرياح. فمن أين أنت؟ قال: أنا من هذه البلاد. قال: ومن ملكها؟ قال: امرأة يقال لها بلقيس، وإن لصاحبكم ملكاً عظيماً ولكن ليس ملك بلقيس دونه، فإنها ملكة اليمن كلها لم يرَ الناس مثلها، في حسنها وفضلها ورأيها وحسن تدبيرها، وكثرة جنودها والخير الذي أعطيتْه في بلدها، وهي من ولد حمير وتحت يدها اثنا عشر ألف قائد، تحت كل يد قائد مئة ألف مقاتل، فهل أنت معي حتى تنظر إلى ملكها؟ قال: أخاف أن يتفقدني سليمان في وقت الصلاة إذا احتاج إلى الماء. قال الهدهد اليماني يعفير:

---

(١) ممعَّطاً: المعط: الجذب. ومَعِط جلده وشعره فهو أمعط أي لا شعر على جسده. ومعطه يمعطه معطاً أي نتفه. لسان/معط.

إن صاحبك يسرُّه أن تأتيه بخبر هذه الملكة. فانطلق الهدهدان فنظر هدهد سليمان إلى بلقيس وملكها. وما رجع إلا وسليمان في وقت العصر.

ويتابع البغوي تفسيره قائلاً: فلما نزل سليمان ودخل عليه وقت الصلاة وكان نزل على غير ماء، سأل الجن والإنس والشياطين عن الماء فلم يعلموا ولما تفقد الهدهد ولم يجده، دعا عريف الطير وهو النسر فسأله عن الهدهد فقال: (أصلح الله الملك ما أدري أين هو، وما أرسلته إلى مكان) فغضب سليمان ثم دعا العقاب سيد الطير فقال: عليّ بالهدهد الساعة. فرفع العقاب نفسه دون السماء حتى التزق بالهواء فنظر إلى الدنيا كالقصعة بين يدي أحدنا. ثم التفت يميناً وشمالاً فإذا هو بالهدهد مقبلاً من جهة اليمن. فانقض العقاب نحوه يريده، فعلم الهدهد أن العقاب يقصده بسوء فناشده قائلاً: بحق الله الذي قوّاك وأقدرك علي إلا رحمتني ولم تتعرض لي بسوء. فولى عنه العقاب وقال له: ويلك ثكلتك أمك إن نبي الله قد حلف أن يعذبك أو يذبحك. ثم طارا متوجّهين نحو سليمان. فلما انتهيا إلى المعسكر تلقاه النسر والطير فقالوا له: ويلك أين غبت في يومك؟ ولقد توعدك نبي الله وأخبراه بما قال، فقال الهدهد: أوَما استثنى رسول الله؟ قالوا: بلى. قال: ﴿أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ﴾ قال الهدهد: فنجوت إذن. ثم طار العقاب والهدهد حتى أتيا سليمان وكان قاعداً على كرسيه. فقال العقاب: قد أتيتك به يا نبي الله. فلما قرب الهدهد منه رفع رأسه وأرخى ذنبه وجناحيه، يجرهما على الأرض تواضعاً لسليمان. فلما دنا منه أخذ برأسه فمده إليه وقال: أين كنت؟ لأعذبنّك عذاباً شديداً. فقال الهدهد: يا نبي الله، اذكر وقوفك بين يدي الله تعالى. فارتعد سليمان وعفا عنه. ثم سأله: ما الذي أبطأ بك عني؟ ﴿فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ ﴿٢٢﴾ إِنِّي وَجَدتُّ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ ﴿٢٣﴾﴾ يقول البغوي في تفسير الآيات:

وأوتيت من كل شيء مما يحتاجه الملوك من الآلة والعدة، ولها سرير ضخم كان مضروباً من الذهب مكللاً بالدر والياقوت والزبرجد الأخضر وقوائمه من الياقوت والزمرد عليه سبعة أبيات على كل بيت باب مغلق.

واستعظام الهدهد لعرشها مع ما كان يشاهده من ملك سليمان عليه السلام يدل على أحد أمور: إما أنه لم يكن لسليمان عليه السلام مثله وإن كان عظيم الملك، وإما لأن الهدهد لم يرَ مثل عرشها عند أمثالها من الملوك. وفي ذلك توجيه لعزيمة سليمان عليه السلام أن يغزوها لكفرها وكفر قومها.

ثم قال الهدهد: ﴿وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ﴾.

قال سليمان للهدهد: ﴿سَنَنظُرُ أَصَدَقْتَ﴾ فيما أخبرت ﴿أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ فدلهم الهدهد على الماء فاحتفروا الركايا[1] وروى الناس دوابهم.

ثم كتب سليمان كتاباً إلى بلقيس يقول فيه: من عبدالله سليمان بن داود إلى بلقيس ملكة سبأ (بسم الله الرحمٰن الرحيم.. السلام على من اتبع الهدى. أما بعد فلا تعلوا عليّ وأتوني مسلمين) ولم يزد سليمان على ما قصّ الله في كتابه. قال قتادة: وكذلك كل الأنبياء كانت تكتب جملاً لا يطيلون ولا يكثرون. فكان كلامهم برقيات مختصرة مفيدة.

ثم قال للهدهد: ﴿ٱذْهَب بِّكِتَٰبِى هَٰذَا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَٱنظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ ﴿٢٨﴾﴾.

ودفع الكتاب إلى الهدهد فأخذه بمنقاره وانطلق حتى انتهى إليها فوافاها في قصرها وقد غلّقت الأبواب. وكانت إذا رقدت غلقت الأبواب وأخذت المفاتيح فوضعتها تحت رأسها، فأتاها الهدهد وهي نائمة مستلقية على قفاها. فألقى الكتاب على نحرها، هذا قول قتادة. بينما قال مقاتل: حمل الهدهد الكتاب بمنقاره، حتى وقف على رأس المرأة وحولها القادة والجنود. فرفرف ساعة والناس ينظرون إليه، حتى رفعت المرأة رأسها فألقى

---

(١) الركايا: جمع مفرده رَكِيّة. والركيّة: البئر تُحفر. وركوتُ: حفرتُ. وركا الأمر ركواً: أصلحه. لسان/ركو.

الكتاب في حجرها. وقال ابن منبه: كانت لها كوة مستقبلة للشمس تقع الشمس فيها حين تطلع، فإذا نظرت إليها سجدت لها. فجاء الهدهد إلى الكوة فسدها بجناحيه، فارتفعت الشمس ولم تعلم، فلما استبطأت الشمس قامت تنظر فرمي بالصحيفة إليها. فأخذت بلقيس الكتاب وكانت قارئة فلما رأت الخاتم ارتعدت وخضعت. لأن ملك سليمان كان في خاتمه. وعرفت أن الذي أرسل الكتاب إليها أعظم ملكاً منها. فقرأت الكتاب بينما وقف الهدهد غير بعيد. ودهش الناس لما رأوا وسمعوا من أن الهدهد جاءها بكتاب من السماء فقالوا: إن ذلك تعظيم لقدرها فكيف يأتيها طائر من السماء بكتاب قرأته. قلنا تأخر الهدهد غير بعيد ـ من باب الأدب مع الملوك ـ وقعدت هي على سرير ملكها.

فالأمر جد وما هو بالهزل؛ لقد استشارها قبل ذلك عاملها على نجران والبحرين وما بينهما، القلمس، المسمى أفعى نجران، وهو الرجل الحكيم صاحب الرأي السديد، فوجهته توجيهاً رشيداً. والآن جاء دورها هي. فتساءلت هل تتصرف كما نصحت عاملها أفعى نجران؟ إذ قالت له: (امتنع عن معاداته ولا تقربه في شيء لأنه لا قبل لنا بحربه، فعسكر سليمان ـ كما يبدو ـ يحاربون في سبيل الله، وجيش الله لا يغالب) أم أن لها تصرفاً آخر؟ إن المسؤولية كبيرة جداً، ومصير أمة بكاملها مرهون بتصرفات بلقيس. وكان لها الرأي الحكيم، إنه الشورى ولا أفضل من الشورى.

جمعت بلقيس الملأ من قومها، وهم اثنا عشر ألف قائد مع كل قائد مئة ألف مقاتل (وقد جمعت القواد فقط دون المقاتلين طبعاً) وقيل: أرسلت إلى مقاول حمير، وهي أول من استشار المقاول من حمير[1] وعرضت كتاب سليمان عليهم؛ الكتاب الذي يطالبهم بالإسلام. ويقال إنها كانت تكلمهم من وراء حجاب، فإذا أحزنها أمر أسفرت عن وجهها.

عرضت بلقيس كتاب سليمان على الملأ من قومها ذلك الكتاب الذي

---

(١) تفسير البغوي لسورة النمل.

يقول فيه: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ أَلَّا تَعْلُوا عَلَيَّ وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ ﴿٣١﴾﴾ ثم قالت لهم: ﴿يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ﴾ (وهم أشراف الناس وكبراؤهم) إِنِّي أُلْقِيَ إِلَيَّ كِتَابٌ كَرِيمٌ ﴾ أي شريف لشرف صاحبه[1]. قال عطاء والضحاك: سمّت الكتاب كريماً لأنه كان مختوماً. وعن ابن عباس عن النبي ﷺ قوله: «كرامة الكتاب ختمه»[2] وقيل سمته كريماً لأنه مصدر بـ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾.

ومن حكمة بلقيس أيضاً أنها لم تذكر من ألقى إليها الكتاب. وما ذلك إلا لتُعلم أصحابها أن لها اتصالاً بأمور لا يعلمون طريقها. وفي ذلك سياسة منها أورثت الحذر على أهل مملكتها وبهذا استحقت التقديم عليهم.

وأما قول سليمان عليه السلام: ﴿أَلَّا تَعْلُوا عَلَيَّ وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ ﴿٣١﴾﴾ فدليل على أن الدعوة للإيمان تكون قبل إقامة الحجة أو بيان المعجزة. وعادة الأنبياء عليهم السلام أنهم يدعون للإيمان أولاً فإذا عورضوا أقاموا الدليل وأظهروا المعجزة. وقيل إن الدعوة مقرونة بإقامة الحجة، لأن إلقاء الكتاب إليها على تلك الحالة وبمنقار الهدهد معجزة وأية معجزة؟!.

وفي بعض الآثار (على ما جاء في تفسير روح المعاني) أن نسخة الكتاب كانت كما يلي: (من عبدالله سليمان بن داود إلى بلقيس ملكة سبأ. السلام على من اتبع الهدى أما بعد فلا تعلوا علي وأتوني مسلمين) ثم قالت: يا أيها الملأ أفتوني في أمري وأشيروا علي فيما عرض لي. وأنا ما كنت قاطعة أمراً حتى تشهدون (أي تحضرون). ولم يتردد الحضور في إجابتهم، ولم يختلفوا في رأيهم فهم أصحاب عدد وعُدة وقوة جسمية لا نظير لها، ولا يمكن لأحد أن يتحداهم أو يغلبهم فقالوا لها: نحن أولو قوة وأولو بأس شديد عند الحرب. ونحن على استعداد لكل ما نؤمر به. ولكن الرأي الأخير لك والأمر عائد إليك فانظري ماذا تأمرين؛ فإننا لأمرك طائعون ولخطتك منفذون. وهذا يدل على مدى احترامهم لها والوثوق برأيها واستعدادهم لتنفيذ ما تأمر دون تردد. فهي بعيدة النظر في كل أمورها.

---

(١) كتاب التيجان ص١٦٦.

(٢) تفسير البغوي لسورة النمل.

لم يطل تفكير بلقيس كثيراً فقد عرفت من أفعى نجران أن سليمان نبي دين لا طامع دنيا وهو داع إلى الله، وأن حربه لا طائل تحتها، ولا سيما أنها سمعت عن جنده ومعجزاته ما أذهلها، فقالت بعد أن رأت قومها يعرضون أنفسهم للموت والحرب: ﴿إِنَّ ٱلْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُواْ قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا﴾ - وتقصد الملوك المنتصرين - ﴿وَجَعَلُوٓاْ أَعِزَّةَ أَهْلِهَآ أَذِلَّةً﴾ أي أهانوا أشرافها وكبراءها ليستقيم لهم الأمر. وقد صدق الله قولها فقال: ﴿وَكَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ﴾ لقد أقنعت شعبها بالحجة والبرهان برأيها، فالملوك إذا دخلوا قرية بعد قتال وحرب، أفسدوها بتخريب عماراتها وإتلاف محصولها وسلب ما فيها من أموال. ثم إنهم يجعلون أعزة أهلها أذلة بالقتل والأسر والإجلاء، وغير ذلك من فنون الإهانة والإذلال وكأنها قالت لهم: إن سليمان ملك والملوك هذا شأنهم. ثم إن غلبتنا عليهم غير مؤكدة. وليس الاعتماد على العدد والعدة والشجاعة والنجدة فربما يغلبنا فيكون ما يكون، والصلح خير. وقيل (وذلك في تفسير روح المعاني) إنه غلب على ظنها غلبته حيث إن الطير مسخر له يرسله بأمر خاص إلى شخص خاص غُلقت عليه الأبواب. وهكذا أشارت لهم أنه سيغلبهم إذا قاتلوه. فيفسد القرى ويذل الأعزة. فأفسدت بذلك رأيهم، وما أحسته منهم من الميل إلى المقاتلة.

إنها لم تغتر بقوتها رغم أنها جبارة بل كان بعد نظرها هو الرائد لها، وقد قال الشاعر في هذا المعنى:

إن الملوك بلاء حيثما حلوا ... فلا يكون لك في أكنافهم ظلُّ
ماذا تؤمل من قوم إذا غضبوا ... جاروا عليك وإن أرضيتهم ملوا
وإن مدحتهم خالوك تخدعهم ... واستثقلوك كما يستثقل الكلُّ[1]
فاستغن بالله عن أبوابهم كرماً ... إن الوقوف على أبوابهم ذلُّ

كانت بلقيس إذن امرأة لبيبة ذكية بعيدة النظر تعرف كيف تسوس الأمور؛ فوجدت أن خير إجابة على رسالة سليمان هي الملاطفة والمصانعة. فقالت

(١) الكل: الذي هو عيال وثقل على صاحبه. الذكر والأنثى سواء. لسان/كلل.

لقومها: ﴿وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِم بِهَدِيَّةٍ﴾ (أي إلى سليمان وقومه) فأختبره إن كان نبياً أو كان ملكاً، فإن كان ملكاً قبل الهدية وانصرف وإن كان نبياً لم يقبل بهديتنا ولم يرضَ منا إلا أن نتبعه على دينه، وذلك في قوله تعالى: ﴿فَنَاظِرَةٌ بِمَ يَرْجِعُ ٱلْمُرْسَلُونَ﴾ معنى هذا أنه إن كان نبياً فإن المال لا يرضيه، وإذا كان ملكاً دنيوياً فإن المال يرضيه، عند ذلك نتصرف التصرف المناسب في وقته المناسب.

أرادت بلقيس أن تمتحن سليمان أولاً فاختارت أربعين رجلاً لم تدع في أبناء الملوك أجمل منهم ولا أعقل، ولا أشد ثقة ولا أبعد غايةً ولا أعلى صوتاً (فعنفهم في صوتهم قبل أن يصلوا إلى سليمان) واختلفوا في هديتها.

وأرسلت إليه بهدية تمتحنه بها: أرسلت إليه بمئة وصيف ومئة وصيفة ولدوا في شهر واحد، كما ولدوا في ليلة واحدة. وألبست الوصائف والوصفاء زياً واحداً ليظن من رآهم أنهم غلمان، وقيل ألبست الغلمان لباس الجواري والجواري لباس الغلمان واختلف في عددهم. قال ابن عباس: مئة وصيف ومئة وصيفة. وقال مجاهد: مئتا غلام ومئتا جارية. وقال وهب وغيره: خمسمئة غلام وخمسمئة جارية، فألبست الغلمان لباس الجواري، وجعلت في سواعدهم أساور من ذهب، وفي أعناقهم أطواقاً من ذهب وفي آذانهم أقراطاً وشنوفاً[١] مرصعات بأنواع الجواهر، وألبست الجواري لباس الغلمان: الأقبية والمناطق، وحملت الجواري على خمسمئة رمكة[٢] والغلمان على خمسمئة برذون، على كل فرس لجام من ذهب مرصع بالجواهر وغواشيها من الديباج الملون، وبعثت له خمسمئة لبنة من ذهب وخمسمئة لبنة من فضة وتاجاً مكللاً بالدر والياقوت المرتفع، وأرسلت إليه المسك والعنبر والعود اليلنجوج[٣] وعمدت إلى حقة فجعلت فيها درة ثمينة

---

(١) الشنوف: الشُّنْف: الذي يلبس في أعلى الأذن ولا يُقال شُنف. والذي يُلبس في أسفلها هو القُرط. وقيل الشُّنْف والقُرط سواء جمع شنوف. لسان/شنف.

(٢) الرمكة: الأنثى من البراذين، والجمع رِماك ورمكات وأرماك. لسان/ رمك.

(٣) العود: الخشبة المطرّاة يدخّنُ بها. وفي الحديث (عليكم بالعود الهندي) لسان/ عود، واليلنجوج: عود طيب الريح. يقال عود ألنجوج ويلنجج ويلنجوج ويلنجوجي. قال ابن السكيت هو الذي يتبخر به. لسان/ لنج.

غير مثقوبة وخرزة جزعية مثقوبة معوجة الثقب. ودعت رجلاً من أشراف قومها يقال له المنذر بن عمرو، وضمت إليه رجالاً من قومها أصحاب رأي وعقل، وكتبت معه كتاباً بنسخة الهدية وقالت فيه: إن كنت نبياً فميز لي بين الوصائف والوصفاء وأخبرني بما في الحقة قبل أن تفتحها، واثقب الدر ثقباً مستوياً، وأدخل خيطاً في الخرزة المثقوبة من غير علاج إنس ولا جن. وأمرت بلقيس الغلمان فقالت: إذا كلمكم سليمان فكلموه بكلام التأنيث وتخنيث يشبه كلام النساء، وأمرت الجواري أن يكلمنه بكلام فيه غلظة يشبه كلام الرجال. ثم قالت للرسول: انظر إلى الرجل إذا دخلت عليه فإن نظر إليك نظر غضب فاعلم أنه ملك ولا يهولنك منظره، فإنا أعز منه، وإن رأيت الرجل بشّاشاً لطيفاً فاعلم أنه نبي مرسل فتفهّمْ قوله ورد الجواب.

ويقال بأنها أرسلت إليه بخيل عتاق ذكور وإناث وقالت لرسلها أن يميز الخيل، وأيها نتج قبل صاحبه وعن الولاء والقرابة بين ذلك. وأنها أرسلت حقاً فيه من الياقوت والجوهر والزبرجد والزمرد والعقيان واللجين الكثير. وكل هذه الأخبار لا ندري صحتها لأن في بعضها ما يميل القلب إلى الشك فيه والله تعالى أعلم.

ثم إن بلقيس جمعت أشراف حمير فقالت: خذوا في أهبة الحرب فإنه إن لم يكن نبياً فإننا سنحاربه. ثم جمعت الجيوش واستعدت للحرب إنه تدبير حكيم من امرأة حذرة.

انطلق الرسل بالهدايا وانطلق الهدهد مسرعاً إلى سليمان، فأخبره الخبر كله. فأمر سليمان الجن أن يضربوا لبنات الذهب، ولبنات الفضة ففعلوا. ثم أمرهم أن يبسطوا من موضعه الذي هو فيه إلى تسعة فراسخ، ميداناً واحداً بلبنات الذهب والفضة وأن يجعلوا حول الميدان حائطاً[١]، شُرَفها[٢] من الذهب والفضة. ثم قال: أي الدواب أحسن مما رأيتم في البر والبحر؟

---

(١) الحائط: الجدار لأنه يحوط ما فيه والجمع حيطان. لسان/حوط.

(٢) الشُرَف: مفرده شرفة. والشُرفة: ما يوضع على أعالي القصور والمدن. والشَرَفُ: العلو. لسان/شرف.

قالوا: يا نبي الله، إنا رأينا دواب في بحر كذا وكذا منقطة مختلفة ألوانها، لها أجنحة وأعراف ونواصٍ، فقال: عليَّ بها الساعة، فأتوْا بها. فقال: شدوها عن يمين الميدان وعن يساره على لبنات الذهب والفضة. وألقوا لها علوفتها[1] فيها. ثم قال للجن: علي بأولادكم، فاجتمع خلق كثير. فأقامهم على يمين الميدان ويساره. ثم قعد سليمان في مجلسه على سريره، ووضع له أربعة آلاف كرسي عن يمينه ومثلها عن يساره، وأمر الشياطين أن يصطفوا صفوفاً فراسخ. وأمر الإنس فاصطفوا فراسخ، وأمر الوحوش والسباع والهوام والطير، فاصطفوا فراسخ عن يمينه وعن يساره.

فلما دنا قوم بلقيس من الميدان ونظروا إلى ملك سليمان ورأوا الدواب التي لم تر أعينهم مثلها، تروث[2] على لبن الذهب والفضة، تقاصرت أنفسهم ورموا بما معهم من الهدايا. وفي بعض الروايات أن سليمان لما أمر بفرش الميدان بلبنات الذهب والفضة، أمرهم أن يتركوا على طريقهم موضعاً على قدر موضع اللبنات التي معهم، فلما رأى الرسل موضع اللبنات خالياً، وكانت الأرض مفروشة خافوا أن يُتَّهَموا بذلك، فطرحوا ما معهم في ذلك المكان. فلما رأوا الشياطين نظروا إلى منظر عجيب ففزعوا، فقالت لهم الشياطين: جوزوا فلا بأس عليكم. فكانوا يمرون على كردوس كردوس من الجن والإنس والطير والهوام والسباع والوحوش. حتى وقفوا بين يدي سليمان. فنظر إليهم سليمان نظراً حسناً بوجهٍ طلْقٍ وقال: ما وراءكم؟ فأخبره رئيس القوم بما جاؤوا له، وأعطاه كتاب الملكة فنظر فيه فاشتد إعجابه بما سألته عنه لأن أسئلتها تدل على ذكاء نادر وعقل واسع وبعد نظر. ثم قال: أين الحقة؟ فأتي بها فحركها وجاء جبريل فأخبره بما في الحقة. ثم قال: إن فيها درة ثمينة غير مثقوبة، وجزعة[3] مثقوبة معوجة الثقب. فقال الرسول: صدقت، فاثقب الدرة

---

(١) علوفتها: العَلَف للدواب وهو ما تأكله الماشية لسان/ علف.

(٢) تروث: (الرَّوْثُ: رجيع ذي الحافر). راث يروث روثاً. لسان/ روث.

(٣) الجزعة: الخرزة اليمانية.

وأدخل الخيط في الخرزة. فقال سليمان: من لي بثقبها؟ فسأل سليمان الإنس والجن فلم يكن عندهم علم ذلك ثم سأل الشياطين فقالوا: نرسل إلى الأَرَضة، فجاءت الأَرَضة، فأخذت شعرة في فيها، فدخلت فيها حتى خرجت من الجانب الآخر. فقال لها سليمان: ما حاجتك؟ فقالت: تصيّر رزقي في الشجرة فقال: لك ذلك. وروي أنه جاءت دودة تكون في الصفصاف فقالت: أنا أدخل الخيط في الثقب، على أن يكون رزقي في الصفصاف. فجعل لها ذلك. فأخذت الخيط بفيها ودخلت الثقب وخرجت من الجانب الآخر ويقال بأنه قال: من لهذه الخرزة فيسلكها في الخيط (ويقصد الخرزة المثقوبة، المعوجة الثقب) فقالت دودة بيضاء: أنا لها يا رسول الله، فأخذت الدودة الخيط في فيها، ودخلت الثقب حتى خرجت من الجانب الآخر فقال لها سليمان: ما حاجتك؟ فقالت: تجعل رزقي في الفواكه. قال: لك ذلك.

ثم ميّز بين الجواري والغلمان؛ بأن أمرهم أن يغسلوا وجوههم وأيديهم، فجعلت الجارية تأخذ الماء من الآنية بإحدى يديها، ثم تجعله على اليد الأخرى ثم تضرب به الوجه. والغلام يأخذه من الآنية بكلتا يديه ويضرب به وجهه. وكانت الجارية تصب الماء على بطن ساعدها، والغلام على ظهر الساعد. وكانت الجارية تصب الماء صباً وكان الغلام يحدر الماء على يديه حدراً. فميز سليمان بينهم. وردَّ الهدية.

لقد خصّ الله نبيه سليمان بالمعجزات كما خصّ غيره من الأنبياء.

وهكذا أجابه رسل بلقيس إلى دعوته، وصدقوه إلى ما دعاهم إليه من طاعة الله.

وعادوا إلى ملكتهم فأعلموها بما رأوا وهم يحملون الهدايا التي ذهبوا بها إلى سليمان؛ فهو لم يكتب إليها طمعاً في ملكها ولا في مال ولا هدية، ولكنه طلب منها أن تأتي إليه لتؤمن بالله، وتتبع شريعته، وتترك عبادة الشمس. فقال لهم ـ أي لرسلها ـ ﴿أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ فَمَآ ءَاتَىٰنِۦَ ٱللَّهُ خَيْرٌ مِّمَّآ ءَاتَىٰكُم بَلْ أَنتُم بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ﴾ وقال أيضاً: ﴿ٱرْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُم بِجُنُودٍ لَّا

﴿قِبَلَ لَهُم بِهَا وَلَنُخْرِجَنَّهُم مِّنْهَآ أَذِلَّةً وَهُمْ صَٰغِرُونَ ﴿٣٧﴾﴾ إن عندي من الأموال ما قد أنعم الله علي وأسداه، ومن التحف والرجال ما هو أضعاف هذا، وأعطاني خيراً مما تفرحون به وتفخرون على أبناء جنسكم بسببه. ثم قال: لأبعثن إليهم بجنود لا يستطيعون دفاعهم، ولا نزالهم ولا ممانعتهم ولا قتالهم. ولأخرجنهم من بلادهم ودولتهم أذلة وهم صاغرون، يكللهم العار والدمار إلا إذا أطاعوا وآمنوا فإنهم ناجون.

قلنا: رجع الوفد أدراجه وأخبر ملكته بما رأى من قوة سليمان ورفضه لهديتها، وأكد لها ما أقسم عليه سليمان، من التهديد بالغزو إذا ما رفضت الحضور إليه.

وكانت قد قالت: ﴿إِنَّ ٱلْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا۟ قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوٓا۟ أَعِزَّةَ أَهْلِهَآ أَذِلَّةً﴾ فأدركت خطورة الموقف وهي الحكيمة العاقلة، التي تخاف على شعبها من ناحية سليمان، وهي التي عرفت سابقاً من أفعى نجران أنه نبي مرسَل. واقتنعت بنبوته أكثر من ذلك عندما عاد رسلها، فتحققت أنه نبي مرسل، وأنه صادق في تهديده ووعيده وأنها لا طاقة لها بمخالفته، وأنها لن تستفيد من مكاثرته شيئاً. فقررت الذهاب إليه لتحمي شعبها من انتقامه، فتجهزت للمسير إليه مع أشراف قومها. وبعثت إلى سليمان: إني قادمة عليك بملوك قومي حتى أنظر ما أمرك، وما تدعو إليه من دينك. ثم أمرت بعرشها فجعل في آخر سبعة أبيات؛ بعضها في بعض في آخر قصر من سبعة قصور لها. ثم أغلقت دونه الأبواب ووكلت به حراساً يحفظونه، ثم قالت لمن خَلَّفَتْ على سلطانها، أن يحافظ على ملكها وسرير ملكها بخاصة، وطلبت منه ألا يقربه أحد حتى تعود. وكان ذلك سنة ٨٥٠ قبل الميلاد[١].

ثم أمرت منادياً ينادي في أهل مملكتها يؤذنهم بالرحيل. فسارت بمئة رجل وعشرين رجلاً، من أشراف قومها ورؤسائهم وأخيارهم، مع كل رجلٍ

---

(١) تفسير البغوي لسورة النمل. وانظر التيجان ص١٦٩ وقصص الأنبياء ص٤٤٦ و٤٤٧ وكتاب مع الأنبياء في القرآن الكريم ص٢٩٢ وانظر: ملوك حمير وأقيال اليمن (شرح لقصيدة نشوان الحميري) ص٨٠ و٨١ و٨٢.

وجوه جنده وأفاضل أصحابه وقادة خيله؛ بقدر ألف رجل. فخرجت إلى سليمان بمئة ألف واثني عشر ألفاً وتركت جميع أجنادها في غمدان ومأرب. وكانوا يسمون القواد أقيالاً.

ثم جمعت أبناء الملوك وقالت: معاشر حمير أنتم تلاد الله، اصطفاكم من أول الدهور، وفضلكم بأفضل الأمور وقد ابتلاكم بهذا النبي سليمان بن داود؛ فإذا آمنتم وشكرتم، زادكم من نعمه، وإن كفرتم سلبكم النعم وسلط عليكم النقم، فقالوا لها: الأمر إليك. وعلموا أنها شفيقة عليهم ناصحة لهم. ثم قال لها قومها: ماذا في أمر هذا الرجل؟ أتريدين الدخول في طاعته أم تحاربينه؟ أم تقولين إنه نبي. قالت لهم: سأعلمكم منه ما تعرفون أنبي هو أم ملك من هؤلاء الملوك. انظروا إليّ إذا أنا دخلت عليه، فإن هو أمرني بالجلوس، فهو ملك من هذه الملوك لأن الملوك لا يُجلس عندهم إلا بإذنهم. وما أقل من يجلس عندهم إلا خاصتهم. وإن هو لم يأمرني ولم ينهني فهو نبي. ومع ذلك فإني أسأله عن أشياء إن هو أخبرني عنها فهو نبي، وأنا داخلة في أمره ولا طاقة لكم بمحاربته.

فجعل سليمان يبعث الجن فيأتونه بخبر مسيرها كل يوم وليلة[1] من اليمن إلى فلسطين، فلما نزلت على بعد فرسخين من مدينة سليمان، بلغه ذلك. وذلك أنه خرج يوماً فجلس على سرير ملكه فرأى وهجاً قريباً منه فقال: ما هذا؟ قالوا: بلقيس وقد نزلت منا بهذا المكان. وكانت على مسيرة فرسخ من سليمان. قال مجاهد: فوصف لنا ذلك ابن عباس فحزرْتُه ما بين الكوفة والحيرة قدر فرسخ. فأقبل سليمان حينئذ على جنوده وقال: ﴿قَالَ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ أَيُّكُمْ يَأْتِينِى بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَن يَأْتُونِى مُسْلِمِينَ ﴿٣٨﴾﴾ يريد بذلك أن يأخذ عرشها قبل أن تصل هي إليه؛ ليريها قدرة الله تعالى وما أعطاه من معجزات. وقد علم سليمان أنها إن أسلمت يحرّم عليه مالها بسبب إسلامها.

(١) آثار اليمن قبل الإسلام ص٧١ و٧٢.

قال قتادة: لأنه أعجبته صفته لما وصفه الهدهد فأحب أن يراه.

ولعل سليمان عليه السلام أراد أن يختبر عقلها ودقة ملاحظتها من ناحية، وليريها بعض خوارقه من ناحية أخرى ليثبت لها صحة نبوته وعظيم قدرة الله عز وجل.

ثم إنه أحضر الجن وقال لهم ذلك وكان فيهم عفريت من الجن فقال: ﴿أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ﴾ أي مجلسك الذي تقضي به بين الناس، وهو من أول النهار إلى نصفه وهو وقت الزوال. والعفريت هو المارد القوي. قال وهب: اسمه كوذي. وقال ابن عباس: العفريت الداهية. وقال الضحاك: الخبيث. وقال الفراء: القوي الشديد. وقيل: هو صخرة الجني وكان بمنزلة جبل يضع قدمه عند منتهى طرفه. قال العفريت: ﴿وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ﴾ أي أمين على الجواهر التي رصع بها. فقال سليمان: أريد أسرع من هذا ﴿قَالَ ٱلَّذِى عِندَهُۥ عِلْمٌ مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ﴾ واختلفوا في الذي عنده علم من الكتاب، قال بعضهم: هو جبريل. وقيل: هو ملك من الملائكة أيد الله به نبيه سليمان. وقال أكثر المفسرين: هو آصف بن برخيا وكان يحفظ الاسم الأعظم إذا دعي به أجاب وإن سئل به أعطى. وكان كاتباً لسليمان وقد كتب الوحي الذي أمر الله به سليمان. وقيل: هو سليمان ذاته. لكن ذلك مستبعد عقلاً.

وعن ابن عباس أن آصف قال لسليمان حين صلّى: مدّ عينيك حتى ينتهي طرفك، فمد سليمان عينيه فنظر نحو اليمين فدعا آصف فبعث الله الملائكة فحملوا السرير من تحت الأرض يخدون به خداً، حتى انخرقت الأرض بالسرير بين يدي سليمان. قال الكلبي: خر آصف ساجداً ودعا باسم الله الأعظم فغار عرشها تحت الأرض حتى نبع عند كرسي سليمان. وقيل: كانت المسافة مقدار شهرين. واختلفوا في الدعاء الذي دعاه آصف. قال مجاهد ومقاتل: يا ذا الجلال والإكرام. وقال الكلبي: يا حي يا قيوم وروي ذلك عن عائشة. وعن الزهري: يا إلهنا وإله كل شيء إلهاً واحداً لا إله إلا أنت ائتني بعرشها.

أما قوله تعالى: ﴿قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ﴾ فقال فيه سعيد بن جبير: يعني من قبل أن يرجع إليك أقصى من ترى. وهو أن يصل إليك من كان منك على مد البصر. قال قتادة: قبل أن يأتيك الشخص من مد البصر. قال وهب: تمد عينيك فلا ينتهي طرفك إلى مداه حتى أمثل العرش بين يديك(1).

وفي كتاب التيجان(2): فأمر سليمان الريح فأقلت آصف أسرع من طرفة عين. فأتى إلى العرش وهو في قصر غمدان ودونه عشرة حجب بالمجالس، في كل مجلس حرس، فأمر آصف الريح فأقلته، وأمسك صدر العرش فأتي به إلى سليمان، وأمر سليمان الجن والإنس فبنوا له مجالس لم يُبْنَ مثلُها. فجعل العرش في أقصى المجلس. ولما رأى سليمان العرش من ذهب ولؤلؤ وجوهر قال: ﴿نَكِّرُوا لَهَا عَرْشَهَا نَنظُرْ أَتَهْتَدِي أَمْ تَكُونُ مِنَ الَّذِينَ لَا يَهْتَدُونَ﴾ وفي القرآن الكريم ﴿فَلَمَّا رَآهُ مُسْتَقِرًّا عِندَهُ قَالَ هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ﴾.

إن من يشكر فشكره يعود إليه مما يستوجب له تمام النعمة ودوامها، لأن الشكر قيد النعمة الموجودة وصيد النعمة المفقودة.

وفي التعليق على قصة نقل عرش بلقيس إلى قصر سليمان، يقول السيد ظافر كمال(3): ولعل في قصة سليمان عليه السلام مع ملكة سبأ، حين أراد أن يحضر عرشها من مكانه باليمن قبل حضورها إليه بمقر ملكه في فلسطين، لفتة عجيبة موحية من لفتات القرآن الكريم والتي تعتبر مفاتيح أسرار الكون، لتوجيه العقول إلى التفكير والدراسة والكشف. وهذا العمل - أي نقل عرش ملكة من قطر إلى قطر في أقل من لمح البصر - لا يعرضه القرآن على أنه عمل من أعمال السحر، ولا قامت به قوة من قوى الجن،

(1) انظر ملوك حمير وأقيال اليمن ص81 و82 و83 للاستزادة في هذا الموضوع.
(2) كتاب التيجان ص83.
(3) مجلة الصحوة - كندا، لندن، جولي 1997 ص3 و4.

ولا معجزة تمت على يد نبي. ولكنه عمل قام به عالم على أساس علمي فيما يبدو من الآية الكريمة ﴿ٱلَّذِى عِندَهُۥ عِلْمٌ مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ﴾ وهو توجيه إلى الإنسان أنه بالعلم يستطيع أن يصل إلى تسخير كثير من قوى الكون متى توصَّل إلى معرفة قانونها. وذلك هو الذي صنعه صاحب سليمان. وقد استطاع العلم الحديث أن ينقل الصوت على موجات الأثير، ثم تمكن من نقل الصور، ويحاول العلماء نقل الأجسام بالأسلوب نفسه، كما صنع عامل سليمان، وليس من شأن القرآن الكريم أن يقدم النظريات والقوانين والوسائل جاهزة ولكنه يبعث على التفكير، ويدل على مفاتيح المعرفة وأسرار الكون، ويغري بالتفكير والدراسة والبحث.

وفي كيفية وصول العرش إليه خلاف، قال بعضهم: لم يجر عرش صاحبة سبأ بين السماء والأرض، ولكن انشقت به الأرض فجرى تحتها حتى ظهر بين يدي سليمان. وقيل: بل نزل بين يدي سليمان من السماء وكان إذ ذاك في أرض الشام. وقيل: بل إن آصف تصرف في عين العرش فأعدمه في موضعه وأوجده عند سليمان من حيث لا يشعر أحد بذلك.

ويعلق صاحب روح المعاني بقوله: اتفق البر والفاجر على وقوع ما هو أعظم من ذلك منها قطع الشمس في طرفة عين آلاف الفراسخ مع أن نسبة عرش بلقيس إلى جرمها نسبة الذرة إلى الجبل. ومسألة حصول العرش من أشكل المسائل (قول صاحب روح المعاني) إلا عند من عرف موضوع الإيجاد والإعدام فما قطع العرش مسافة ولا زويت له أرض ولا خرقها.

وفي كتاب ملوك حمير وأقيال اليمن[١] ذكروا أن آصف بن برخيا توضأ وركع ركعتين ثم قال: انظر يا نبي الله وامدد طرفك حتى ينتهي طرفك، فمد سليمان عليه السلام طرفه نحو اليمين. ودعا آصف بن برخيا فانحرف العرش من مكانه الذي هو فيه، ثم قبع بين يدي سليمان ﴿فَلَمَّا رَءَاهُ مُسْتَقِرًّا عِندَهُۥ قَالَ هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّى لِيَبْلُوَنِىٓ ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ ۖ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ

(١) ملوك حمير وأقيال اليمن ص٨٤.

لِنَفْسِهِۦ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ ﴾.

ثم إنه أمر رجاله أن يغيروا هيئة العرش بعض الشيء، بأن يزاد فيه جوهر وياقوت وينقص منه شيء كذلك. كما أمر الجن فجعلوا عن يمينه وشماله حائطين مموهين بالذهب، وبنوا وراء ذلك داراً ومجلساً وجعلوا أرض الدار لبناً مموهاً بالذهب، غير موضع لبنة واحدة.

وقيل إنه غيّر شكل العرش بأن جعل أسفله أعلاه ومقدمه مؤخره.

وفي كتاب قصص الأنبياء[1] أن سليمان أمر المهرة من الصناع ببناء قصر، فصنعت أرض بهوه من زجاج شفيف مستو أملس، وأرسل الماء تحت الزجاج فبدا البهو كأنه بركة ماء. وفي تفسير البغوي بيتاً من زجاج كأنه الماء بياضاً وأجرى تحته الماء وألقى فيه كل شيء من دواب البحر من السمك والضفادع وغيرهما، ثم وضع سريره في صدره وجلس عليه. وعكفت عليه الطير والجن والإنس، وقيل اتخذ صحناً من قوارير وجعل تحتها تماثيل من الحيتان والضفادع فكان الواحد إذا رآه ظنه ماء.

وقيل: وإنما بنى الصرح ليختبر عقلها وفهمها كما فعلت هي بالوصائف والوصيفات والدرة العذراء، والجزعة المعوجة الثقب.

وفي قوله: ﴿أَتَهْتَدِىٓ ﴾ إما أنها تهتدي لمعرفة عرشها أو إلى الجواب الذي ستنطق به، إذا سُئلت: ﴿أَهَٰكَذَا عَرْشُكِۖ ﴾؟ أو أن تهتدي إلى الإيمان بالله تعالى ورسوله إذا رأت عرشها أمامها وقد كانت خلفته وراء أبواب مغلقة، وحوله حراس وحجّاب موكلون بحمايته. إنها لا شك سوف تؤمن بالله حين ترى قدرته وتؤمن بنبيه حين ترى معجزته.

وفي بعض الآثار أن الجن خافوا أن يتزوجها فيرزق منها ولداً يحوز فطنة الإنس وخفة الجن فرموها لديه بالجنون أو بسخف العقل وادّعوا أن

(١) قصص الأنبياء ص٢٩٥.

رجليها كحوافر البهائم فلذلك أراد سليمان عليه السلام اختبارها، دفعاً لقول الحاسدين ووقوفاً على حقيقة حالها.

بلقيس في قصر سليمان:

جلس سليمان في صدر البهو على سرير الملك، وبعث في طلب بلقيس لمقابلته في القصر. فلما جاءت قيل لها ادخلي الصرح[1] لمقابلة سليمان.

أقبلت ملكة سبأ إلى قصر سليمان فرأت حائطين مموهين بالذهب، ودخلت الصرح فرأت أرضه وحيطانه من ذهب فتقاصر إليها ملكها ورأت شيئاً لا يشبه ما كانت فيه. وسليمان في مجلسه في أقصى القصر، ومعها لبنة واحدة من ذهب تمسكها بيدها تريد أن تجلس عليها إن أمرها بالجلوس. فنظرت فإذا هي على باب مجلس سليمان، وفي موضع منه مكان ليس فيه لبنة فكرهت حين رأت ذلك أن تمضي بما في يدها فتتهم بها، فرمت باللبنة في المكان الخالي وسليمان ينظر إليها. فلما دخلت عليه وسلّمت حيّته تحية الملوك، وتواضعت له كما يتواضع الملوك. فقال لها سليمان: ﴿أَهَٰكَذَا عَرْشُكِ﴾؟ قالت: ﴿كَأَنَّهُۥ هُوَ﴾[2].

كانت بلقيس حكيمة فلم تقل نعم خوفاً من أن تكذب. ولم تقل لا خوفاً من التكذيب أي تكذيب سليمان. فقالت ﴿كَأَنَّهُۥ هُوَ﴾ فعرف كمال عقلها حيث لم تقر ولم تنكر. وقيل اشتبه عليها أمر العرش؛ لأنها تركته في بيت خلف سبعة أبواب مغلقة والمفاتيح معها. وأحيط به بحرس يحرسونه فكيف جيء به إلى هنا. لقد وقفت أمامه في حيرة وتردد لأن فيه من العلامات ما يجعلها تحكم أنه عرشها. ثم قيل لها: هل هذا عرشك؟ الذي تركته في بلادك؟ أم أنه يشبهه؟ بعد إمعان النظر أيقنت أنه عرشها بالذات وأن الإتيان به قبل حضورها معجزة من معجزات سليمان. عندئذ قالت

---

(١) قيل الصرح صحن الدار.

(٢) كتاب التيجان ص١٧٠.

موجهة الكلام لنبي الله سليمان: لقد علمنا بقدرة الله وصحة نبوتك من قبل هذه المعجزة بما شاهدنا من أمر الهدهد، وما سمعنا من رسلنا إليك، من الآيات الدالة على ذلك. وكنا مؤمنين منذ ذلك الوقت. وما منعنا من إظهار إيماننا وإعلانه إلا أننا كنا بين قوم راسخين في الكفر، وهذا مما جعلنا نكتمه إلى حين حضورنا إليك[1].

أي أن الذي صدها عن إظهار إسلامها أنها كانت بين قوم راسخين في الكفر وعبادة الشمس. ولم تكن قادرة على إظهار إسلامها وهي بين ظهرانيهم إلى أن حضرت بين يدي سليمان.

وفي تفسير (روح المعاني) أنها حين قالت ﴿كَأَنَّهُ هُوَ﴾: أنها أصابت في جوابها وهي عاقلة لبيبة. وقد رزقت الإسلام وعلمت قدرة الله عز وجل وصحة نبوة سليمان بسبب الآيات التي ظهرت لها. وأخيراً بآية العرش الذي صار أمامها.

ثم قامت بين يديه، لا يأمرها ولا ينهاها عن القيام. حتى إذا طال ذلك منها قال سليمان رافعاً رأسه إليها: الأرض لله فمن شاء فليجلس ومن شاء فليقم. قالت: الآن تأكدت أنك نبي. قال: ومن أين؟ قالت: إنه لا يُجلس عند الملوك إلا بإذنهم، أما القيام فعندهم يقام، وما أقل من يقعد عندهم إلا من كان من خاصتهم. لكنك قلت مقالة أهل العلم بالله، وقد أتيتُ وأنا أريد أن أسألك عن ثلاث خصال، فإن أنت أخبرتني بهن دخلت في طاعتك وإن لم تفعل فعلت رأيي فيما بيني وبينك. قال سليمان: فسلي ولا قوة إلا بالله. قالت: أخبرني عن ماء روي ليس من أرض ولا سماء ـ وأخبرني عن تشبيه الولد أباه وأمه ومن أين يأتيه ذلك ـ وأخبرني عن لون الرب تبارك وتعالى. سألت ذلك وهي جالسة على كرسي والإنس والجن عن يمينه وشماله. قال سليمان للإنس: هل عندكم في هذا شيء؟ قالوا: يا نبي الله لا علم لنا. قال للجن: هل عندكم في هذا من شيءٍ؟ قالوا: لا

(١) مع الأنبياء في القرآن الكريم ص٢٩٤ و٢٩٥.

علم لنا يا نبي الله. ثم قال سليمان للجن[1]: اركبوا هذه الخيل فأجروها فإذا تصبب عرقها فخذوه وجيئوني به. ففعلوا وأتوه بماء كثير من عرق الخيل. فقال لها: هناك يا بلقيس ماء روي ليس من أرض ولا سماء هو عرق الخيل. قالت: صدقت وأجبت عن هذه فماذا تقول في الخصلتين؟ قال لها: أما شبه الولد فإن النطفة إذا سبقت من الرجل كان الشبه له، وإن سبقت من المرأة كان الشبه لها. قالت: صدقت. ثم قالت: أخبرني عن لون الرب. قال لها: تبارك وتعالى عن سؤالك، وأنا راغب إلى ربي.

وفي الطبري: أن سليمان وثب عن سريره فخرّ ساجداً. وفي رواية أنه صعق فغشي عليه فخرّ عن سريره.

ويفصل كتاب التيجان روايته فيقول: فرغب سليمان إلى ربه في مجلسه ذلك، فأوحى الله إليه: (إني قد أنسيتُها ذلك فاسألها عنه) فسألها فقالت: ما أدري ما سألتك عنه يا نبي الله. فعرض عليها سليمان الإسلام فقالت: أنظر في أمري هذا يومي هذا.

لقد صعُب الأمر على الجن فإن في إسلامها زواج سليمان منها؛ فإذا تزوجها حرم الجن من أمور كثيرة وقالوا: فإذا هو تزوج بلقيس أتتنا فطنة الجن وحيل الإنس وكيد النساء، فلم نصب راحة فكيف إذا اجتمعت[2] مع أعوانها من الجن والإنس، وأهل القسوة والتطاول، على من دونهم لم نأمل على أنفسنا الهلكة، يحجب عنا كل خير وينزل بنا كل سوء وشر. تعالوا فلنزهّدْهُ فيها، فإنه ذكر أنه يريد أن يتزوجها. فقال عفريت من الجن يقال له زوبعة: أنا أكفيكم سليمان فأتاه وقال له: يا نبي الله بلغني أنك تريد أن تتزوج بلقيس، في حين أن أمها من الجن، ولم تلد جنية من إنسي قط ولداً إلا كان رجلاه مثل حافر الحمار، صلب القسوة حاد النفس، حار الجسم. قال سليمان: فكيف لي أن أنظر إلى ذلك منها، وأعلم من غير أن تعلم ما أريد به منها. قال له زوبعة: أنا أكفيك ذلك. أرسل إليها فتدخل عليك

(١) كتاب التيجان ص١٧٠ وفي رواية الطبري أن الشياطين أجابوه.

(٢) هذه رواية من يقولون إن أمها من الجن.

فإنك ترى الذي تريد. فبعث إليها وهو على كرسيه ليس في البيت مجلس غيره ـ وذلك في الصرح الممرد من قوارير ـ فلما رأت السرير والصرح، علمت أن ملك سليمان من الله فقالت: ﴿رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي﴾ بعبادة غيرك ﴿وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ أي أخلصت له التوحيد. وقيل إنها بقولها: ﴿ظَلَمْتُ نَفْسِي﴾ أنها حين بلغت الصرح ظنته لجة قالت في نفسها إن سليمان يريد أن يغرقني وكان القتل أهون علي من هذا[1].

ولنعد إلى كتاب التيجان ففيه تفصيل الحديث[2]:

بعث إليها سليمان وهو على كرسيه، فلما رأت الماء والسمك يجول فيه أرسلت بصرها لتنظر مكاناً تجلس فيه فلم تجد، وحسبته لجة فكشفت عن ساقيها؛ لتخوض الماء فتصل إلى سليمان. فلما رآها ونظر إلى ساقيها، عليهما شعر كثير أسود على بياض ساقيها، قال لها سليمان: لا تكشفي عن ساقيك إنه صرح ممرد من قوارير، فنظرت فإذا ملكها ليس شيئاً عند ملك سليمان، وأيقنت أن ذلك آية من عند الله ليس مما يفعل المخلوق. فلما نظر إلى شعر ساقيها ورأى جسمها أحسن جسم صرف وجهه عن ساقيها للشعر الذي رأى فألقت هي ثوبها وقالت: يا نبي الله إن الرُّمّانة لا يُدرى ما هي حتى تذاق. قال سليمان: ما لا يحلو على العين لا يحلو على الفم[3].

ثم أجَّلَ سليمان أمره في بلقيس شهراً، حتى أنزل الله عليه براءتها من ريب الجاهلية فلما عزم سليمان على تزويجها قال له رجل صالح من الجن: يا نبي الله، هل كرهت منها إلا الشعر قال: نعم قال: إني سأتركها لك مثل الفضة من غير عيب. قال له: افعل فصنع له النورة[4]. وبعث بها إليها واتخذ لها الحمام. قال بعض أهل العلم: كانت أول نورة عملها مخلوق، وأول حمام صنع ذلك الجني. وصنع لها ذلك الجني صرحين ممردين

(١) تفسير البغوي.
(٢) التيجان ص١٧١.
(٣) هذا على ذمة صاحب كتاب التيجان ص١٧٢ ولا يخفى ما في الحوار من طرافة وتصنع.
(٤) يلاحظ تناقض هذا القول مع ما تقدم من قول الجن.

وضروب الصناعات. وتزوجها سليمان فأعجب بها وبعقلها وتدبيرها وحسن رأيها فولدت له داود ورحبعم. فأما داود فمات في حياة سليمان وبقي رحبعم بعد سليمان.

وأعاد سليمان بلقيس إلى ملكها، فنزلت مأرب فكان يأتيها كل شهر مرة فيقيم عندها سبعاً ثم يَسير في الأرض[١].

وفي تفسير البغوي: وروي عن وهب: أن بلقيس لما أسلمت قال لها سليمان: اختاري رجلاً من قومك أزوجكه قالت: ومثلي يا نبي الله ينكح الرجال؟ وقد كان لي في قومي من الملك والسلطان ما كان؟ قال: نعم إنه لا يكون في الإسلام إلا ذلك، ولا ينبغي أن تحرِّمي ما أحلّ الله لك. فقالت: إن كان لا بد من ذلك فذو تُبّع ملك همذان. فزوجها منه، ثم ردها إلى اليمن، وسلط زوجها ذا تبع على اليمن (أي ملّكه) ودعا زوبعة أمير الجن باليمن، وقال: اعمل لذي تبّع ما استعملك فيه، فلم يزل بها ملكاً يعمل له فيها ما أراد حتى مات سليمان. فلما أن حال الحول وتبينت الجن موت سليمان، أقبل رجل منهم فسلك تهامة، حتى إذا كان في جوف اليمن صرخ بأعلى صوته: يا معشر الجن إن الملك سليمان قد مات، فارفعوا أيديكم فرفعوا أيديهم وتفرقوا. وانقضى ملك ذي تبّع وملك بلقيس مع ملك سليمان[٢].

وفي كتاب الطبري[٣] أن الشياطين عمدت إلى حجرين عظيمين فكتبوا فيهما كتاباً بالمسند: نحن بنينا سلحين، سبعة وسبعين، خريفاً دائبين، وبنينا صرواح ومراح وبينون برحاضة أيدين (أي بغسل اليدين) وهندة وهنيدة، وسبعة أمجلة بقاعة وتلثوم بريدة، ولولا صارخ بتهامة لتركنا بالبون إمارة.

وسلحين وصرواح ومراح وبينون وهندة وهنيدة وتلثوم حصون كانت باليمن عملتها الشياطين لذي تُبّع ثم رفعوا أيديهم ثم انطلقوا.

---

(١) التيجان ص١٧٢.

(٢) تفسير البغوي لسورة النمل.

(٣) الطبري ج١/٤٩٥.

ويقال بأن بلقيس ولدت لذي تبع: أسنع يمتنع، وأنوف ذا همذان الأكبر، وشمس الصغرى أم تُبّع الأقرن وهو ذو القرنين. ومن ولدها الثوريون وهم ولد ثور وهو ناعط بن سفيان بن أسنع، ومنهم المرانيون باليمن من ولد عمرو بن ناعط.

وفي الإكليل(١) أن سليمان عليه السلام لما حَتَّم على بلقيس الزواج قالت: إن كان لا بد (فذا تبع) فزوجه بها وصرفها إلى اليمن، وأمر زوبعة ملك الجن أن يبني لهما ويخدمهما بأهل طاعته. فبنى لهما القصور والمحافد(٢) في اليمن. إلى أن هتف الهاتف بموت سليمان فرفعت الجن أيديها.

قال الشاعر:

هل لأناس مثل آثارهم ... بمأرب ذات البناء اليفع

أو مثل صرواح وما دونها ... مما بنت بلقيسُ أو ذو تبع

يريد مما بنت بلقيس وذو تبع والألف زائدة كقوله عز وجل: إلى مئة ألف أو يزيدون والمعنى ويزيدون.

وفي (روح المعاني) قصة غريبة يقول فيها: وأخرج البيهقي في الزهد عن الأوزاعي قال: كسر برج من أبراج تدمر فأصابوا فيه امرأة حسناء دعجاء مُدمجة(٣) كأن أعطافها طي الطوامير، عليها عمامة طولها ثمانون ذراعاً مكتوب على طرف العمامة بالذهب (بسم الله الرحمٰن الرحيم أنا بلقيس ملكة سبأ زوجة سليمان بن داود عليهما السلام، ملكت من الدنيا كافرة ومؤمنة ما لم يملكه أحد قبلي ولا يملكه أحد بعدي، صار مصيري إلى الموت فاقصروا يا طالبي الدنيا) والله أعلم بصحة الخبر. فكأن الإخباريين يريدون

---

(١) الإكليل ص٤٣.

(٢) المحافد: مفرده مِحْفد: شيء تعلف فيه الإبل كالمكتل. لسان/حفد.

(٣) مُدْمَجَة: من دَمَج.الحبل إذا أجاد فتله. وامرأة مدمجة الخَلْقِ: كالحبل المدمج المحكم. لسان/دمج، والطوامير: جمع مفرده طامور وهو الصحيفة. لسان/ طمر.

أن تكون بلقيس عبرة في حياتها وبعد مماتها. فسبحان من لا يعزب عن علمه مثقال ذرة في السماوات والأرض.

وجاء في معجم النساء اليمنيات: ركب سليمان الرياح إلى الحجاز واليمن وآمن اليمنيون بدعوته إلى الله. ودخل مدينة سبأ فاستقبلته بلقيس بحاشية كبيرة وتزوجها فأقامت معه تسع سنين وأشهر فتوفيت فدفنها بتدمر. وانكشف تابوتها في عهد الوليد بن عبدالملك وعليه كتابة تدل على أنها ماتت لإحدى وعشرين خلت من ملك سليمان. ورفع غطاء التابوت فإذا هي غضة ولم يتغير جسمها فرفع ذلك إلى الوليد فأمر بترك التابوت في مكانه وأن يبنى عليه بالصخر[1].

موضوع الألغاز والأحاجي:

ولا بد لاستكمال البحث عن شخصية بلقيس والإحاطة بها من جوانبها المختلفة من سرد عدد من الألغاز التي طرحتها على النبي سليمان لاستخلاص القصد من ذكرها، والسبب من تداولها جيلاً بعد جيل، والعلة فيما أضيف للروايات الأصلية من روايات أخرى.

الأحجية الأولى التي وجدناها:

بئر خشبية دلو معدني يملأ أحجاراً يسقي ماءً

الجواب: (أنبوب الكحل).

ويلاحظ أن هذه الأحجية مرتبطة بعالم النساء.

الأحجية الثانية:

عفر من الأرض ومأكله عفر من الأرض ينبع كالمياه يضيء البيوت

(وفي رواية يبيض البيوت).

الجواب: (النفط).

---

(١) معجم النساء اليمنيات.

الأحجية الثالثة:

كالعاصفة يندفع على الرأس ـ ويصيح صيحة عالية ومريرة ـ رأسه مثل البوص ـ مجد للأحرار ـ عار للمساكين ـ عز للأموات ـ وخزي للأحياء ـ بهجة للطيور ـ وكرب للسمك.

الجواب: (الكتان) والمقصود شراع القارب فهو مصنوع من كتان ويتحرك بدوره في العاصفة، وعندما تضربه الرياح يصدر صوتاً. يرتدي الأثرياء ملابس الحرير بينما لباس الفقراء من الأسمال والكفن مصنوع من الكتان. تتغذى الطيور ببذور الكتان، ويتم صيد السمك بشباك من الكتان.

الأحجية الرابعة:

سبع تنتهي وتسع تبدأ. اثنان يسقيان والشارب واحد

الجواب: السبع أيام طمث المرأة وتسعة أشهر حملها. ثديان يسقيان والرضيع واحد يشرب. وهذه الأحجية أيضاً مرتبطة بعالم المرأة.

الأحجية الخامسة:

التمييز بين الجهة التي تنبت الجذور وتلك التي أنبتت الأوراق من جذع شجرة منشورة.

قام سليمان بوضع الجذع في حمام ماء حيث غطس طرف في الماء بينما بقي جزء آخر طافياً. والقسم الذي غطس هو الذي ينبت الجذور والقسم الطافي هو الذي ينبت الأوراق[١].

هذا غيض من فيض من أحاجي بلقيس لسليمان وألغازها. ويلاحظ أنها ألغاز دينية توراتية يهودية أو أنها مما يخص المرأة وزينتها وبيتها. كل ذلك للتقليل من شأن بلقيس.

وإذا كان بعض البحّاثة قد استخدموا بلقيس على أنها دليل على عظمة سليمان عليه السلام، متعصبين لذكورتهم فإننا جئنا بسليمان دليلاً على عظمة بلقيس موضوع كلامنا، وأنه شاهد على سعة علمها وبعد نظرها، وشمول

---

(١) عن كتاب بلقيس امرأة الألغاز ص١٨٩ وما بعدها.

تفكيرها؛ فهي التي تلقي الألغاز على سليمان وهي عارفة بالإجابات، وسليمان النبي يستعين بالإنس والجن والشياطين ليرد عليها.

وننهي الكلام في موضوع الأحاجي والألغاز بما جاء في كتاب (بلقيس امرأة الألغاز)[1]:

(إن الرواة بعد أن قاموا بتجريد بلقيس - الرمز والمثال - من مكانتها الخاصة ووضعها الاستثنائي الذي كانت عليه، حيث كانت ممثلة للمجتمع الذي سادته المرأة، أو على الأقل المجتمع الذي تساوت فيه مع الرجل، قاموا بالتقدم خطوة جديدة لتكييفها مع وضعها الجديد وفق رؤيتهم الذكورية. ونقصد بذلك أنهم أدخلوها إلى البيت المنزلي وحطوا من قدرتها ومنزلتها حيث سجنوا حكمتها ضمن جدران أربع، إذ إن معارفها وامتحاناتها لسليمان لم تكن لتتعدى الأدوات المنزلية أو زينة المرأة. فتمثل هذه الأحاجي تتويجاً لسيطرة الرجل الذكر على المرأة الأنثى. حيث لم يجد سليمان أية صعوبة في الرد على الألغاز معلناً بذلك انتهاء مجتمع بلقيس وتحويلها من الملكة والمثال والرمز إلى خبيرة في شؤون التدبير المنزلي).

وفي الكتاب ص٢١:

(من ذلك معنى ومغزى تلك الأحاجي والألغاز التي طرحتها بلقيس. لقد نقل الإخباريون العرب وغيرهم بعض هذه الألغاز ولكنهم لم يفصحوا عن الخلفية، فهل المقصود بالقول إنها طرحت ألغازاً لإظهار حكمة سليمان فقط؟

أم أن الألغاز تحمل في ثناياها مغزى أكبر وأبعد؟

هل كان هدف إدخال الألغاز في موضوع بلقيس نقل رسالة معينة بأسلوب غير مباشر؟).

أسئلة كثيرة تُطرح في موضوع ملكتنا والإجابات تنبع من معين واحد لتصب في بحيرة واحدة تقول: إن الإقلال من شأن هذه المرأة يخدم تعصباً ذكورياً استمر مدى القرون ويصعب الآن تبديله أو تغييره.

---

(١) المصدر السابق ص١٩١.

بلقيس في شعر الشعراء

كانت بلقيس رمزاً للملكة العظيمة والمرأة الحكيمة، ذات العز الراسخ والرأي الصائب، والنظر البعيد والبصيرة النافذة. إنها امرأة قد آتاها الله من المال والجمال ما لم يؤته لامرأة أخرى غيرها في التاريخ. وآتاها من الحكمة ما لم يؤته للرجال والنساء على السواء. فكان لا بد للشعراء في عصرها أن يمتدحوا فعالها، ولا بد لهم بعد موتها أن يذكروها ويرثوا فعالها، وأن يجعلوها رمزاً للحكمة واجتماع الروح مع الجسد كما فعل الصوفية. كما ألهمت شعراء الأمم الأخرى كالفارسية فذكرها شعراؤهم رمزاً للحكمة والعقل.

قال فيها أسعد تبع:

ولـدتـنـي مـن الـمـلـوك مـلـوك ... كـلُّ قـيْـلٍ مُـتَـوَّجٍ صِـنْـديـدِ[1]
ونـسـاءٌ مـتـوّجـاتٌ كـبـلـقـيـسَ ... وشـمـسٍ ومـن لـمـيـسَ جـدودي[2]
مـلـكـتـهـم بـلـقـيسُ تسعين عـامـاً ... بـأولـي قـوة وبـأسٍ شـديـدِ
عـرشُـهـا شـرجَـعٌ ثـمـانـون بـاعـاً ... كـلّـلـتـه بـجـوهـر وفـريـدِ[3]

(١) صنديد: الصنديد: الملك الشهم الشريف.

(٢) شمس ولميس لم أعثر لهما على ترجمة في الكتب التي وصلتني. وفي كتاب رحلة إلى اليمن: عشرين عاماً.

(٣) الشرجع: السرير. الفريد: الشذر الذي يفصل بين اللؤلؤ والذهب. لسان/فرد.

وبـدرٌ قـد قـيّـدتـه ويـاقـو — تِ وبـالـتـبـرِ أيّـمـا تـقـيـيـدِ[1]
فـلـو أن الـخـلـود كـان لـحـيٍّ — بـاحـتـيـالٍ أو قـوةٍ أو عـديـدِ
أو بـمـلـكٍ لـمـا هـلـكـنـا وكـنـا — من جـمـيـعِ الأقـوام أهـلَ الـخـلـودِ
ولـهـا جـنـتـان تـسـقـيـهـمـا عـيـنـا — ن فـارا بـسَـدهـا الـمَـسـدودِ
لا تـبـالـي ألا تـرى الـغـيـث فـيـهـا — جـاءهـا الـسـيـل مـن مـكـان بـعـيـدِ

وقال:

ولـقـد بـنـت لـي عـمـتـي فـي مـأربٍ — عـرشـاً عـلـى كـرسـيّ مـلـك مُـتْـلَـدِ[2]
عـمـرت بـه تـسـعـيـن عـامـاً دَوَّخـت — أرضَ الـعـراق إلـى مـفـازة صَـيْـهَـدِ[3]
يـغـدو عـلـيـهـا ألـفُ ألـفٍ كـلُّـهـم — عـقـبٌ لـهـا يـتـعـاقـبـون مـن الـغـدِ

وقال أمية بن أبي الصلت:

قد كـان ذو الـقـرنـيـن قـبـلـي مـسـلـمـاً — ملـكـاً عـلا فـي الأرض غـيـر مـعـبَّـدِ[4]
بـلـغ الـمـشـارقَ والـمـغـاربَ يـبـتـغـي — أسـبـابَ مـلـكٍ مـن كـريـم سَـيّـدِ
فـرأى مـغـيـبَ الـشـمـسِ وقـت غـروبـهـا — فـي عـيـن ذي خُـمـى وثـأطٍ حـرمـدِ[5]
مـن قـبـلـهِ بـلـقـيـسُ كـانـت عـمـتـي — حـتـى تـقـضّـى مـلـكُـهـا بـالـهـدهُـدِ[6]

وقد كتب ابن عربي[7] قصيدة بعنوان (من بلاد الروم) قال فيها:

---

(١) التبر: الذهب.
(٢) متلد: المال القديم. لسان/تلد.
(٣) صيهد: الصيهد الفلاة لا يُنال ماؤها. لسان/صيهد وفي معجم ما استعجم: كيدد.
(٤) ذكر في القرآن الكريم. ويقال إنه الإسكندر المقدوني.
(٥) الثأط: والثأطة: الطين والحمأة ـ والحرمد: الطين الأسود، شديد السواد. لسان/حرمد.
(٦) لم يكن الهدهد سبب ذهاب ملك بلقيس.
(٧) ابن عربي: ٥٦٠ ـ ٦٣٨ فيلسوف من المتكلمين في كل علم. زار الشام وبلاد الروم=

ما رحلوا يوم بانوا البزّلَ العيسا إلا وقد حملوا فيها الطواويسا[1]
من كل فاتكةِ الألحاظِ مالكةٍ تخالها فوق عرش الدرّ بلقيسا
إذا تمشت على صرح الزجاج ترى شمساً على فلك في حجر إدريسا
تحيي إذا قتلت باللحظ منطقها كأنها عندما تحيي به عيسى
أسقفّةٌ من بناتِ الروم عاطلةٌ ترى عليها من الأنوارِ ناموسا[2]
وحشيةٌ ما بها أنس قد اتخذت في بيت خلوتها للذكر ناووسا[3]
قد أعجزتْ كلَّ علاّمٍ بأمّتِنا واوُديّاً وحبراً ثم قسيسا[4]
إن أومأتْ تطلب الإنجيلَ تحسبها أقسّةً أو بطاريقاً شماميسا[5]
ناديتُ إذ رحلتْ للبين ناقتُها يا حاديَ العيسِ لا تحدو بها العيسا
عَبّيْتُ أجيادَ صبري يوم بينهم على الطريقِ كراديساً كراديسا
سألتُ إذ بلغتْ منها تراقيَها ذاكَ الجمالَ وذاكَ اللطفَ تنفيسا
فأسلمت ووقانا الله شرّتها وزحزح الملك المنصور إبليسا

وقد علق الدكتور زكي نجيب محمود[6]:

(إن المعنى الرمزي لبلقيس في ديوان (ترجمان الأشواق):

هو الحكمة الإلهية التي تجمع بين العلم والعمل. وفيها رمز أسطوري يشير إلى ولادة بلقيس من لقاء بين الجن والإنس؛ ففيها من الجن علمه

= والعراق والحجاز وأنكر عليه أهل الديار المصرية شطحات صدرت فعمل بعضهم على إراقة دمه. ثم استقر في دمشق فتوفي بها. له نحو أربعمئة كتاب ورسالة منها الفتوحات المكية عشرة مجلدات الأعلام ج٦/٢٨٣.

(١) البُزّل: جمع مفرده بازل. تقال للبعير إذا استكمل سنه الثامنة. لسان/بزل.

(٢) الناموس: وعاء العلم، والناموس: جبريل.

(٣) الناووس: مقابر النصارى.

(٤) واوديا: لم أجد للكلمة معنى.

(٥) الشماميس: الشماس من رؤوس النصارى.

(٦) بلقيس امرأة الألغاز ص٩٥.

اللطيف، ومن الإنسان عمله الكثيف أي أنها رمز لاجتماع الروح والجسد في الإنسان).

وقال النعمان بن الأسود بن المقرف بن عمرو بن يعفر الحميري وهو من بيت الملك وأبناء الملوك يرثي بلقيس بنت الهدهاد بن شرحبيل:

أخرج الموتُ من ذرى قصر بينو … نَ هُماماً على الحماديرِ[1]
حمير الخير قد رأيتك عصراً … ذا بهاء من قبل تقضي الأمورُ[2]
فأراني إذا ذكرت هماماً … ملكاً قد تضمنتْه القبورُ
يا لقومي لقد أراهم وللدهـ … ـر صروفٌ تمضي بهم فتبيرُ[3]
ناعماً بالنا قد أوطأت ذلاً … في شروقِ البلادِ والخيل زورُ[4]
وغروبُ البلادِ ترجفُ منها … وعلى ملكِها السحابُ المطيرُ
فهم اليوم حشوةٌ في قبورٍ … وأرى ما بقي إليهم يصيرُ
صاح إن كان ملكُ حميرَ أودى … جارَ فيه الزمان فيما يجورُ
أوحش العرشُ من ذوي أهل عزٍ … ورمى للزمانِ كفٌّ هصورُ[5]
إن بلقيس قد أذل لها المـ … ـلكَ سليمانُ واصطفاها قديرُ
إذ رسول له إلينا عجيب … بكتابٍ وما أتانا غرورُ
قد أتانا بذاك في الطرسِ سطراً … فاهتديْنا وكلُّ ذلك نورُ[6]
ذاك وحيٌ من الإلهِ بيانٌ … فاضَ بالحقِ إذ أتانا البشيرُ
هدهدٌ من طيورِ أرضِ شآم … فرُمي في الهوا على العرش نورُ

(١) الحمادير: لم أجد لها تفسيراً في المعاجم. ربما كانت لقباً للملوك.
(٢) أي من قبل أن تقضى الأمور.
(٣) تبير: تهلك.
(٤) الخيل الزور: الخيل المائلة بصدرها. وهذا يستحب في الفرس.
(٥) كف هصور: أصل الهصر الكسر. وهصر الغصن: إذا أخذه برأسه وأماله باليد. لسان/هصر.
(٦) الطرس: الصحيفة. والطرس: الكتاب الذي محي ثم كتب. لسان/طرس.

باقتضاء الهدى إلى ملك بلقيـ ... س بغمدان إذ أتاها النذيرُ
إذ أتى آصف فاختلس العر ... ش سريعاً وما لديه مجيرُ
لم تحسّ الأحراسُ نبأته حيـ ... ن تولّى كأنه مسحورُ
أبصرتْ في الكتاب بلقيسُ عجباً ... فأتى منظرٌ مهيبٌ كبيرُ
أرسلت في ملوك حمير أني ... قد أتاني الغداة أمرٌ منيرُ
فأشيروا فقد رضيتُ بما قلـ ... تم فإن الملوك ممن يشيرُ
فنطيبُ الصحاح منا لما جا ... ء ومرُّ العبادِ أمرٌ نكيرُ
قام أهل النهى وقالوا بخير ... إنَّ منك السدادُ والتبشيرُ[1]
نحن أهلُ الرشادِ والملكِ والـ ... عزِ لنا البأسُ والردى محذورُ
قالت الآن فاتقوا الذُّلَّ منه ... كل ما قلت عنده معذورُ
إن أسنى ما لديَّ من الرأ ... ي وفي ذاك للجوابِ ظهورُ
لاطّلاعِ الأنباءِ من خبر القو ... مِ وحكمٌ من دونه مستورُ
أرسلتْ بين عاتقٍ وغلامٍ ... مائةً شُبهت عليها الحريرُ[2]
وعِتاقاً من الخيولِ نهادى ... وعليها من الملا تعبيرُ
وصنوفُ الفصوصِ حمراً وصفراً ... وعلى ذاك لؤلؤ منثورُ
ولجين بحق عاج ودرٍ ... مطبقاً ما يُرى لديه فطورُ[3]
وأتى بالبيانِ والعلمِ وحياً ... وهداه به العليمُ الخبيرُ[4]
كان ما كان بينهم من أمورٍ ... وإلى ربها تردُّ الأمورُ
وأتى الوفد بالجواب على الحيـ ... ن وكل بشأنه مأمورُ
ثم ولوا بذاك من ذا وهذا ... ك ويادوا وملكهم مشهورُ

---

(١) المفروض: إن منك السدادَ والتبشيرَ. وتلك ضرورة من أجل القافية.

(٢) العاتق: الجارية التي أدركت وبلغت. والعاتق الشابة. والبكر التي لم تبن عن أهلها. لسان/عتق.

(٣) الفطور: مفردها فطْر وهو الشق. واللجين: الفضة.

(٤) العليم الخبير: كنايةً عن رب العباد بالطبع.

استعاروا من مالكِ المُلْكِ ملكاً　　وإلى الله ما أعار يحورُ[1]
أسلموا ملكهم ولم يسلموا من　　غيرِ فالردى عليهم يدورُ
كل عمر وإن تطاول دهراً　　بعده الموت ذاك عمر قصيرُ[2]

ولاستكمال البحث عن بلقيس بنت الهدهاد أرى أن أسرد شيئاً من القصيدة الحميرية التي كتبها نشوان الحميري وذكر فيها ملوك حمير من أولهم حتى نهايتهم وهي طويلة عدد أبياتها ١٣٧ بيتاً. ولكنني أنتقي منها عدداً من الأبيات ولا سيما التي تتعلق ببلقيس وذلك عن كتاب التيجان[3]:

الأمرُ جدٌّ ليس فيه مزاح　　فاعمل لنفسك صالحاً يا صاحِ
كيف البقاء مع اختلاف طبائعٍ　　وكرورِ لَيْلٍ دائم وصباحِ
الدهر أنصحُ واعظٍ يعظُ الفتى　　ويزيدُ فوق نصيحةِ النصّاحِ
انظر بعينيك اليقينَ ولا تسلْ　　يا أيها السكرانُ وهو الصاحي
تجري بنا الدنيا على خطرٍ كما　　تجري عليه سفينةُ الملاح
تجري بنا في لجٍّ بحرٍ ما لهُ　　من ساحلٍ أبداً ولا ضحضاحِ[4]
شغل البريّة عن عبادةِ ربّهم　　فتنٌ على دنياهم وتلاحي
ومحبة الدنيا التي سلكتْ بهم　　أبداً مع الأرواحِ والأشباحِ
كل البريّةِ شاربٌ كأسَ الردى　　من حتفِ أنفٍ أو دم سفّاحِ
لا تبتئس للحادثاتِ ولا تكن　　بمسرّةٍ في الدهرِ بالمفراحِ
أفأين هودٌ ذو التقى ووصيُّهُ　　قحطانُ زرعُ نبوّةٍ وصلاحِ

---

(١) يحور: يرجع عن الشيء وإليه والحَوْر: النقصان بعد الزيادة.
(٢) كتاب التيجان ص١٨٣ ـ ١٨٥.
(٣) كتاب التيجان ص٢٦٨ ـ ٢٧٣ والأعلام ج٨/٣٠.
(٤) الضحضاح: الماء القليل يكون في الغدير وغيره.

أم أيـن يـعـربُ وهـو أول مـعـربٍ	في الناس أبدى النطقَ بالإفصاح
أم أيـن يـشـجـبُ خـانـه مـن دهـرِهِ	شـجـبٌ دحـاه لـه بـقـدرٍ داحـي[1]
وسبا ابنُ يشجبَ وهو أول من سبا	في الغزوِ قدْماً كل ذاتِ وشاحِ[2]
أو حـمـيـرٌ وأخـوه كـهـلان الـذي	أودى بـحـادثِ دهـره الـمُـجـتـاحِ
وملوكُ حميرَ ألفُ ملكٍ أصبحوا	في التربِ رهنُ ضرائحٍ وصفاحِ
آثارهـم فـي الأرض تـخـبرنـا بـهـم	والكتبُ من سيرٍ تُقصُّ صحاحِ
أنـسـابـهـم فـيـهـا تـنـيرُ وذكـرُهـم	في الطيبِ مثلُ العنبرِ النضّاحِ

إلى أن يقول:

والـعـبـد ذو الأذعـار إذ ذَعَـر الـورى	بـوجـوه قـوم فـي الـسـبـاءِ قـبـاحِ[3]
قـوم مـن الـنـسـنـاسِ مـذكـورون فـي	أقـصـى الـشـمـالِ شـمـالِ كـلِّ ريـاحِ

ثم يقول:

وكـذلـك الـهـدهـاد أيـضـاً عـامـرٌ	هُدّتْ قواعدُ ملكِهِ المنصاحِ[4]
أم أين بـلـقـيسُ الـمـعـظـمُ عرشُـهـا	أو صرحُها العالي على الأصراحِ[5]
زارت سـلـيـمـانَ الـنـبـيَّ بـتـدمـرٍ	مـن مـاربٍ ديـنـاً بـلا اسـتـنـكـاحِ
في ألفِ ألفِ مدجَّجٍ من قـومِـهـا	لـم تـأت فـي إبـل إلـيـه طـلاحِ[6]
جـاءت لـتُـسْـلـمَ حـيـنَ جـاءَ كـتـابُـه	بـدعـائـهـا مـع هـدهـدٍ صـدّاحِ
سجدتْ لخالِقِها العظيمِ وأسلمتْ	طـوعـاً وكـان سـجـودُهـا لـبـراحِ[7]

(١) دحا الأرض يدحوها: بسطها. لسان/دحو.
(٢) ذات الوشاح: كناية عن المرأة.
(٣) ذَعَر الورى: أخاف الناس.
(٤) المنصاح: أي المنشق المتناثر.
(٥) الصرح: بيت واحد يبنى منفرداً طويلاً.
(٦) طلاح: أي تعبة ومجهدة من السفر.
(٧) براح: اسم للشمس سميت بذلك لانتشارها وبيانها.

وينهي الشاعر قصيدته بالأبيات التالية:

أذواء حمير قد ثوت وملوكها ... في التربِ ملك ضرائحٍ وصفاحِ[1]
أضحَوْا تراباً يوطؤون كمثل ما ... وُطئت هوامدُ تربةٍ وبطاحِ[2]
ذلّت لهم دنياهُمُ ثم انثنت ... ترميهم بالحافِرِ الرّمّاحِ[3]
مطرتْ عليهم بعد سحبِ سعودهم ... سحبُ النحوسِ بوابلٍ سحّاحِ[4]
ما هابهم ريبُ المنونِ ولا احتموا ... عنه بأسيافٍ ولا أرماحِ
كلا ولا بعساكرٍ ودساكرٍ ... وجحافلٍ ومعاقلٍ وسلاحِ
سكنوا الثرى بعد القصورِ ولهوِهم ... بمطاعمٍ ومشاربٍ ونكاحِ
أضحت مدعثرةً قصورُهم التي ... بنيت بأعمدة من الصفاحِ[5]
والدهر يمزج بؤسه بنعيمِهِ ... ويري بنيه الغم في الأفراحِ

وقد ألهمت قصة بلقيس عدداً من شعراء الصوفية فجعلوها موضوعاً لكتاباتهم، فهذا جلال الدين الرومي[6] في مؤلفه (المثنوي والمعنوي) يقول عن بلقيس شعراً:

مئة رحمة على بلقيس. تلك التي وهبها الله عقل مئة رجل.

---

(١) ضرائح: الضريح الشق في وسط القبر.
(٢) بطاح: الحصى اللين في بطن المسيل.
(٣) الرّمّاح: الذي يضرب برجله.
(٤) سَحّاح: الماء الذي يمر على وجه الأرض.
(٥) مدعثرة: مهدّمة موطوءة. لسان/دعثر.
(٦) جلال الدين الرومي: ٦٠٤ ـ ٦٧٢هـ عالم بالفقه والخلاف وأنواع العلوم، متصوف، ترك الدنيا. صاحب كتاب المثنوي المشهور بالفارسية. ولد في بلخ بفارس وانتقل مع أبيه إلى بغداد في الرابعة من عمره فترعرع بها ثم قام أبوه برحلة واسعة فمكث في بعض البلدان مدداً طويلة ثم استقر في قونية سنة ٦٢٣هـ. عرف جلال الدين بالبراعة في القصة وغيره من العلوم الإسلامية فتولى التدريس في قونية في أربع مدارس. تصوف آخر حياته ونظم كتاب (المثنوي) بالفارسية. وقد ترجم إلى التركية والعربية وهو منظومة صوفية في ستة أجزاء كتب مقدمتها بالعربية. عن الأعلام ج٧/٣٠.

لقد حمل الهدهد إليها كتباً عليها خاتم سليمان، وبه بضعُ كلماتٍ ذاتِ بيان.

فقرأت تلك النكات ذات الشمول ولم تنظر باحتقار إلى الرسول.

لقد رأت عينها هدهداً، أما روحها فقد أبصرته عنقاء، ورأت حسها مثل الزبد وأما قلبها فرآه مثل البحر...

إلى أن يقول:

ولقد وصف الله عين الحس بأنها عشواء، ونعتها بأنها عابدة للصنم عدو لنا.

ذلك لأنها أبصرت الزبد ولم تبصر البحر، وكذلك لأنها شهدت الحال ولم تشهد الغد.

إن سيد الغد والحال أمامها، لكنها لا ترى من الكنز مثقال شعيرتين.

والقصيدة طويلة نكتفي بما ذكر منها.

وتذكر مصادر أخرى شعراً آخر لجلال الدين الرومي عن بلقيس حيث تقول الأبيات ٥٧٤ ـ ٥٧٦ على لسانها بأنها نبذت العطايا التي قُدمت لها، وبأن الهدية الحقيقية ليست الذهب وإنما التوجه للخالق؛ لذا فإن جلال الدين الرومي يرى أن الهدية التي قدمتها بلقيس إلى سليمان لم تكن ذهباً وإنما قلبها الصافي أي التعبد للإله الواحد. ويضيف القول بأنه طالبها بالتخلي عن ملكها لأن من يسجد للّه الواحد سيكسب مئة مملكة في السماء. ويشير شاعر الصوفية إلى بلقيس مرة أخرى بقوله: إن التعبد للخالق هو أحلى من مئتي مملكة. ويقول مرة أخرى لبلقيس على لسان سليمان: إنه سيكون بإمكانها الاحتفاظ بملكها في حالة كسبه لنفسها، وهي إشارة روحية واضحة تماماً فتخليها عن الملك في نظر جلال الدين الرومي، ليس هدفاً أرضياً بل هو هدف روحي؛ فإن نبذ الملك والتزهد أقربُ الطرق إلى الخالق. ويناجي بلقيس في مقطع آخر، ويدعوها إلى رؤية مملكتها الجديدة قرب الخالق. وبهذا نرى أن بلقيس (الإنسان) لم تحظَ باهتمام جلال الدين

الرومي حيث إنها مثلت بالنسبة له المرء الذي تخلى عن الماديات الأرضية وسما بروحه إلى الخالق(١).

أما شاعر الغزل الإيراني حافظ فقد نظم أبياتاً غزلية ببلقيس يقول فيها(٢):

هذه السمراءُ بحلاوةِ العالمِ كلّه
شامتُها السمراء
وعيناها الساحرتان
وشفتاها الضاحكتان
وقلبُها المرح
ورغم أنهم كلّهم كانوا ملوكاً
وكان ذلك بتمامِ الوضوح
فإنها كانت في زمانها سليمانَ في اكتماله
هي ذاتُ المحيا البهي
كمالُ الخلق في عصمتِها
هي بكل كمالِها وصفائها في هذا العالم والعالمِ الآخر
ولكن الشامة السوداء
على الجلد الأسمر
هي سرُّ الأسرار
القدُّ أفقد آدم فؤادَه

(١) بلقيس امرأة الألغاز ص٩٤ ـ ٩٩.

(٢) المصدر السابق ص٩٩.

يا رفاقي إن حبيبتي تودُّ الرحيل

يا إلهي.

ماذا أفعل بقلبي المجروح

وهي باسمه

سأتكلم مع من أقول

إن الحبيبة هي قاتلتي

وإنها

أخذت الهواء الذي يحييني.

هذا وقد ذكرت أبيات متفرقة تتكلم عن بلقيس تارة، وعن المدن التي شهدت مملكة سبأ أو حمير تارة أخرى.

فالصرواح مثلاً الحصن الذي أمر سليمان عليه السلام الجن فبنوه لبلقيس يقول فيه عمرو بن زيد الغالي من خولان:

تَشَتَّوْا على صرواح سبعين حجة ومأرب صافوا ربعها وتربعوا[1]

كما ذكر معجم البلدان بينون التي هي من بناء سليمان. قال عنها ذو جدن الحميري:

لا تهلكن جزعاً في إثر من ماتا فإنه لا يرد الدهر ما فاتا
أبعد بينونَ لا عينٌ ولا أثرٌ وبعد سلحينَ يبني الناسُ أبياتا

ويقول الشاعر:

فما نعمت بلقيس في ملك مأرب كما نعمت بالروع أم جميل

---

(١) معجم البلدان: صرواح: حصن باليمن أمر سليمان النبي الجنّ فبنوه لبلقيس وهو في الصحاح معرف بالألف واللام أي الصرواح. لسان/صرح.

وقال علقمة بن ذي جدن:

هـل لأنـس مـثـل آثـارهـم بـأيْـرَمَ ذات الـبـنـاء الـيـفـع
أو مـثـل صـرواح ومـا دونـهـا فـمـا بـنـت بـلـقـيـس أو ذو تـبـع

ويقول الهمداني توفي سنة ٩٤٥م:

بـلادُ مـلـكٍ ضـلَّ مـن يـقـيـسُ أرضاً بـصـنـعـاءَ لـهـا تـأسـيـسُ
مـا لـم يـعـدّ الـحـرمُ الأنـيـسُ أرضٌ بـهـا غـمـدانُ والـقـلّـيـسُ
بـنـاهـمـا ذو الـنـجـدةِ الـرئـيـسُ تـبَّـعُ مَـلِـكٌ وبـنـتُ بـلـقـيـسُ(١)
فـهـو الـبـنـاءُ الأقـدم الـقـدمـوسُ بـقـولِ صـدقٍ مـا بـه تـلـبـيـسُ
إن صـرحـت شـعـواءُ دردبـيـس والـعـز فـيـهـا والـنـدى والـكـيـس(٢)

وقال تُبّع:

عـمـتي الـخيرُ حـين يـذكـر بـلـقـيـسُ ومن نالَ مطلعَ الشمسِ خالي

قال عمرو بن النعمان أخو سعد بن سعد خولان:

لبلقيس كان الملك في أرض مأرب ووراثـة أجـداد كـرام الـمـعـاطـس
لقد أوتيت من كل شيء واعطيت من الملك ما لم يعط عمرو بن خالس(٣)

وقال شاعر آخر:

ومـأرب قـد نـطـقـت بـالـرخـام وفـي سـقـفـهـا الـذهـب الأحـمـر

ويقول شاعر يدعى الطمحان:

---

(١) بلقيس امرأة الألغاز ص٥٠.

(٢) الدردبيس: الداهية. لسان/دربس. والكيسُ: الخفة والتوقد. وهو خلاف الحمق. والكيّس: العاقل. لسان/كيس والأصل الكيْس. ولكن صارت الكيس لضرورة الشعر.

(٣) عن كتاب رحلة في بلاد العرب السعيدة.

أما ترى مأرباً ما كان أحصنه   وما حواليه من سور وبنيان[1]

وقال علقمة عن قصر سلحين الذي يسمونه قصر بلقيس:

وقصر سلحين قد عفاه   ريب الزمان الذي يريب
تعوي الثعاليب في قراها   ما في مساكينها غريب

وقال علقمة أيضاً عن قصر سلحين:

أوما ترين وكل شيء للبلا   سلحين خاوية كأن لم تعمر

❋ ❋ ❋

(١) بلقيس ملكة اليمن ص٣٣.

دروس وعبر

من خلال ما قدمنا في الصفحات السابقة يبدو لنا من الدروس والعبر الكثير مما يمكن أن نذكر شيئاً منه فيما يلي:

١ ـ الأخذ بنظام الشورى:

إن استبداد الحكام بآرائهم وعدم استشارة أولي الأمر والخبرة والعلم، قد يؤدي إلى إصدار أحكام فردية، تضر بمصالح الأمة وتهوي بها إلى مهاوي الخزي والفناء. وليس التاريخ ببعيد ففيه من الأمثلة القديمة والحديثة ما يغني عن كل مصدر آخر. وكثيراً ما كان استبداد الحاكم برأيه مصدراً من مصادر خراب الأمة ونهايتها.

وقد أثبتت تجارب الأمم أن الشورى نظام ثبتت صلاحيته لخير الأمم ودوامها واستمرار بقائها؛ لأن رأي الجماعة أرجح وأصوب من رأي الفرد، وآراء متباينة تري الخير والشر، والسهل والصعب، أفضل بكثير من رأي واحد لا يكون فيه الخير دائماً بل أكثر ما يكون فيه الشر والشر فقط. فعقول مجتمعة وخبرات متنوعة ووجهات نظر مختلفة، أفضل بكثير من رأي واحد، وأنفع بكثير من عقل واحد. والشورى مبدأ اتخذه الإسلام من مبادىء الحكم الإسلامي؛ ففي القرآن الكريم يخاطب الله عز وجل رسوله محمداً قائلاً له: ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي ٱلْأَمْرِ﴾ يأمره وهو النبي الذي لا يخطىء كما يخطىء بقية الناس قائلاً: ﴿وَشَاوِرْهُمْ﴾ ولم يقل له: انفرد برأيك فإنك نبي. كما أثنى سبحانه وتعالى على الذين جعلوا الشورى قاعدة لهم في

حياتهم فقال: ﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ﴾ إن كل أمرهم شورى: في بيتهم، في مجتمعهم، في عملهم، في حكمهم. إنه شورى ليس للفردية والتسلط والاستبداد، أي ذكر لتسيير دفة حياتهم. والقرآن الكريم إذ يقص علينا قصة ملكة سبأ، إنما يقدم لنا درساً في الأخذ بنظام الشورى وذلك لما تلقت تهديد سليمان بالزحف على مملكتها. فكيف كان موقفها؟ هل انفردت باتخاذ القرار مع أن أحداً لا يخالفها؛ ثقة برأيها الصائب وفكرها الواسع؟ هل فعلت ما تشاء وكما يشاء لها عقلها ثم طلبت من الملوك تنفيذه وهم لا يخالفون لها أمراً؟ فحكومتها إذن حكومة شورية.

لقد جمعت أشراف قومها ـ وهم كثر ـ وقالت لهم: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ أَفْتُونِى فِىٓ أَمْرِى مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّىٰ تَشْهَدُونِ﴾ أي تحضرون إلي. وعبرت عن المشورة بالفتوى.

وهذا القول يرتكز على مبدأ الشورى الذي أخذت به دساتير العالم المتمدن وأطلقت عليه أسماء مختلفة كمجلس النواب ومجلس الشيوخ، ومجلس الشعب، ومجلس الأمة وغير ذلك. فالشورى دعامة من دعامات الحكم الصالح تجلب الخير للأمة وتجنبها الأضرار، التي يمكن أن تصدر عن أهواء القادة ومطامعهم وغاياتهم الشخصية.

٢ ـ تفكيرها بعواقب الأمور:

شعرت بلقيس عندما استشارت قومها أنهم يميلون إلى الحرب؛ وهم أولو قوة وعدد كبير، وعلمت من حماسهم أنهم لا بد فاعلون. فوضعت الأمور أمام ناظريها وفكرت في عواقب الحرب إن هي حصلت. واستشفت نتائج لا حصر لها. فقالت: إن الملوك إذا دخلوا قرية أفسدوا عمارتها وأتلفوا ما فيها من زروع وغلال، وأهانوا أهلها فقلبوا موازين الحياة فجعلوا أعزة أهلها أذلة. وبذلك استبعدت شبح الحرب عن أذهانهم، ولا سيما أن القتل والدمار نتائج مؤكدة لكل حرب انتصر المحارب أم لم ينتصر. فما العمل إذن؟

إن احترام الرعية لها فوّض إليها زمام الأمور لعلمهم أنها عاقلة حكيمة.

٣ ـ ثقة شعبها بها:

الشعب واثق ومتأكد من إخلاص ملكته، وأنها لا تستبد بالأمر دونهم فأبدوا لها استعدادهم لكل الحلول وعلى رأسها القوة، فهي التي وثق شعبها بها وبإخلاصها، وعدم استبدادها بالأمر دونهم، فقابلها هذا الشعب إخلاصاً بإخلاص، وحباً بحب، ثم فوّض الأمر إليها لوثوقه من وفائها وقوة إدراكها، وسداد رأيها. فلما سمعت تفويض الأمر لها لم تشأ أن تطرح بذلك الشعب المخلص، في مهاويَ لا تدري مغبّتها؛ لذلك قالت لهم مع علمها بمفاسد الاستعمار الأجنبي، واستعباد الملوك الأقوياء المنتصرين للضعفاء بعد الحروب. لذلك عمدت إلى الحكمة والتأني وإتيان الأمور من أبواب السياسة الحكيمة. فأوضحت الرأي السديد بقولها ﴿وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِم بِهَدِيَّةٍ ...﴾.

٤ ـ ذكاؤها في اختبار سليمان وجوهره:

لقد فتن الناس قبل بدء الخليقة بالمال، وقال رب العالمين الذي خلق النفوس وطبائعها: ﴿وَتَأْكُلُونَ ٱلتُّرَاثَ أَكْلًا لَّمًّا ﴿١٩﴾ وَتُحِبُّونَ ٱلْمَالَ حُبًّا جَمًّا ﴿٢٠﴾﴾[١] ولذا فإنه سبحانه يختبر البشر بالمال يمنعه عن عباده فيرى هل يصبرون، ويمنحه لعباده فيرى كيف يبطرون ويتجبرون ويتكبرون. إن إغراء المال لا يقاوَم. لذلك كانت فطنة بلقيس وذكاؤها قد عرضا عليها حلاً في اختبار سليمان: هل هو نبي حقاً؟ فإن كان نبياً فإنه يزهد في كل مال يُهدى إليه مهما يكن مغرياً، وإن كان ملكاً فإن المال يغريه فيرمي بكل القيم جانباً. لذلك أرسلت إليه بهدايا مغرية ومثيرة وانتظرت لترى: هل ستكون الهدية مدعاة لسكوته والإغضاء عن دعوته،

---

(١) سورة الفجر، الآيتان: ١٩ ـ ٢٠.

وعن الغزو الذي هدّدها به؟ أم سيرد الهدية متمسكاً بمبادئه الدينية، مترفعاً عن إغراءات الدنيا من جاه ومال، ومناصب عليا، عالماً أنها رشوة تقدمها بلقيس إليه. لكن سليمان أنكر عليها هديتها وقال لوفدها: ﴿بَلْ أَنتُم بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ﴾ فاقتنعت بنبوته وتصرفت بالتصرف المناسب.

٥ ـ دقتها في الإجابة:

قلنا إن عرش بلقيس أصبح لدى سليمان، حسب المعجزة التي خصه الله بها، إذ نقله إليه بأقل من لمح البصر. ولما نكّروه لها بأن غيّروا هيئته أو قلبوه رأساً على عقب (كما تقول بعض الروايات) سئلت: هل هذا عرشك؟

إنه عرشها ولكن كيف يصل من قصرها إلى هنا؟ ولكنه ليس عرشها ذاته فقد تغيرت فيه أشياء كثيرة. وقفت حائرة برهة ثم أجابت بكلمتين اثنتين ﴿كَأَنَّهُ هُوَ﴾ كلمتان دقيقتان في اللفظ والمعنى: ليستا سلباً ولا إيجاباً. فهي لم تقل نعم ولم تقل لا بل قالت: ﴿كَأَنَّهُ هُوَ﴾ وهذا يدل على دقتها في إجابتها.

٦ ـ إيمان بلقيس:

مر معنا أن بلقيس سألت عن عبادة القدماء قائلة: ما كان يعبد آبائي الماضون؟ قالوا: كانوا يعبدون إله السماء. قالت: وأين هو؟ قالوا: هو في السماء وعلمه في الأرض. قالت: فكيف أعبده وأنا لا أراه؟ ولست أعرف شيئاً غير نور الشمس فهي أولى ما ينبغي لنا عبادته.

معنى هذا أنها لم تكن مقتنعة تمام الاقتناع بعبادة الشمس، فعندما أخبرها القلمس أفعى نجران بأخبار سليمان دخل الإيمان قلبها، ولكن من بابه الضيق. فكتمت إيمانها.

وعندما عاد الرسل إليها بالأنباء، توسع باب الإيمان في قلبها. ولكنها حين قابلت سليمان أصبح الإيمان في قلبها حقيقة واقعة، ولم يبق إلا أن

تعلن إسلامها فقالت في الوقت المناسب: ﴿رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾.

وهكذا فإنها لما تحققت من أن سليمان نبي مرسل ومصلح عظيم لم تأخذها العزة بالإثم، ولا صرعتها سكرة الملك، ولم تكابر ضد الحق ولم تعانده. فالحق أحق أن يتبع والواجب الخضوع له. فاستسلمت وقالت: ﴿رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾.

مواقف بلقيس كثيرة ولها في كل موقف عبرة بل عبر، فكل حركة من حركاتها وكل قول من أقوالها، يدعونا للتفكير بأن بلقيس لم تكن امرأة عادية طموحة فحسب، بل هي فوق كل ذلك، إنها مثل أعلى يحتذى.

❋ ❋ ❋

خاتمة الكلام عن بلقيس

وبعد...

فهذه بلقيس التي دخلت التراث العربي والإسلامي تحت اسم ملكة سبأ، وأثارت اهتمام وخيال الأمم والشعوب قديمها وحديثها، منذ الديانات القديمة حتى الحضارات الحديثة في أوربا وأمريكا. وأضحت مثالاً للمرأة الحكيمة والجميلة وذات السلطان. وإذا أضيف إليها شيء من مخيلة الشعوب وأدخلوا في التراث جانباً غريباً عن أصولها الشيطانية، وأن أمها كانت من الجن فإن هذا الموقف تبرير للوقوف موقفاً سلبياً من كل امرأة؛ فبلقيس ملكة سبأ ليست من البشر وهي من الجن ولذلك نبغت وعزت فبرزت وليس باستطاعة أية امرأة أن تكون كذلك.

والحكم الأول والأخير في قصة هذه المرأة المعجزة هو القرآن الكريم وتحديداً في سورة النمل فهو، أي القرآن الكريم، الأصدق قولاً والحاكم الفصل الذي لا يرد حكمه. لقد ذكر القرآن الكريم بلقيس على أنها امرأة كانت تتعبد الشمس ولم يقل عنها إنها كانت من الجن، في حين ذكر إبليس قائلاً: ﴿فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبۡلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلۡجِنِّ فَفَسَقَ عَنۡ أَمۡرِ رَبِّهِۦٓۗ﴾ [الكهف: ٥٠] وأنها كانت تحكم بلاداً ثرية مفرطة في الغنى قوية منيعة، وقد عرفنا من مجريات حياتها أنها كانت تحكم عن مقدرة وعقل، وأنها لم تقم بالخوارق كما كان يفعل الجن، وكما أراد لها بعض الإخباريين. وغايتهم تجريدها من صفات المرأة الأنثى، المرأة الإنسانة كي لا تكون امرأة رائدة

لغيرها ولا تكون قدوة لأية امرأة طموحة، فتنافس غيرها من البشر وفي ذلك خطر عليهم. كما أن الروايات التي تُذكر، إنما نقلت عن أحاديث شفوية لعب فيها الخيال الأسطوري والشعبي دوراً كبيراً، وأضيف إليها من المواقف الخيالية ما لا يصدق. هذه الروايات كانت منتشرة قبل البعثة النبوية ثم استمرت في خيال الرواة وزيد عليها الكثير. وهكذا أصبحت بلقيس مزيجاً من الأسطورة والخرافة إلى جانب القصة والحقائق التاريخية.

وقد تبين من خلال التعرف على قصة بلقيس لدى الإخباريين اليهود والنصارى وغيرهم، أن تلك القصص استخدمت لتكون منطلقاً للموقف السلبي الذي اتخذوه من المرأة وليُعذروا في وضعها في الصفوف الخلفية.

ورغم كل المحاولات من جانب الإخباريين والمؤوّلين، فإن بلقيس قد تمكنت من تسنم المركز اللائق بها؛ فهي مثال للمرأة الحكيمة الجميلة ذات السلطان. فأصبح موقف الإخباريين والمؤوّلين في الصفوف الخلفية. بل وأضحت في التراث الصوفي مثالاً للحكمة.

وأختم الحديث عن بلقيس بمقطعين أورِدهما من كتاب (بلقيس امرأة الألغاز) جاء في الكتاب ص١٩٦ و١٩٧:

(وبغض النظر عن موقع بلقيس الإيجابي في الوعي الشعبي العام، لا تزال المرأة العربية المسلمة منتقصة الحقوق وتابعة حتى في القوانين والأعراف لسيادة الذكورية وأهوائها. ورغم اعتقادنا أن جزءاً من أرضية القوانين والأعراف المعادية للمرأة، والسائدة الآن تعود إلى تأويلات معينة، وصيغت بشكل مستقل عن روايات بلقيس، إلا أنها شكلت قاعدة أساسية، ومنطلقاً للتأويلات التي تنتقص من إنسانية المرأة العربية المسلمة، وتحد من حقوقها وتمنعها من ممارسة دورها الكامل بشكل متساوٍ في الحقوق مع الرجل. ولن نقع في وهم الاعتقاد بأن تصحيح الصورة عن بلقيس سيغير من هذا الوضع. فتغيير الموقف من المرأة العربية المسلمة يستدعي قلب أو تثوير المجتمع نفسه؛ فالمجتمعات لا تتغير بقوانين وإنما ـ على العكس ـ ونعني أن التشريعات الاجتماعية تسن لتناسب درجة معينة من الوعي

الاجتماعي. أي أنها تأتي تتويجاً لمسائل يمارسها البشر بالفعل).

ويقول المقطع الثاني:

(إن الانتقاص من دور المرأة كبشر متساوٍ مع الرجل، من ناحية الحقوق والقوانين والأعراف، لم يكن بأي من الأحوال أحد العناصر التي ساعدت العرب المسلمين، في تحقيق تلك الانتصارات الهائلة على العالم القديم، ودفع البشرية نحو التقدم الحضاري. على العكس من ذلك؛ إننا نجزم بأن تحصيل المرأة العربية المسلمة لحقوق متساوية مع الرجل، ونيلها لدورها الاجتماعي والاقتصادي والفكري بشكل كامل، غير منتقص هو أحد العناصر المهمة التي ستساعدنا على الخروج من دائرة الهزائم والإحباطات والإذلال، التي نتنشقها صبحاً وعشية والتي تسهِّل من إبقاء المجتمعات العربية أسيرة ضمن زنازين أفكار الطغاة، وتجعلها تقبل صاغرة ما يُملى عليها من أحكام).

❁ ❁ ❁

أسماء الصُّلَيْحِيّة

... هـ - ٤٦٧ هـ

قال الشاعر:

رسمتْ في السماحِ سنَّةَ جودٍ | لم تدعْ من معالِمِ البُخْلِ رَسْما
قلتُ إذ عَظَّموا لبلقيسَ عرشاً | دستُ أسما من ذُرا النجمِ أسمى

بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم

بعد مرور قرون وقرون على بلقيس ملكة سبأ، بل ما يقارب ألفي سنة، سطعت في اليمن شمس ملكتين عظيمتين هما أسماء وأروى الصليحيتان.

ومن يتتبع سيرة حياتهما يدرك أنهما أرادتا إثبات ما للمرأة من قدرة، إذا أتيحت لها الفرصة. وأنها تحكم كما يحكم الرجال في السياسة والاقتصاد والحروب، بل إنها تفوقهم في كثير من الأمور، وأن بلقيس ملكة سبأ امرأة عادية لا علاقة لها بالجن بدليل أن من النساء من حكمن في عصرهن كحكم بلقيس في عصرها، وأن لديهن من المقومات ما يؤهلهن لملء مركزهن، وإفادة شعبهن والحدب عليه، والتخطيط لرفاهيته وتنفيذ ما خططن له، ومحاربة أعدائه بكل حزم، فهن قدوة للنساء في كل عصر وكل مصر.

نعم ظهرت في اليمن ملكتان هما أسماء وأروى. في اليمن الذي كان سعيداً أيام بلقيس ثم أصبح بلداً فقيراً مغلقاً، فارقه الغنى وهربت منه السعادة فصار شجره شائكاً، وثمره مراً، وطبيعته قاسية جرداء يكدح فيها المرء كدحاً ليؤمن حياته ورزق يومه، ويسعى جاهداً يلهث وراء لقمة العيش.

وليس حكم اليمن بالأمر السهل، وليس تأمين عيش الشعوب بالأمر الميسر لجميع الحكام ولا سيما إذا كان البلد فقيراً، شعبه صعب القياد،

مزقته الحروب الداخلية والانقسامات العقائدية. ومع ذلك فقد استطاعت أسماء الصليحية من وراء زوجها أن تحكم اليمن روحياً ومادياً، كما استطاعت أروى أن تحكمه من وراء زوجها حيناً وبمفردها حيناً آخر، أن تحكم شعباً من أشد الشعوب قسوة وأصعبها قياداً. وهي لم تحكم شهوراً كما حصل لشجرة الدر ولا لبضع سنوات كما حصل لملكة حلب ضيفة خاتون لكنها حكمت اليمن أكثر من أربعين سنة بمفردها ثم ماتت، فحزن عليها الشعب حزناً شديداً حتى أنهم يسمون كل مشروع خيري أو عمراني باسمها. مدرسة أروى ـ مسجد أروى ـ كلية أروى... حتى هذا اليوم.

وما أروى إلا امتداد لأسماء وما أسماء إلا أصل لأروى. وكلتاهما حكمت اليمن مجتمعاً أحياناً، أو حكمت منه مناطق شاسعة أحياناً أخرى. كما شيدت من العمران ما يخلد ذكرها، في حين كان الرجال والنساء في الغرب غارقين في بحر التخلف والجهل.

كانت الملكتان أسماء وأروى تسيران في المدينة سافرتي الوجه، وكان الشعب كله يحترمهما؛ فهما سابقتان لهذا العصر حيث تحكم بعض الدول من قبل النساء، امتداداً من أنديرا غاندي، وبناظير بوتو، وحسينة واجد وخالدة ضياء وطانصو تشيلر وكثيرات غيرهن. وإذ أبدأ بأسماء فلأنها سابقة لأروى زمنياً. غير أن حياتها لا تتوضح حتى نسلط الضوء على الحياة السياسية في اليمن قبل الصليحيين ثم على الصليحيين أنفسهم فهم أهلها وعشيرتها، وعلى العلاقة بين المذهب الإسماعيلي والدعوة الصليحية.

الحالة السياسية لليمن قبل الصليحيين:

كانت اليمن تابعة للدولة العباسية وكان الولاة يتعاقبون عليها من قبلهم، واتخذوا صنعاء حاضرة لهم. لكن الأمور لم تكن مستقرة؛ لأن السلاطين والأمراء اليمنيين كانوا يتنافسون لتولي الحكم من قبل خلفاء بني العباس. كما كانت الأمور غير مستقرة بسبب الثورات في الحجاز واليمن وظهور القرامطة ونشاط الفاطميين في نشر دعوتهم.

ومنذ بداية القرن الخامس الهجري أصبحت اليمن ممزقة بين قوى مختلفة فانقسمت إلى ولايات أو دويلات يحكم كلاً منها أمير، وتنازع الأمراء فيما بينهم. كل يحاول توسيع رقعة ولايته على حساب جيرانه، وزاد الأمر سوءاً في بلاد اليمن سقوط دولة بني زياد في زبيد سنة ٤٠٢هـ واستيلاء مواليهم الأحباش على بلادهم في زبيد والتهايم وتأسيس الدولة النجاحية على أنقاض ملك سادتهم الزياديين. وكان طبيعياً أن يعارض اليمانية العربُ حكم الأحباش العبيد فانتزع الزعماء اليمانية، ما استطاعوا من أراضي الدولة النجاحية وبذلك ازداد الانقسام، وتبع التدهور السياسي انهيار اقتصادي[١] كبير. وفي الربع الأول من القرن الخامس الهجري انحدرت اليمن بخُطا واسعة نحو التدهور والتفكك، وذلك بسبب استيلاء الموالي (الأحباش) واستبدادهم بالحكم، والعرب يكرهونهم بشدة فتحفزوا لمجابهتهم ودفعتهم الحمية إلى عدم الخضوع للعبيد. فتقطعت أوصال البلاد وتغلب الأمراء على جميع الجهات؛ كل أمير استقل بإمارته. وفي سنة ٤٠٥هـ وحتى عام ٤٤٨هـ عمّ الخراب مدن اليمن لكثرة ما حصل فيها من فوضى ومطاحنات، وعدم توحيد الكلمة، وأظلم اليمن وكثر دماره وخرابه وفسدت أحواله. وكانت صنعاء وما جاورها كالخرقة الحمراء تتخطفها الحدأة. لها في كل سنة أو شهر سلطان يتغلب عليها ويسيطر على زمام أمورها. حتى ضعفت وتلاشى أهلها، وتفرقوا في كل ناحية وقرية وضعف مركزها. فبعد أن كان بها مئة ألف دار في عهد الرشيد، أصبح عدد دورها ألفاً فقط وذلك بسبب ضعف أهلها وانتقالهم إلى كل ناحية وتوالي الخراب وقلة العمارة، وفي ذلك دلالة على ما كانت تقاسيه من تمزق وتدهور[٢].

وسبب الخلافات أن المذاهب الثلاثة، الإسماعيلي والزيدي والسني: كل يعمل على ترسيخ دعوته بالإضافة إلى مذهب الخوارج (الإباضية) ثم محاولة تقويض دعوة الآخرين. فكان ذلك سبباً في انتشار الفوضى وانعدام

---

(١) اليمن في ظل الإسلام ص١٤٥.

(٢) هذه هي اليمن ص٢٧٥.

الاستقرار وتفتت البلاد إلى أجزاء متناحرة ففقدت الوحدة السياسية[1]. فاستقر كل أمير بالمكان الذي يحكمه.

وقد كان الصراع الحقيقي بين بني نجاح (وهم من الأحباش الموالي) وبين الصليحيين حتى صارت الحرب بينهما حرباً تقليدية. والنتيجة التي يمكن أن نستخلصها هي أن الأحوال في اليمن، كانت مواتية جداً لظهور شخصية قوية تجمع شمل هذا التفكك والانحلال تحت لواء واحد، وتربط هذه الجماعات والقبائل والدويلات المتنافرة المتباغضة، برباط متين يعيش في دولة واحدة موحدة قوية. وكانت هذه الشخصية شخصية علي بن محمد الصليحي الذي يعتنق المذهب الشيعي الإسماعيلي.

أصل الصليحيين[2]:

ينتمي الصليحيون إلى بني عبد أوام - وهي من أهم القبائل التي جاء ذكرها في النقوش السبئية - بن حجور بن أسلم بن عليان بن زيد بن عريب بن جشم الأوسط بن حاشد بن جشم الأكبر وينتهي النسب إلى يعرب بن قحطان. ويلتقي الهمدانيون والصليحيون عند جشم الأوسط.

وكان أول رؤساء هذه الدولة ومؤسسها علي بن محمد الصليحي وآخر رئيس لها سبأ بن محمد الصليحي. وفي الإسهاب بالكلام عن علي بن محمد الصليحي غرض هام هو الوصول إلى الكلام عن زوجته أسماء فإنها معه جنباً إلى جنب ويداً إلى يد.

علي بن محمد الصليحي:

في أثناء التفكك السياسي الذي حل في اليمن، والتعدد المذهبي الذي جعله فئات مختلفة، وفي الربع الثاني من القرن الخامس الهجري ظهرت شخصية علي بن محمد الصليحي الذي كان شيعياً إسماعيلياً. فأعلن عن

---

(١) الأيوبيون في اليمن ص١٥.

(٢) في بعض المراجع بنو الأصلوح.

قيام دولة جديدة في اليمن تسمى الدولة الصليحية، كما أعلن عن ولائه الاسمي للخلافة الفاطمية في مصر. وقد لعبت هذه الشخصية دوراً بارزاً في تاريخ اليمن السياسي خلال تلك الفترة؛ حيث يرجع إليها الفضل الأكبر في قيام الدولة الصليحية وفي توحيد اليمن.

أبوه محمد الصليحي القاضي الشافعي المذهب الذي يدين له بالولاء أربعون ألفاً من أهل حراز. وقد قويت العلاقة بين الداعي الإسماعيلي سليمان بن عبدالله الزواحي وبين القاضي محمد الصليحي (والد علي بن محمد الصليحي) على الرغم من اختلاف المذهب بين الرجلين، وكان سليمان الزواحي يحرص على صداقة القاضي لعلمه وورعه وتقواه ومكانته في قومه. وقد لمس الزواحي في الابن علي بن محمد الصليحي علائم الذكاء والنجابة منذ نعومة أظفاره فلقنه مبادىء الدعوة الإسماعيلية واستماله إلى مذهبه، وبلغ من ثقته بعلي بن محمد الصليحي وتقديره له أنه أيقن أن هذا الشاب، هو خير من يخلفه في رئاسة الدعوة الإسماعيلية في بلاد اليمن. فاستأذن الخليفة المستنصر (الخليفة الفاطمي في مصر) في أن يجعل علياً خليفة له. ولما شعر الزواحي بدنو أجله لقنه أسرار الدعوة الإسماعيلية وعلومها وأوصى له بكتبه وأعطاه مالاً كثيراً كان قد جمعه من أهل مذهبه. وأثبتت الأيام فطنة الشيخ الزواحي فيما ذهب إليه؛ إذ عكف الصليحي على دراسة المذهب الإسماعيلي وأصوله وعلومه ولا سيما علم التأويل والظاهر والباطن[1].

ومن الطبيعي أن يبدأ ميل الصليحي للدعوة الإسماعيلية دون علم أبيه الذي كان سنياً شافعي المذهب وقاضي حراز. ولا شك أن هذه الفترة كانت في المرحلة الأولى لعلي الصليحي أي مرحلة صباه وشبابه[2].

وفي هذه المرحلة ظل الصليحي يدرس مذهب الإسماعيلية حتى صار فقيهاً في مذهب الإمامية مستبصراً في علم التأويل. كما كان يعمل من

(١) اليمن في ظل الإسلام ص١٤٦.

(٢) دراسات يمنية ص٢٢٤ و٢٢٥.

باكورة شبابه دليلاً للحجيج على طريق السراة والطائف مدة خمسة عشر عاماً، لا يحج بالناس غيره. وتقلبت به الأحوال في بادىء عمره من خفض إلى رفع ومن ضر إلى نفع. ومهما يكن من أمر فقد استطاع الصليحي من عمله دليلاً للحجيج، أن يدعو إلى مذهبه سراً فبقي دليلاً للناس على طريق السراة[1] والطائف خمس عشرة سنة.

أما الدور السلمي:

في هذا الدور بدأ علي الصليحي إظهار الدعوة الإسماعيلية بطريقة اختطها لنفسه؛ فقد بايعه ستون رجلاً من أهل حراز[2] وذلك في موسم الحج. ففي عمله كدليل للحجاج اتصل بالجماهير اليمنية من مختلف البلاد فتمكن من بث الدعوة واجتذاب الكثيرين إليها. والذين بايعوه كانوا رؤساء جماعتهم وفي منعة من قومهم ولهم أعداد كثيرة في عشائرهم؛ بحيث أنهم يملكون الشجاعة الكافية لإظهار الدعوة الإسماعيلية مع الصليحي.

وفي كتاب الصليحيون والحركة الفاطمية ص٦٤ وص٦٥ أن علياً هذا كان شاباً أشقر اللحية أزرق العينين وليس في اليمن كلها من يماثله في ذلك. نشأ نشأة طيبة في بيئة عربية حرة، لها تقاليدها في الأخلاق الفاضلة وعلوم الإسلام وفنون العربية. ونعرف فيما روي عن نشأته وأحواله في شبابه أنه لوحظ عليه مخايل النجابة ودلائل الفضائل وطموح النفس.

عندما عاد الصليحي مع الجماعة التي بايعته إلى اليمن، بدأ يفكر في إيجاد مراكز محصنة له. فطلع جبل مسار سنة ٤٢٩هـ وهي طلوعه للمرة الأولى وذلك بغرض تحصينه. ولما علمت القوى السياسية اليمنية المجاورة له، بطلوعه وأصحابه حصن مسار استنكروا عمله هذا واتجهوا إليه بجموعهم مسرعين، فأحاطت به أعداد كثيرة منهم تقدر بحوالي عشرين ألف

---

(١) السراة: جبل، أعظم جبال العرب أقبل من قعرة بلاد اليمن حتى بلغ أطراف بوادي الشام. معجم البلدان ج١١٢/٣.

(٢) حراز: بالفتح وتخفيف الراء مخلاف باليمن بالقرب من زبيد سمي باسم بطن من حمير وهو حراز وبها تعمل الأطباق الحرازية. معجم البلدان ج٢٣٤/٢.

ضارب سيف. فحاصروه وقبّحوا عمله وشتموه. ولم يحاول الصليحي مقاومة هذه القوى بل قال لهم: (إني لم أفعل ما فعلت إلا خوفاً عليكم أن يهلك هذا الجبل علينا وعليكم، فإن تركتموني أحرسه وإلا نزلت إليكم) فانصرفوا عنه وتركوه يبني الحصن فبقي في الحصن. وبالإضافة لذلك كان دليلاً للحجاج على طريق السراة والطائف عدة سنين لا يحج بالناس غيره.

ويبدو أن طلوعه حصن مسار سنة ٤٢٩هـ كان بعد موت أبيه القاضي محمد الصليحي وبعد موت الداعي سليمان الزواحي وفي ذلك الوقت تسلم علي الصليحي رئاسة الدعوة الإسماعيلية في اليمن. وذلك في أواخر عهد الخليفة الفاطمي الحاكم بأمر الله[١].

الدور الحربي:

حين شعر الصليحي أنه قادر على مقاومة القوى الأخرى تحوّل من دور المسالمة إلى دور استخدام القوة. وكان صراعه مع الزعامات القبلية أولاً وصراعه مع الأشراف الزيدية ثانياً وصراعه للاستيلاء على صنعاء ثالثاً.

وفي النصف من جمادى الأولى عام ٤٢٩هـ طلع من حصن مسار[٢] ومعه تسعمئة وخمسون رجلاً معلنين الدعوة الإسماعيلية ومحاربة القوى المعارضة لهم. فوصلت إليه الشيعة من أنحاء اليمن بأموال جليلة معلنين إظهار الدعوة للمستنصر الفاطمي[٣].

---

(١) من سنة ٣٠٠ ـ ٤١١هـ: متأله غريب الأطوار. ولد في القاهرة وسلم عليه بالخلافة وعمره إحدى عشرة سنة. خطب له على منابر مصر وإفريقية والشام والحجاز. أعلنت الدعوة إلى تأليهه سنة٤٠٧هـ. مات في ظروف غامضة ويقال إن أخته ست الملك دسّت له من يقتله سنة ٤١١ عن الأعلام ج٧/٣٠٥.

(٢) حصن مسار: أعلى جبل وأمنع جبل في اليمن. ويقع الحصن على جبل شاهق.

(٣) المستنصر الفاطمي ٤٢٠ ـ ٤٨٧: بويع بعد موت أبيه الحاكم بأمر الله وعمره سبع سنين. تغلبت أمه على الدولة فكانت تصطنع الوزراء وتوليهم ومن استوحشت منه أوعزت بقتله. وقد خطب باسمه في بغداد لمدة سنة. في أواخر أيامه حجر عليه بدر الجمالي. وحدث في زمنه غلاء شديد ودام الجوع سبع سنين. الأعلام ج٧/٢٨٨.

وفي هذا الدور بدأ الصراع بين الصليحي والقوى اليمنية الأخرى التي بدأت تتجمع في تكتلات، متعددة لمقاومته ولا سيما في المناطق المجاورة له.

وبعد أن أعلن ولاءه للخلافة الفاطمية، بعث بالهدايا للمستنصر بينما بعث له المستنصر برايات وألقاب.

لم ينكر الصليحي على أحد مذهباً من مذاهب فرق الإسلام على تشعبها، بل أقر كل امرىء على ما كان عليه. وكان يرفع أهل العلم وذوي المبادىء من أهل مذهبه وغيرهم. وكانت له سيرة عادلة وأخلاق فاضلة رواها الخاص والعام.

قلنا إن الصليحي كان يستند إلى دولة الفاطميين، بينما كان منافسوه بنو نجاح يستندون إلى الخلافة العباسية، التي كانت في ذلك الوقت مفككة ضعيفة مهيضة الجناح. وقد حقق الصليحي كثيراً من الانتصارات ثم حاول التوسع في السيطرة على الحصون المجاورة له فتم له ذلك. ونتيجة لهذه الانتصارات ارتاع أهل اليمن وشعرت القوى المختلفة في اليمن بخطورته، فاجتمعوا وحاربوه في وادي (صوف) حيث نزل عليهم بهجوم كاسح تمكن من إلحاق الهزيمة بهم وقتل منهم ما يقدر بألف رجل، مع عدد من الرؤساء والسلاطين، وغنم ما كان معهم من الخيل والسلاح والعُدَد. بهذه المعركة معركة (صوف) استطاع أن يتغلب على رؤساء القبائل في اليمن الأعلى حتى صار يضرب المثل بهذه الموقعة فيقال: (قتلة صوف) فطار ذكره في أنحاء اليمن.

وبدأ صراعه مع الأشراف الزيدية، فانتصر عليهم وأخذ أميرهم أسيراً وحمله إلى حصن مسار، فأقام معه مدة ثم أطلق سراحه بعد أن تعهد له بعدم الخروج عليه.

وترجع انتصارات علي الصليحي على تجمعات القبائل اليمنية، إلى عدم الوفاق السياسي فيما بينهم. ثم رأى الناس من عدله وفضله وحسن سيرته ما ألّف بين قلوبهم وجعل أهل النجدة والنخوة يقبلون طاعته.

وتعددت المرات التي دخل فيها الصليحي صنعاء ثم عاد إلى مسار لكنه في ذي القعدة سنة ٤٤٧هـ دخل صنعاء وأقام بها. ولم يعد هناك من ينافسه عليها فمكث فيها حتى سنة ٤٥٠هـ وجعلها عاصمة ملكه ومقراً لحكمه.

وقد خاض الصليحي عدداً من المعارك لتوحيد اليمن وكان يأخذ حكام اليمن إلى صنعاء ويسكنهم فيها كرهائن، واستمر كذلك حتى عام ٤٥٩هـ.

ومن أهم مراحل تأسيس الدولة الصليحية مرحلة القضاء على آل نجاح؛ فقد اتجه الصليحي نحو زبيد ودخلها وضرب عملة بها هي الدينار ثم اصطلح مع نجاح وترك زبيد متجهاً إلى مسار. ويبدو أن هذا الصلح تم نتيجة اتجاه الصليحي ونجاح إلى المسالمة، ولعدم استقرار حكم الصليحي في تلك الفترة.

ولم يزل الصليحي يعمل الحيلة على نجاح حتى قتله بالسم على يد جارية جميلة أهداها إليه. وكانت وفاة نجاح بالكدراء عام ٤٥٢هـ ولكن هذا القتل لم يكن حداً فاصلاً بين الطرفين بل كان بداية لعهد نزاع طويل بين الصليحيين والنجاحيين.

ثم فتح الصليحي الحصون والتهائم ولم تنته سنة خمس وخمسين وأربعمئة حتى لم يبق في اليمن سهل ولا وعر ولا بر ولا بحر إلا فتحه. وذلك أمر عظيم لم يُعهد مثله في جاهلية ولا إسلام. يقال بأنه قال يوماً وهو يخطب في جامع الجَنَد: (في مثل هذا اليوم نخطب على منبر عدنٍ إن شاء الله) ولم يكن ملكها بعد. فقال بعض من حضر مستهزئاً: (سبّوح، قدّوس) فأمر الصليحي بالحوطة عليه. وخطب الصليحي في مثل ذلك اليوم على منبر عدن. فقد نفذ بذلك ما خطط له من ضم عدن إلى دولته.

ومنذ عام خمس وخمسين وأربعمئة حين استقر قرار الصليحي بصنعاء أخذ معه ملوك اليمن الذين أزال ملكهم، فأسكنهم معه وولى في الحصون غيرهم واختط بصنعاء عدة قصور. وهكذا امتد نفوذه من مكة إلى حضرموت. ورأت البلاد بعد قرون طويلة وحدة البلاد في ظل حاكم قوي

عادل. وقد عبّر عن ذلك عمارة في تاريخه بقوله: وذلك أمر لم يعهد مثله في جاهلية ولا إسلام.

شخصية علي الصليحي:

تميز علي الصليحي بصفات تؤهله لتولي السلطة السياسية؛ إذ يوصف بصفات حسنة كالذكاء والتواضع والشجاعة والشهامة وغيرها. كما اتصف بالأعمال الطيبة كالعفو والتسامح. وقد قيل عنه: (وكان علي بن محمد الصليحي من أعيان اليمن وساداتها، وأذكياء الملوك ودهاتها وكان شاعراً فصيحاً بليغاً) وقيل أيضاً: (كان الصليحي شهماً شجاعاً مقداماً) وهذه الصفات الحسنة هي التي جعلته يحقق الكثير من الانتصارات ويحقق توحيد اليمن. كان لا يحقد على أحد من أعدائه ومحاربيه بل يحترمهم ويقدرهم. كذلك عامل الأشراف الزيدية، الذين أشهروا سيوفهم ضده بمعاملة طيبة حتى أنه عفا عنهم جميعاً وأطلق سراحهم.

كما أنه لم يتعصب لمذهبه الإسماعيلي فقد عامل أهل المذاهب الأخرى بالتسامح الديني فترك لهم حريتهم المذهبية في ممارسة شعائرهم الدينية وفقاً لمذاهبهم[(١)].

وكان الصليحي ممن يتذوقون الشعر فصيحاً بليغاً، وقد روي عنه بعض الأبيات قالها في مناسبات كثيرة. فقد عرف أن الشعر هو السلاح الماضي الذي يكون في يد الدولة وأن الشعر من وسائل الدعاية لها. فقد كان الشعر في زمانه يعادل وزارة الإعلام كلها في العصر الحاضر، فأراد أن يشهر هذا السلاح في وجه خصومه ويستخدمه في الدفاع عن دولته والمباهاة بفضائلها والإشادة بذكرها. فلا عجب أن يجزل العطاء للشعراء كما كان يفعل الخلفاء العباسيون والفاطميون. ومن أشهر الشعراء الذين كانوا في

---

(١) دراسات يمنية. مجلة فصلية عن مركز الدراسات والبحوث اليمني العدد ٥١ و٥٢ يوليو ١٩٩٣م ص٢٢٠ وتاريخ اليمن لعمارة ص٣٤ و٣٥.

عهده: عمرو بن يحيى الهيثمي، والحسين بن علي القمي، والحسن بن أبي عقامه. ومما قرضه الصليحي شعراً قوله:

أنكحتُ بيضَ الهندِ سُمْر رِماحِهِمْ فرؤوسُهم عوضُ النثار نثارُ[1]
وكذا العُلا لا يُسْتباح نكاحُها إلا بحيثُ تطلِّقُ الأَغْمَارُ

وقال في وراخ الحصن المشهور:

ما اعتذاري وقد ملكتُ وَراخاً عن قراعِ العِدا وقوْدِ الرِعالِ[2]

وأنشد على لسان حاله:

وألذ من قرع المثاني عنده في الحرب ألجم يا غلام وأسْرِجِ[3]
خيل بأقصى حضرموت مجالها وصهيلها بين العراق ومنبجِ[4]

جعل الصليحي صنعاء عاصمة مملكته وبنى فيها القصور، وأسكن معه جميع ملوك وأمراء اليمن تحت علم واحد. ورأت اليمن بعد قرون طويلة وحدة البلاد في ظل حاكم قوي عادل، يقوم حكمه على الحرية والعدالة والحق. فقد أخذ يوطد دعائم ملكه على هذه الأسس ويرسي قواعده وينظم سياسة البلاد وإدارتها، ويولي في المناطق والحصون من يرتضيه ويثق به من الولاة والحكام والقواد. فولى على تهامة الأمير أسعد بن شهاب الصليحي أخا زوجته السيدة الحرة أسماء بنت شهاب. وكان الصليحي قد أقسم ألا يولي التهائم إلا من يزن له مئة ألف دينار (كضمان كما يبدو) ثم ندم على هذا القسم حين أراد أن يولي عليها أسعد بن شهاب أخا أسماء. وهنا جاءت أسماء فوزنت لزوجها المبلغ المطلوب عن أخيها بعد أن أخذته من

(١) النثار: ما تناثر من الشيء. ونثر بمعنى نشر. لسان/نثر.
(٢) الرعال: القطيع من الخيل مفرده رعلة. لسان/رعل.
(٣) المثاني: مثاني الدابة ركبتاها ومرفقاها. لسان/ثني.
(٤) الصليحيون والحركة الفاطمية ص١٢ وانظر تاريخ اليمن الفكري ص٣٦٨.

خزانة الدولة. عرف الملك ما فعلته زوجته فقال لها: يا مولاتنا من أين لك هذا؟ قالت: هو من عند الله، إن الله يرزق من يشاء بغير حساب. فتبسم لأنه عارف أنها من خزائنه فقبض عليها وقال: هذه بضاعتنا ردت إلينا. فقالت له: ونمير أهلنا ونحفظ أخانا.

توجه الصليحي إلى مكة سنة ٤٥٤ حاجاً وقضى فريضة الحج ومعه أمراء اليمن وزعماؤها، فانتزعها من واليها وأقام في الأراضي المقدسة حتى يوم عاشوراء يخطب للخليفة الفاطمي المستنصر بالله فيها. ثم أخرج من الأموال والصدقات للبيت وللحرم والمناسك ما يفوق حد التصور، وعامل الناس بالحسنى وأظهر العدل والإحسان، وعمل على استمالة الناس إلى جانبه؛ بما امتلك من الأموال فطابت قلوبهم ورخصت الأسعار وأمن الحجاج أمناً لم يُعرف مثله من قبل، حتى أن المسلمين كانوا يعتمرون ليلاً ونهاراً وأموالهم محفوظة ورحالهم محروسة. كما شنّ حملة تأديب على القبائل الثائرة التي كانت تعتدي على الحجاج ورد إلى البيت من الحلي والأثاث ما كان قد أُخذ منه. ثم أخذ يصلح ما أفسده الأشراف في هذه البلاد وتحمّل ديات القتلى من ماله الخاص فكسب بحسن سياسته وإدارته رضا إمامه المستنصر بالله، كما كسب ثقة كثير من البلدان الإسلامية المجاورة لما قدمه من خدمات للحجاج عامة وما قام به من كسوة الكعبة بالديباج الأبيض، وما جلبه من الأقوات إلى أهالي تلك البلاد فلهجت الألسن بالدعاء له في كل مكان والثناء على كرمه وأفعاله[1].

في عام ٤٥٦هـ توفي الأمير أسعد بن شهاب حاكم زبيد وأعمالها فرأى الصليحي أن يولي عليها ابنه الأمير محمد وأراد أن يتركه حر التصرف في إدارة شؤونها لكي يختبره ويدربه على الحكم. وبعد خمسة شهور من حكم تهامة سار والده الملك علي الصليحي بصحبة الملكة الحرة السيدة أسماء الصليحية وولدهما الموفق إلى زبيد فأقاموا في ضيافة ولدهم محمد (الملقب بالأعز) مدة قصيرة، ثم عزموا بعدها على العودة إلى صنعاء، فصحبهم

(١) أروى بنت اليمن سلسلة اقرأ ص٦٥ ـ ٦٧.

ابنهم الأمير مودعاً وكان يريد أن يبلغ معهم الغمد لكنه أصيب بالحمى، فأمره والده بالرجوع إلى زبيد فرجع وقد ازداد عليه المرض فلم يمهله فتوفي عام ٤٥٨هـ وعمره سبع وعشرون سنة. حزن الملك الصليحي على ولده وتضاعف حزنه بوفاة ابنته ميمونة التي ماتت غماً على أخيها الذي كان ولياً للعهد.

علم الخليفة المستنصر بوفاة الأمير الأعز محمد فأرسل يعزي الملك الصليحي بوفاة ولي العهد ويعين ولياً جديداً للعهد هو الأمير المكرم[١].

نهاية الملك علي الصليحي

لا بد من ذكر نهاية الملك علي الصليحي لأنها مرتبطة بحياة زوجته أسماء، وقد وردت عدة روايات عن مقتله ذكر أقربها للواقع د. محمد عبده محمد السروري وقد أجمل تلك الروايات كالآتي:

اتصف علي الصليحي بكثرة ذهابه للحج، وقد كان يحج سنوياً في بعض الأحيان ولا سيما قبل تكوين دولته[٢]، ثم بعد تكوينها واستتباب الأمن فيها. وكان من أهدافه في الحج تفقد طريق الحجيج للقيام بإصلاحها حيث بنى جزءاً منها. كذلك للالتقاء بأصحاب مذهبه الإسماعيلية في مكة ليعرف أخبارهم ويعرفوا أخباره والتشاور معهم في أمور المذهب. كما اتصف بالاستمرار في إرسال الهدايا إلى المستنصر الفاطمي رمزاً للولاء والطاعة.

فلما قارب موسم الحج سنة ٤٥٩هـ استخلف علي الصليحي ابنه المكرم في حكم اليمن، واتجه كعادته نحو الحج واصطحب معه زوجته أسماء بنت شهاب وجماعة من قومه بني الصليحي، يقدر عددهم بمئة وسبعين رجلاً، بالإضافة إلى خمسين حاكماً من حكام اليمن الذين أزال حكمهم، وأخذهم للإقامة معه في صنعاء كرهائن، وأعداد قليلة أخرى،

---

(١) المصدر السابق ص٧٣.

(٢) تاريخ عمارة ص١٠٠.

وأقيمت الحفلات لتوديع الملك الصليحي وتكريمه، قال الشاعر القاضي الحسن بن أبي عقامة من قصيدة طويلة:

هَنا الدينَ والعلياءَ تقليدُك الأمر ... فقد طوَّق التقليدُ هذا وذا فخرا[1]
لعمري لقد طال انتظارهما لذا ... وعَدّا له الأيام والحولَ والشهرا
إلى أن أتى تحقيقُ ما كان ظنُّه ... وللكونِ فعلٌ ليس تفعله البشرىٰ
فلو ملكاً قولاً إذن نثيا به ... ولو ملكاً فعلاً إذن سجدا له شكرا

ولما غادر صنعاء قال شاعره عمرو بن يحيى الهيثمي من قصيدة في المكرم:

ما لمن فارق الأحبةَ عذرُ ... إن نهى دمعَهُ عن الفَيْضِ صبرُ
إن سيفَ الإمام كالبحر ذي المو ... جِ له في البلادِ مدٌّ وجزرُ
ولئن ساءَنا فراقُ عليٍّ ... فبترك ابنه لنا ما يَسُرُّ
ذاك بحرٌ سقى به مكةَ اللّـ ... ـهُ وهذا لوفدِ صنعاءَ بحْرُ

وسار الجميع على شكل فرق متباعدة نسبياً لتجنب الازدحام حول الآبار. كذلك اصطحب معه في حجه هدايا جليلة لإرسالها إلى المستنصر الفاطمي وهي (خمسمئة فرس مجنوبة[2] عليها مراكب الفضة وخمسمئة هجين عليها أكواد[3] الفضة، وخمسون دواة من ذهب وفضة وغير ذلك من الزينة التي لا تنحصر). ولما كان علي الصليحي قد وثق من استقرار حكمه على اليمن منذ عام ٤٥٣هـ إذ لم تعد هنالك قوة تستطيع إزاحته منها فأمن من ذلك. ولما كان من عادته الاستمرار إلى الحج فإنه لم يتوقع هجوم أية قوة عليه. لذلك سار من صنعاء إلى مكة بألفي فارس ساروا متفرقين هدفهم

(١) هنا: أي ليهنأ.
(٢) مجنوبة: التجنيب: انحناء في رجل الفرس وهو مدح مستحب.
(٣) أكواد: جمع كود: وهو كل ما جمعته وجعلته كثباً من طعام أو تراب أو نحوه. وكوّد التراب جمعه وجعله كثبة. والكلمة يمانية. لسان/كود.

الحج وليس غيره دون أن يصطحب قوات من قواته الكثيرة في عددها.

أما أولاد نجاح (الذي قتله الصليحي بالسم) فإنهم هربوا إلى جزيرة دهلك الحبشية، بعد أن سيطر الملك الصليحي على تهامة. ولكنهم ظلوا يترقبون الفرصة للعودة إليها، ومن أجل ذلك خططوا لوضع كمين للتخلص من علي الصليحي. وكان موسم الحج هو أنسب موسم لأن الصليحي مستمر في السير إلى الحج دون اصطحاب قواته.

كان الأخوان جياش وسعيد يتتبعان أخبار الملك الصليحي أولاً بأول: فجياش في دهلك وسعيد الأحول في زبيد مختفٍ يتابع أخبار الملك من خلال جواسيسه المنتشرة في زبيد وتهامة، وكان يراسل أخاه جياشاً فيخبره بأخبار الصليحي أولاً بأول. وعندما تحقق الأحول من عزم الصليحي على الحج قام بتجهيز الكمين؛ فكتب إلى أخيه جياش يخبره ويطلب منه القدوم مع أنصاره من الأحباش فوعدهم اللقاء في ساحل المهجم. فجمع جياش حوله خمسة آلاف يجيدون الرمي بالحراب، وهم من أقوياء الناس وسار بهم عن طريق البحر حتى وصلوا ساحل المهجم.

فلما سمع الأحول بقدوم أخيه دعا أصحابه للتجمع وأعلن ثورته في زبيد، فاتجه نحو دار الإمارة واستولى على جميع الأموال التي كانت بحوزة واليها، ثم اتجه مع جماعته إلى الطريق السلطانية وسار حتى وصل ساحل المهجم حيث التقى هناك بقوات أخيه. ثم ساروا جميعاً نحو مخيم علي الصليحي. حيث قتلوه مما سيأتي تفصيله عند الكلام عن أسر أسماء الصليحية.

ولا بد من القول ونحن في طريقنا لإسدال الستار على تاريخ هذا الرجل العظيم الذي استطاع تأسيس دولة كبرى في اليمن: إن عهده يعد بالنسبة لتاريخ اليمن من العصور الزاهرة، وإنه من الرجال الذين قلّ أن يجود الدهر بمثلهم، وذلك لأن اليمن لم تجتمع لملك واحد تحت لواء واحد إلا زمن هذا الملك. ومع أنه حكم البلاد حكماً مطلقاً كما كان الأمر في العصور الوسطى ولكنه كان حكماً مستنيراً عادلاً قائماً على أسس حكيمة.

ومن الناحية الدينية كان متمسكاً بأهداب الدين حريصاً على تعاليم الإسلام، غير مكره أحداً على الدخول في عقيدته بل يتسامح مع علماء السنة، متخذاً خطة التسامح الفاطمية مما جعل الناس ينصرفون إلى أمور معاشهم مطمئنين.

وبعد.

فإن وراء هذا الإسهاب في الكلام عن علي الصليحي سؤالاً لا بد منه: ماذا كان علي الصليحي الملك العظيم العادل الحكيم لو لم تكن زوجته أسماء؟

سيكون جواب هذا السؤال من خلال عرضنا لحياة أسماء الصليحية، ومعرفة أثرها في حياة زوجها بل في إيجاده ودعمه في حياته، وهو أمير عادي ثم وهو ملك عظيم، ومرافقتها لرأسه بعد قتله وهو مغدور به.

فمن أسماء الصليحية فقد ابتعدنا عنها كثيراً، وآن الأوان أن نتعرف على هذه الملكة العظيمة إلى جانب ذلك الملك العظيم.

❋ ❋ ❋

الملكة أسماء الصليحية

كانت أسماء الصليحية فتاة في ريعان شبابها، يتنافس الشبان للزواج منها لأنها كانت بارعة الجمال، لكن أمها لم تكن تقبل لابنتها زوجاً عادياً، بل كانت تطمح أن يتزوجها أحد ملوك همدان.

وكان الأمير علي بن محمد الصليحي شاباً طموحاً أحب ابنة عمه أسماء الملقبة بالسيدة الحرة، فانطلق إلى أبيها خاطباً. لكنه لضيق ذات يده لم يستطع أن يدفع المهر الذي طلبه أبوها واشتطت أمها في المهر. وفي زبيد جلس الأمير الشاب يفكر ماذا يفعل. ثم نزل ضيفاً على دار رجل من أهل الحبشة يقال له فرج السحرتي. وكان من أهل المعروف والصدقات الواسعة، وكان كل من نزل بمسجده أكرمه وآواه. فخرج ذات ليلة فظفر بعلي الصليحي وهو يقرأ القرآن فسأله عن العشاء، فأنشده الصليحي قول المتنبي:

من علّم الأسود المخصي مكرمة　　　أعمامه البيض أم أخواله الصيد

كأنه يعيره بأصله الأسود، لكن فرج السحرتي وهو الحبشي الأسود أخذ علياً معه وطلع به إلى أعلى مكان في داره، وأكرم مثواه ثم سأله عن سبب قدومه إلى تهامة فقال الصليحي: إن لي عماً يقال له شهاب وله ابنة يقال لها أسماء، قليلة النظر في الجمال، معدومة المثل في العقل والأدب، وقد خطبتها إليه فاشتط علي في مهرها وأمها تقول: لا نزوجها إلا بعض ملوك همدان بصنعاء، أو أمراء بني الكرندي بمخلاف جعفر. وقد استاموا علي من المال مبلغاً لا قدرة لي عليه، وأنا متوجه إما إلى بني معن بعدن

وإما إلى بني الكرندي بالمعافرة. وهنا يقول عمارة في تاريخه: إن السحرتي دفع مالاً جزيلاً أضعاف ما أدى وجهز العروسين بجهاز يحتفل به الملوك لعقائلهم، وأعاده إلى عمه حيث زوجه أسماء.

هذا وقد حملت أسماء معها لبيت زوجها مالاً قدره مئة ألف من الذهب، وذكر عارف تامر في كتابه (أروى بنت اليمن) عن الأزدي في كتابه (الدول المتقطعة) قوله: (وكانت أسماء من أعيان النساء، وكان الصليحي يثق بها ثقة عمياء لكمالها، وقد كان يوكل إليها أمر تدبير الدولة، ولم يخالف في أغلب أمورها، ويجلها إجلالاً عظيماً. وكانت إذا حضرت مجلساً لا تستر وجهها عن الحاضرين، وفوق كل هذا كانت من حرائر النساء)[١].

وزاد على قوله: وكانت من الكرم والسؤدد؛ تمنح الجوائز السنية الجزيلة للشعراء، والصلات الواسعة في سبيل الله تعالى وفي سبيل الخير والمروءة، بحيث يُمدح أولادها وإخوتها وأبناء عمها بمفاخرها[٢].

وفي كتاب (اليمن في ظل الإسلام) قال مؤلفه[٣]: وتزوج الصليحي من السيدة أسماء ابنة عمه شهاب، وكانت شاعرة أديبة تختلف كل الاختلاف عن نساء عصرها، فلم تكن مجرد زوجة منعزلة في بيتها بل كانت تشارك بالرأي والمشورة في شؤون نشر الدعوة وفرض سلطانه على بلاد اليمن. بل نستطيع أن نقول إنها كانت وزيرة غير رسمية لزوجها[٤] وبهذا فإن أسماء قد حطمت الحجب التي فرضت على المرأة في ذلك العصر. ويقال بأنها كانت تركب في مئتي جارية في الحلي والحلل ومعها الجنائب[٥] بسروج الذهب[٦] كما كانت تكثر العطاء في سبيل الله وفي سبيل المروة والخير حتى قال عنها الشاعر:

---

(١) أروى بنت اليمن ص٧٢.
(٢) المصدر السابق ص٧٤.
(٣) اليمن في ظل الإسلام ص١٤٧.
(٤) اليمن في ظل الإسلام ص١٤٧.
(٥) الجنائب: الميمنة والميسرة من الجيش.
(٦) الأعلام ج١/٣٠٥.

رسمت في السماح سنة جود لم تدع من معالم البخل رسما[١]

في قصيدة أولها:

حشمت بيضاء الأنامل حشما[٢]

وهي كذلك تقول الشعر فتمدح زوجها علي بن محمد الصليحي وولدها المكرم. وكان الشعراء يمدحونها لما لها من أيادٍ بيضاء على شعبها. قال الشاعر عنها لما لها من ميزات لم تكن لنساء زمانها:

قلتُ إذ عظموا لبلقيس عرشاً دست أسما من ذرا النجم أسمى[٣]

يخطب لأسماء على المنابر:

لم تكن الملكة أسماء امرأة عادية فقد كانت زوجة حاكم اليمن الأوحد علي بن محمد الصليحي وكانت إنسانة ذات صفات خاصة ما وجدت عند غيرها من النساء فهي المستشار الأول لزوجها علي فهي الحاكمة من ورائه وقد ملأت مركزها عن جدارة واستحقاق لدرجة أن الخليفة الفاطمي كان ينعتها بألقاب كثيرة تدل على علو منزلتها لديه، من تلك الألقاب قوله:

إلى السيدة الشريفة الملكة المعظمة التقية، فريدة عصرها، ووحيدة دهرها سلالة ملوك اليمن عماد الإسلام، وصفية ذخر المسلمين، وعضد المؤمنين، وملجأ الطالبين، وحامية المهتدين وولية أمير المؤمنين، حارسة بلاد الله المقربين[٤].

والملكة أسماء أول امرأة في تاريخ اليمن، بل في تاريخ الإسلام عموماً يخطب لها على المنابر، بعد الخليفة ثم لزوجها الصليحي، ثم لها

---

(١) قراءة في فكرة الزيدية والمعتزلة ص١٦٦.

(٢) حشم: بمعنى أعطى. لسان/حشم.

(٣) الدست: صدر البيت معرب. لسان/دست.

(٤) تاريخ اليمن لعمارة ص٤٧.

فيقال: اللهم فأدم أيام الحرة الكاملة السديدة كافلة المؤمنين.

أسر أسماء ومقتل زوجها:

قلنا إن الملك الصليحي قد قام من صنعاء في يوم الاثنين السادس من ذي القعدة سنة ٤٥٩هـ قاصداً الحج. في الوقت الذي كانت فيه قلوب بني نجاح تستعر حقداً وحباً للانتقام. فكانوا يتربصون الفرص للإيقاع بالصليحي والعمل على تقويض أركان دولته، التي كانت سبباً في زوال ملكهم. وقد ساندت بعض القبائل أولاد نجاح في معارضتهم للصليحي وسارت معهم. فلما علم الصليحي بذلك استقدم أحد زعمائهم (فرح البيشي) وهو من العبيد الأحباش عند نجاح فذكر له الصليحي إحسانه وتقديمه ورفع مكانته. فأقسم له فرح أيماناً مغلظة أنه لا يعلم شيئاً عن نجاح، وأبدى استعداده للذهاب وإحضار رأس سعيد الأحول فصدقه الصليحي. لكن الأمر كان على العكس تماماً فإن فرحاً لما ذهب إلى زبيد أخذ يحرض أبناء جلدته من العبيد والأحباش، ويوغر صدورهم على علي الصليحي وأفراد قبيلته. فثاروا جميعاً وقتلوا الأمير أحمد بن أسعد بن شهاب وقتلوا من معه من أهل حراز ثم نهبوا ما معهم من أموال ومتاع.

علم آل نجاح من عيونهم التي بثوها، أن الصليحي لم يأخذ معه أحداً من أهل البأس والنجدة إلى الديار المقدسة وأن جميع أمواله وأثقاله كانت مبثوثة بين هجر[1] والمهجم[2] وهذه بلاد قد تمهد مهادها واستقام عمادها وأمنت السبل وخضع لها كل عزيز وذَلّ. ولم يكن مع الصليحي في المهجم إلا ابنه الموفق وزوجته السيدة أسماء بنت شهاب، وأخواه عبدالله وإبراهيم وجماعة من بني الصليحي. ولما علم الصليحي أن الأحباش قد جمعوا قواتهم وأنهم في طريقهم إلى قتاله أنفذ عبيده الذين كانوا معه لمقاتلة

---

(١) هجر: بلد باليمن بينه وبين عشر يوم وليلة من جهة اليمن. معجم البلدان ج٥/٣٩٣.

(٢) المهجم: بادية من تهامة. أول من سكن فيها بنو كنانة ثم بنو الحلي. وقد أورد الحصري في تاريخه الكثير من العلماء والفضلاء والمفكرين الذين ظهروا في قرى المهجم. هذه هي اليمن ص٢٨١.

آل نجاح؛ فتظاهر هؤلاء العبيد أنهم يفدونه بالمهج والأرواح فتظاهروا بالحماسة ولكنهم أضمروا الخيانة وقرروا الغدر بسيدهم، فحرضوا الأحباش على سيدهم ودلوهم على موضعه. فساروا إليه مجدين حتى فاجؤوه بقرية يقال لها أم الدهيم. فانقضوا عليه في يوم السبت الحادي عشر من ذي القعدة ومعه بنو عمه الذين أبلَوْا بلاءً شديداً على أن عبدالله بن محمد (أخا الملك علي الصليحي) كان أكثرهم إقداماً وأشدهم بطشاً، واشتد القتال حول بئر اسمها بئر أم معبد.

وانقض أولاد نجاح على الملك الصليحي، حالما وقعت عيونهم عليه في خيمته فطعنه جياش فقتله واحتز رأسه. وقاتل أخوه عبدالله قتالاً مريراً لكن الأحباش أحاطوا به. فتقابض هو ورجل من الحبشة فصاح الحبشي: اقتلوني وهذا. فشكهما سعيد بحربته ثم قطع رأسه ووضعه إلى جانب رأس أخيه على جريد النخل.

في هذه المعركة التي قتل فيها الصليحي، وأخواه وأقاربه كانت الملكة أسماء ومن معها من السيدات في مكان خاص، فذهب الموفق بن علي الصليحي ومهنا بن المظفر الصليحي إلى مكان السيدات لحمايتهن لكن العبيد الأحباش ما لبثوا أن حاصروا هذا المكان، واستمر حصارهم له حتى اليوم الخامس عشر من ذي القعدة. حيث طلب مهنا الصليحي الأمان وخرج إلى سعيد الأحول فأخذ منه ميثاقاً شديداً على الحرائر الصليحيات وعلى من تبقى من آل الصليحي فحلف له الأحول أغلظ الأيمان بأنه سيطلق سراح النساء الصليحيات ليسرن إلى صنعاء، فوثق المهنا بقوله ونقل السيدات إلى دار أخرى. لكن الأحول غدر بالرجال فقتلهم عن آخرهم ونهب كل ما كان في الدار من أموال جليلة القدر وسائر ما يدخره الملوك. وكان الملك الصليحي قد أعدها لينفقها على الجيش والحجاج والمسلمين والبيت الحرام.

ويقال إن جياشاً أخا سعيد الأحول قال لأخيه بعد قتل الصليحي ينصح أن يفك أسر الملكة أسماء، ويردها إلى ابنها المكرم ويعفو عن بقية آل الصليحي ويكتب للمكرم ابن أسماء: (إنا أدركنا ثأرنا واسترجعنا ملكنا

وقد أحسَنّا إليك وجمّلْناك بصيانة والدتك والعفو عن بني عمك) فلم يجبه أخوه بل قال:

لا تقطعَنْ ذنبَ الأفعى وتتركَها   إن كنتَ شَهْماً فأتبِعْ رأسَها الذَّنبَا

وسألت الملكة الحرة أسماء بنت شهاب سعيداً الأحول أن يسمح لها ولمن معها من السيدات بالعودة إلى صنعاء، فامتنع وسار بهن إلى زبيد ومعه رأسا الملك علي الصليحي وأخيه عبدالله، محمولين على رمحين مركوزين أمام هودج الملكة أسماء.

إن منظر الرأسين أمام هودجها منظر تقشعر له الأبدان لكن السيدة أسماء صبرت لأنها تعلم أن مع العسر يسراً، وأملت أن ينتهي الأمر حال وصولها مع غيرها من النساء إلى زبيد، وأن يدفن الرأسان هناك. لكن ذلك لم يحصل فقد وضع الرأسان أمام نافذة سجنها لتراهما كل حين. إنه تصرف من رجل حاقد لا رحمة عنده ولا عطف، بل تراكمت في نفسه أنواع من الشرور صبها كلها على السيدة أسماء التي صبرت وانتظرت الفرج من رب العالمين.

هذا وقد قال شاعر آل نجاح شامتاً بالملك الصليحي واسمه العثماني[1]:

بكرتْ مظلتُه عليه فلم ترحْ   إلا على الملك الأجلّ سعيدُها[2]
ما كان أقبحَ وجهَهُ في ظِلّها   ما كان أحسنَ رأسَهُ في عودِها
سودُ الأراقِمِ قاتلتْ أسدَ الشرى   يا رحمةً لأسودِها من سودِها

رثاء الشعراء للملك الصليحي:

لم يكن الصليحي ملكاً عادياً، إن الزمان لم يجد بمثله في اليمن قبله ولا بعده، حتى أن بعض المؤرخين يجعله من القواد الفاتحين الذين لمع

(١) تاريخ مدينة زبيد ص٤٨.
(٢) أي سعيد الأحول.

اسمهم على صفحات التاريخ. حتى حين ذهب إلى الحج الذي كان سبباً في مقتله، لم يكن يبغي الحج لذاته بل كان له برنامج إصلاحي حافل بالأعمال والخيرات أراد تطبيقه بحزم وجد؛ بعضه يتعلق بالمساعي الخيرية لتسهيل الحج وعمارة الآثار وحفظ المؤن وإجراء الأنهار، والبعض الآخر يتعلق بالاستعداد لزيارة إمامه المستنصر بالله الفاطمي، ولكنه ما لبث أن ذهب ضحية عبيده وخيانتهم.

وقد رثى اليمنيون ملكهم بقصائد كثيرة حين علموا بموته، منها قول أحدهم:

وكيف لا نبكي ملوكاً عَنَتْ	لهم ملوكُ الشرقِ والمغربِ
لم تطلعِ الشمسُ على مثلهِم	منْ غيرِهم جوداً ولم تغربِ
دارتْ رحى بأسِهم من قرى الشِحْرِ	إلى نجدٍ إلى يثربِ
بما حوى البحرُ وشادوا العُلا	وأدركوا ثاراتِ آلِ النبي[(١)]

وقال الحسين بن القم:

أقحطانُ هُزّي البيضَ واعتنقي السُمْرا	ورُدّي العوالي من دماءِ العِدا حُمْرا
ولا تهدري ثأرَ المظفَّرِ إنّه	بنى لكُمُ مجداً وشادَ لكم فخرا
سرى نحوَ بيتِ اللّهِ للّهِ طائعاً	يرومُ من اللّهِ المثوبَةَ والأَجْرا[(٢)]

وقد رثاه الشاعر عمرو بن يحيى الهيثمي بقصيدة جاء فيها:

وأنشأ الحج إلى مكةٍ	يبغي رضا اللّهِ وآلِ البَتولْ
فصار في المهجم في عُصْبَةٍ	من قومِهِ غالتْه دهياءُ غولْ[(٣)]
كالليثِ في الغابةِ دبَّتْ له	رقطاءُ ليلاً ذاتُ شخصٍ ضئيلْ[(٤)]

(١) اليمن في ظل الإسلام ص١٥٤.
(٢) المصدر السابق ص١٥٤.
(٣) دهياء: داهية دهياء: الداهية من شدائد الدهر غول.
(٤) رقطاء: أفعى.

فـإن يـكـنْ نـيـلَ عـلـى غُـرّةٍ فـالـبـدرُ لا بُـدّ لـه مـن أفـولْ

وقال أيضاً الشاعر الحسين بن علي القمي:

رزيـتُ مـن الأمـلاكِ كـلَّ مـتـوجِ كثيرِ غبارِ الجيشِ طلاّعِ أَنْجدِ[1]
ملوكٌ ترى الأملاكَ حولَ دسوتِهِمْ صفوفاً عكوفاً من قيامٍ وسُجّدِ[2]
أأبكي عـليـاً أم أخاه الـذي فـدى وأكـرمُ مـفـديٍّ هـنـاك ومـفـتـدي
فـلـلّـهِ أسـدٌ صُـرّعَـتْ بـثـعـالـبٍ ولـلّـه أحـرارٌ أذيـلـتْ بـأعـبُـدِ[3]
وَهَـوّنَ وجـدي أنـهـم مـا تُـخـرمـوا بغير المواضي والوشيجِ المقصَّدِ[4]

كيف أُنْقذتْ أسماءُ من الأسْرِ:

أقامت أسماء في الأسر مدة طويلة ترى بعينيها رأس زوجها وأخيه أمام شباك غرفتها فيتضاعف الألم في صدرها، وتفكر ألا خلاص لها من هذا الأسر، إلا بإيصال الخبر إلى ابنها المكرم في صنعاء، فهو الوحيد القادر على إنقاذها. فلا سبيل للخلاص من يد آل نجاح الأحباش، إلا بقوة السلاح.

وكان المكرم مطمئناً لأن أباه وأمه في طريقهما إلى الحج، ثم إلى مصر إلى الخليفة الفاطمي. ولم يكن يعلم ماذا أصاب والديه.

أما أسماء فلم تدع وسيلة، لإيصال خبر مقتل زوجها وأسرها إلى ابنها المكرم إلا حاولتها لكن دون جدوى. وكان يتردد على سجنها سائل فقير يطلب خبزاً. ففكرت: ماذا يضر لو أرسلتُ مع هذا الفقير رسالة لولدي

---

(١) الأنجد: النجد من الأرض ما غلظ منها وأشرف وارتفع واستوى. لسان/نجد.

(٢) دسوتهم: مفرده دست وهو جانب الغرفة.

(٣) أذيلت: أهينت.

(٤) تخرموا: تقطعوا واستؤصلوا. المواضي: السيوف.
والوشيج المقصد: الوشيج: شجر الرماح وما التف من الشجر. والمقصّد: المكسّر. تقصدت الرماح: تكسرت.

المكرم؟ ولكن كيف أعطيها للسائل والعيون حولي لا ترحم؟ وهداها تفكيرها إلى كتابة رسالة لولدها ثم وضعها داخل رغيف الخبز، حتى يراها السائل فيوصلها للمكرم. ونفّذَتْ أسماء ما عزمت عليه. فأعطت الفقير الضعيف رغيفَ الخبزِ صدقةً فابتعد. ورأى الرسالة حين فتح رغيف الخبز، فقام فوراً مسافراً من زبيد إلى صنعاء، ليوصلها للملك المكرم.

وقرأ الملك رسالة أمه فثار ثورة شديدة، ولا سيما أن الملكة أسماء ادّعت لابنها أنها حامل من سعيد الأحول.

الشهامة العربية، والدفاع عن العرض، والأخذ بالثأر، كلها تغلي في دماء المكرم فجمع الناس وأطلعهم على الرسالة؛ فضجّ الناس حزناً على ملكهم المقتول، وبكوا بكاءً شديداً على ملكتهم الأسيرة، فهم يعرفون قدرها ومكانتها وأعمالها إلى جانب زوجها، ولا ينسون ملكهم الذي جمع اليمن في دولة واحدة وأقام المشاريع فصارت البلاد في رفاهية لم تعهدها سابقاً.

وبينما كان المكرم في غمرة الاستعداد لمتابعة الأعداء كانت الأرض تستعر ناراً حوله، وكان لا بد له من إطفاء ثورة الناكثين، ومعالجة الحالة الرهيبة، التي وصلت إليها الدولة الصليحية، فصمم بصدق وعزيمة وشجاعة نادرة، نسميها شجاعة اليائس، على قتال الذين خرجوا عن حظيرة دولته. فأخذ يشجع أصحابه على الولاء، ويثبتهم على الدين، ويذكرهم بما وعد الله به عباده الصابرين، وبما ابتلى به مواليه الطاهرين. فاستطاع هو ومن معه، أن يرفعوا الحصار عن صنعاء، ويتتبعوا الأعداء فانتصروا انتصاراً تنفّسوا بعده نسيم الأمل، وحاربوا الأعداء في كل مكان والله يعطيهم النصر ويبسط يدهم عليه.

وبينما كان المكرم في غمرة تحرير بلاده من الناكثين، كان قواد أبيه عامر بن سليمان الزواحي وعمران بن الفضل اليامي، وغيرهم عائدين إلى صنعاء، بعد مقتل ملكهم من قبل الأحباش في المهجم. وعندما وصلوا إلى صنعاء كان المكرم في أمس الحاجة إليهم، وإلى نجدتهم وإلى رأيهم، فكان

فرحه بوصولهم عظيماً حتى خَرّ للّهِ ساجداً، ولما علم بطريقة مقتل أبيه واختفاء أمه أقسم أن يأخذ بثأره من الأحباش، ومنذ وصلته رسالة أمه كانت جميع الأمور تحز في نفسه وتقض مضجعه، ولا يمكنه التغاضي عنها بحال من الأحوال. وأصبحت نار الغيظ تأكل أكباد أصحابه وتؤجج نفوسهم الأبية، ولكن ما العمل وعوامل الاضطراب محدقة بدولتهم، والثورات منبعثة في مختلف الأرجاء. لذلك رأوا من الصواب كبح جماح كل من حدثتهم أنفسهم بالخروج عليهم، والضرب على أيدي الخارجين وتطهير البلاد من الفتن والثورات وإعادة الأمن إلى نصابه، ثم التوجه إلى الأخذ بالثأر. وفي جو الاضطرابات والفتن، انتهز بنو نجاح فرصة انشغال المكرم بإخضاع القبائل فأغاروا على حصن التعكر وفيه أسعد بن عبدالله الصليحي، الذي هزمهم وغنم منهم أموالاً كثيرة. ولما ثبتت أقدام المكرم بعد القضاء على الثائرين واستقرت الأمور في صنعاء وما حولها من الحصون، قرر المكرم السير إلى زبيد لتصفية حسابه مع سعيد الأحول.

وجد الصليحي من رسالة أمه التي وصلته من السائل الفقير، فرصة جديدة لجمع الجيش والذهاب به إلى زبيد. فجمع الناس وأوقفهم على ما تضمنه الكتاب القادم من أمه فضجوا بالبكاء فقام يخطب بهم قائلاً: من كان يرغب في الحياة فلا يكن معنا. وأمر المكرم ألا يسير في جيشه إلا كل من آنس في نفسه الصبر والبأس على الآلام، أو آثر الموت على الحياة ورضي بالشهادة[١].

كان المكرم فصيحاً بليغاً، شجاعاً مشهوراً بالثبات والإقدام، ولم يكن في زمانه من يتعاطى رمحه وسيفه، وقوسه وقوة بأسه وعظم خلقته مثله. حتى لقب بذي السيفين وأمر ألا يسير في عسكره إلا كل من آنس في نفسه الصبر والبأس ـ كما قلنا ـ.

وما خرج المكرم من العمد[٢] إلا وكان معه عشرة آلاف فارس فخطبهم قائلاً:

---

(١) مقتبس من كتاب أروى بنت اليمن.

(٢) العمد: منطقة في الطريق إلى زبيد.

(إننا لم ننزل لعرض من الدنيا نصيبه ولا لمال نخزنه ولا لشيء نذهب به من متاع الدنيا، سوى إدراكنا ثأرنا من هؤلاء العبيد والأحباش، واستنقاذ حريمنا وإن قصدنا ليس الإضرار بأحد من الناس، ولا تغيير شيء مما يملكون. وعلينا ألا نتعدى على زروعهم ومواشيهم وحريمهم ونحن في طريقنا. وقد رجوت أن تكون سيرتكم جميلة ولكم حسن الأحدوثة فتنالون حميد العاقبة والثناء، ولا أنهاكم عمن وتركم ونال منكم وحاول أن يفاجئكم).

وبعد أن سار جيشه مسافة خطب فيهم خطبة بليغة قال فيها:

أيها المؤمنون، لا أريد اليوم غير ما سمعتموه مني بالأمس وفيما قبله، وفيما قلته كفاية، وقد كنت أعرض عليكم الرجوع وفي المسافة إمكان، وأما اليوم فقد صار الخيار إلى عدوكم لأنكم توغلتم عليه. وإنما هو الموت أو العار بفرار لا يجدي) ثم تمثل بقول المتنبي:

وأورِدُ نفسي والمهنَّدُ في يدي   مواردَ لا يصدرْن من لا يحاولُ[1]

ثم وصل إلى زبيد من الشرق فقصد قرية (التربية) ودخل مسجدها يوم الجمعة عند طلوع الفجر. وكان إمام المسجد الشيخ الزاهد محمد بن علية من أهل القرية، قد صلى الصبح ووقف يتلو بعض الآيات فإذا هو بفارس يركز رمحه ويسنده إلى الجناح الغربي، ثم يقوم فيصلي فقال الشيخ: ما رأيت شخصاً في ولد آدم أتم منه خلقة ولا أحسن منظراً، وروائحه روائح الملوك. ولم يلبث الصباح أن تجلّى، وكان المكرم واقفاً عنده حتى ختم، ودعا، وأمّن هو ومن معه على الدعاء. وإذا الخيل قد أقبلت عند طلوع الشمس أرسالاً وكل رعيل منهم يسلم ويقف وكانت تحيتهم له: (أنعم الله صباحك مولانا وأدام عزك) ولا يزيدهم هو في الرد أكثر من قوله: (مرحباً يا وجوه العرب) إلى أن تكاملوا. ثم خرجوا من المسجد فركبوا خيولهم وقصدوا باب الشبارق، وهو الباب الشرقي لبلدة زبيد. وحين دنا المكرم من

---

(١) أي أنه يقتل بضربة واحدة لا ثاني لها.

زبيد عبأ جيشه: الميمنة لأسعد بن شهاب (أخي الملكة أسماء) والميسرة لعمه، وكان هو وأحمد بن المظفر الصليحي في القلب. فقال المكرم لأهله من آل الصليحي: (لستما كأحد من هذا الجيش لأنكما موتوران، ومولاتنا أخت أحدكم وابنة أخي الآخر) وسار المكرم في القلب كما أسلفنا[1] وكان الأحباش صافين على باب الشبارق ستة كراديس وعددهم ثمانية عشر ألفاً، وهم مثل العارض الأسود. فتقابل الجيشان في اليوم التاسع والعشرين من شهر صفر ٤٦٠هـ. وقاتل في هذا اليوم سعيد الأحول وجيشه قتالاً شديداً، حتى انطوى عليهم الجناحان (كناية على الهزيمة) فانكسر جيشه كسرة شنيعة وهُزموا شر هزيمة فجالت عليهم الخيل جولة واحدة؛ فطحنوا طحن الرحى وأتى القتل على أكثرهم.

وكان سعيد الأحول قد أعد خيلاً مضمرة على الباب الغربي من زبيد، والمسمى بباب النخل فسار مع من سلم من خواصه إلى البحر، وقد أُعدت لهم سفن هناك فركبها من فوره، وسار نحو جزيرة دهلك في ثغر مدينة عدن.

وكان سبب نجاة سعيد الأحول انشغال المكرم ومن معه في الوصول إلى والدته الملكة أسماء الصليحية. فلم يتتبع الأحول أحد، ولا أقيم له في ذلك صد[2] ودخلت العرب زبيد عنوة، ولم يزل القتال فيها دائراً حتى صلاة الظهر، وقُتل الأحباش قتلاً ذريعاً وأُحرقت الدار التي اعتصموا بها.

وحين اقتحم المكرم مدينة زبيد، كان هو أولَ فارس وقف تحت الرأسين المصلوبين رأسِ أبيه ورأسِ عمه. وأمام طاقة أسماء وقف وهو يلبس درعه وخوذته ومغفره فقال لها: أدام الله عزك مولاتنا فقالت: مرحباً بأوجه العرب. فسلّم عليها صاحباه مثل سلامه فسألت عنه من هو؟ فقد أحست في أعماقها أن الذي أمامها من دمها ولحمها. قال المكرم: أنا أحمد بن علي قالت: إن أحمد بن علي في العرب كثير فاحسر عن وجهك

---

(١) الصليحيون ص١٢٠ وما بعدها.

(٢) الصليحيون ص١٢٣.

حتى أعرفك، فحسر الحديد عن وجهه فقالت فرحة: مرحباً بمولانا المكرم.

ويقال إن المكرم في تلك الحالة أصابه هواء بارد، فلفحه فارتعش واختلجت بشرة وجهه، وعاش عدة سنين وهو ينتفض وتتحرك بشرة وجهه.

ثم سألت الملكة ابنها: من صاحباك؟ فسماهما لها فوهبت لأحدهما ارتفاع[1] عدن في تلك السنة وكان مئة ألف دينار، ووهبت الآخر ارتفاع حصني كوكبان وحوبان ولَيْسا دونَ ارتفاع عدن.

اعتذر المكرم لأمه عن تأخره في إنقاذها فقد كانت الظروف المحيطة به، والثورات التي واجهته سبباً في تأخره عنها فقالت له: من كان مجيئه كمجيئك فما أخطأ ولا أبطأ. ووقفت الملكة أسماء في الطاق لا تستر وجهها مشرفة تستعرض الجيش بأرساله، كعادتها في أيام زوجها علي بن محمد الصليحي. ثم تقدم المكرم فأمر بإنزال الرأسين وأمر ببناء مشهد مكانهما. قال عمارة اليمني: (فأنا أدركت المشهد ويعرف بمشهد الرأسين).

لما دخل المكرم زبيد لم يجعل لأحد سبيلاً إلى نساء بني نجاح، وأطلق من وقع في الأسر من أولاد العبيد، أما المقاتلون فقد قال المكرم للجيش: (اعلموا أن عرب هذه البادية يستولدون الجواري السود، فالجلدة السوداء تعم العبد والحر. ولكن إذا سمعتم من ينادي العظم (عزماً) فهو حبشي فاقتلوه.. ومن سماه (عظماً) فهو عربي فاتركوه).

لم تكن نية المكرم انتهاك الحرمات وإثارة الفتن، بل اكتفى بتخليص أمه وأقاربه وآثر أن يعامل الناس بالحسنى؛ حتى يمتلك القلوب والأنفس، كما ملك مشاعر الناس بانتصاراته. فكبت بذلك الفتنة وأطلق ألسنة الناس تلهج بالثناء عليه، واشتهر أمره بما أظهره من ضروب الشجاعة وعلو الهمة.

ورغم ذلك فإن السؤال يلح على متتبع الأحداث: لماذا لم ينتقم المكرم لأبيه وعمه وأهله بالفتك بهؤلاء الذين وقعوا أسرى في يديه؟.

---

(١) أي ما يرفع من جباية من تلك المدينة.

الجواب: أن المكرم ـ كما عرف عن أبيه من قبل ـ كان حسن السيرة في الرعية، يحب العفو عند المقدرة والتسامح مع المغلوبين. فقد وجد في هذه الصفات الخير كله. وكان يرى أن إدراك الثأر ليس في الفتك بالأسرى بل بالاكتفاء بالقضاء على الجيش المعادي. والثأر لا يكون إلا من القاتل نفسه فلماذا يؤخذ إنسان بجريرة إنسان؟ تلك كانت مشورة والدته أسماء ثم إن معاملة الناس بالحسنى تقرب القلوب والأنفس إلى الطاعة. وقد كسب المكرم بتلك المعاملة محبته في نفوس الأصدقاء والأعداء على السواء، وأطلق الألسن تلهج بالثناء عليه، واشتهر أمره بما أظهره من ضروب الشجاعة والتسامح، وعلو الهمة، وارتفعت مكانته لدى الجميع على السواء، إذ آثروا الخضوع له لا خوفاً من قوة بطشه، بل رغبة في عدله وشهامته. وقال الناس فيه: (والله إن الذي سماه ذا السيفين لحكيم) وقبل أن يغادر المكرم زبيد نقل رأس والده وعمه إلى صنعاء وبنى عليهما مشهداً. وفي ذلك يقول عمارة اليمني: (وأنا أدركت مشهد الرأسين). كما أقام أياماً مهد فيها قواعد البلاد وأرسئ قواعد الدعوة الإسماعيلية، لكنه ترك للشعب حرية المذهب والعقيدة كما كان أبوه.

في الثاني عشر من شهر ربيع الأول عام ٤٦٠هـ خرج المكرم من زبيد يريد الإجهاز على الأحباش الهاربين، لكن رسالة وصلته تعلمه باضطراب الأحوال في غيابه عن صنعاء وأن واليها إسماعيل اشتد عليه المرض، فاضطر المكرم أن يعود خوفاً من أن ينال المخالفون ما سوّلت لهم أنفسهم من صنعاء. فخفّ مسرعاً بالعودة، ومعه أمه الملكة أسماء والحرائر الصليحيات وهو قرير العين، بالظفر وبره بقسمه في تخليص أمه من الأسر(١).

وقد فرح الناس بعودة ملكتهم وخلاصها من أسر آل نجاح فقال الشاعر عمرو بن يحيى الهيثمي:

عــودة أســمــاء إلــى قــصــرِهــا بــعــد فــراقِ الــمــلــكِ الأَوْحَــدِ

(١) تاريخ مدينة زبيد ص٤٨.

وبعد عَوْصاءِ الخطوبِ التي رمتْ بني قحطان بالمؤيدِ[1]
كرجعةِ الشمسِ وقد جنّها دجنٌ وسربالُ دجىً أسودِ[2]
فيا لها من نعمةٍ أصلُها بأسُ ابنها باني العلا أحمدِ[3]

ويبدو أن أول عمل قام به المكرم بعد استتباب الأمن في البلاد، أن ذهب إلى قرية المهجم حيث قتل أبوه وعمه، وأمر بنقل جثتيهما في تابوتين إلى صنعاء، فقبرهما يماني الجبانة وأمر ببناء مشهد جامع لهما. ثم جلس في مسجد كان قد بناه أبوه وأخذ الشعراء يتوافدون إليه، وينشدونه قصائدهم ومنهم عمرو بن يحيى الهيثمي الذي مدح المكرم ومدح أمه الملكة أسماء فقال[4]:

نفضتَ غبارَ العارِ عن ثوبِ يعربِ وقدْ سحبت أعطافُه كل مَسْحَبِ
بشعواءَ في صنعاءَ قرعُ طبولِها وريعانُها بالعرق دون المحصّبِ[5]
أدرتَ على دربِ الحصيبِ مع الضحى رحى ذات قطبٍ حاشديٍّ ولولبِ
فأضحوا على الأبوابِ صرعى كأنهم قبائلُ عادٍ في الصباحِ العَصَبْصَبِ[6]
وجئتَ وأمُّ المؤمنين وسربُها كزينبَ يوم الطفِّ حول المخضّبِ[7]
حماها الذي أعطاكَ ملكاً كما حمى بناتِ عليّ من مسوخٍ وأَكْلُبِ

إلى أن يقول:

أتينا بذي السيفين أحمد، إنه يفوقُ على الحيّيْن أُدٍّ ويعربِ
لقد طالهم فخراً ومجداً ونجدةً كما طال كيوانٌ على كل كوكبِ

---

(١) عوصاء: العوصاء: الشدة.
(٢) سربال: السربال: القميص أو الدرع.
(٣) يقصد ابنها أحمد المكرم.
(٤) الصليحيون والحركة الفاطمية ص١٣٣.
(٥) المحصب: موضع بالحجاز.
(٦) العصبصب: شديد الحر.
(٧) المخضب: يقصد الإمام الحسين.

أليس نظامُ المؤمنين أميرُنا — أباك وإن الفخر للمتسبّبِ
وأمُّكَ بنت القيل من آل جعفرٍ — فناهيك من أمٍ وناهيك من أبِ
ومكّنَكَ الباري على لوح عرشِهِ — طرازَ العُلا في مفخرِ النسج مُذْهَبِ(١)
قَدُمْ لبني قحطان يا رأسَ عزِّهم — ومهيعِهِمْ في الحادِثِ المتعصّبِ(٢)

وكتب بعض الشعراء على قبر الصليحي أشعاراً منها:

في القبر ليثٌ وبحرٌ زاخرٌ وجدىً — جود وطودٌ وضرغامٌ وصمصامُ
فاعجبْ بأن ضم هذا كلَّه جدثٌ — بدا له في قلوبِ الناسِ إعظامُ
فطُفْ به واقضِ حقَّ المجدِ إن له — حقاً على كل حر جدّه سامُ
هذا الذي أمس رُجت خوف سطوته — نجدٌ وبغدادُ والأحساءُ والشامُ
حتى إذا قيل هذا ما له مثل — من الأنام تولت قتله حامُ(٣)

وأخذ الشعراء ينشدونه قصائدهم ومن بينهم عمرو بن يحيى بن الحسين الهيثمي حيث قال قصيدة جاء فيها:

وكيف لا نبكي ملوكاً عنتْ — لهم ملوكُ الشرقِ والمغربِ
دارتْ رحى بأسهم من قرى الشِحرِ — إلى نجدِ إلى يثربِ
بما حوى البحرُ وشادوا العلا — وأدركوا ثاراتِ آلِ النبي
لم تطلُع الشمسُ على مِثْلِهِمْ — من غيرهم جوداً ولم تغربِ
ولم يمتْ مجدهُمُ إنما — غُيّبَتْ الأجسادُ في التورَبِ(٤)
وسعي ذي السيفين يحييهُمُ — ما لاحَ في الليلِ سنا كوْكَبِ

أخذ المكرم بعد ذلك يعالج الأمور التي تعقّدتْ في غيابه، ويصلح ما

(١) طراز العلا: الطراز علم الثوب. فارسي معرب.
(٢) المهيع: الجحفة وهو بقية الماء في جوانب الحوض.
(٣) يقصد الأحباش.
(٤) التورب: لغة في التراب.

أفسده الطامعون[1] فخرج ليحارب أهل الفتن، تاركاً الأمور بيد أمينة هي يد أمه السيدة أسماء. وغاب فترة يؤدب الثائرين في شرق اليمن وغربه. لكن رسالة من أمه جاءته تعلمه بأن سعيداً الأحول طلع من تهامة بجمع عظيم عازماً فتح صنعاء، وأن أخوي الأحول في جمع آخر يستعجلون قدوم المكرم. إن أسماء هي العين الساهرة التي لا تغفل في وجود ابنها وفي غيابه.

قصد المكرم سعيداً الأحول في زبيد، واتجه بمن معه من همدان وأهل حراز نحو جبل الشعر، فملك الرعب قلوب الأحباش وأيقنوا بالهلاك فحمل عليهم المكرم حملة جبارة فهزمهم هزيمة منكرة؛ قتل فيها سعيد الأحول وأُتي برأسه إلى المكرم كما قُتل أخواه بلال ومالك.

ثم عاد المكرم إلى زبيد وفي اليوم الأول من شوال ٤٦١هـ صلى بالناس صلاة العيد، وخطبهم خطبة أفاض فيها بالدعاء لأبيه والحمد لله الذي قيض له الأخذ بالثأر.

استقر الحكم للمكرم في صنعاء فسار سيرة والده علي بن محمد الصليحي، وذلك بالحزم والعدل مجتمعين أضف إلى ذلك حرية العقيدة الدينية، فكان الناس يمدحونه دائماً كما أن أهل زبيد كانوا يقولون عنه: إنه الرجل حقاً فقد أخذ أمه من زبيد، أمه الملكة الحرة السيدة أسماء فأنقذها من الأسر وقتل من الأحباش عشرين ألفاً دون أمه.

شرعت أسماء تحكم من وراء ابنها ـ كما كانت تحكم من وراء زوجها ـ بكل حزم ورأي سديد في تلك الدولة الموحدة المترامية. ثم إنها كانت تصرف الأموال الغزيرة في وجوه الخير والإحسان وهي تقول:

إذا المال لم تصرفه في مستحقه ... فما هو إلا حسرةً ووبالا

بقيت أسماء كذلك إلى أن توفاها الله عام ٤٦٧هـ فدفنت في صنعاء.

---

(١) الصليحيون والحركة الفاطمية ص١٣٤.

مع أروى الصليحية:

لعل من أعظم أعمال أسماء وما يسجله لها التاريخ بحروف من نور موقفها من أروى بنت أحمد الصليحية. فمن غير الممكن أن نفصل حياة إحداهما عن الأخرى فأروى فرع من أسماء وتلميذة نجيبة لها، بل وامتداد لفضائلها. وأسماء أصل لأروى ومعلمة فاضلة ومربية بارعة.

مات أبو أروى وهي طفلة صغيرة تحت أنقاض بيته في عدن فكفل اليتيمة علي بن محمد الصليحي وزوجته أسماء، إذ جاءا بها إلى قصرهما في صنعاء وربياها أفضل تربية فكانت لهما كالابنة، وهي نعم الفتاة العاقلة الرزينة المثقفة. ولما رأيا فيها هذه السمات النادرة زوجاها من ابنهما المكرم.

وهكذا فقد مهدت أسماء لأروى طريق الحكم وأعدتها لتولي كبار الأمور، ودرَّبتها لتتسلم زمام الأمور في المستقبل.

رحم الله أسماء الصليحية فقد تركت في اليمن ذكرى عطرة يعتزّ بها الصغير والكبير، وخلفت وراءها امرأة تتابع مسيرتها بل وتفضلها في كثير من أمورها.

وإذا كانت أسماء لم تحكم اليمن الموحد بشكل مباشر بل من وراء زوجها الصليحي، إلا أنها كانت المرشد له والموجه والمشير الذي لا تخيب مشورته.

❁ ❁ ❁

الملكة السيدة الحرة

أروى الصليحية
٤٤٠ ـ ٥٣٢ هـ

أنتم بنو الأصلوحِ جوهرُ يعربٍ — وسواكم أصدافُها وبِحارُها
ولأنتِ يا بنةَ أحمدٍ تنميكِ من — تلك اللآلي الفائقاتِ كبارُها
أنقذتِ من يمِّ الضلالةِ أَهْلَها — كانوا بها طامٍ بها تَيّارُها

الخطاب بن الحسن الحجوري

بسم الله الرحمن الرحيم

الملكة السيدة الحرة أروى الصليحية
٤٤٠ هـ ـــ ٥٣٢ هـ

إذا كانت أسماء الصليحية شخصيةً نادرة الوجود، وملكة حكمت اليمن وراء زوجها يستمع لرأيها وينفذه، فقرارها حكيم ورأيها صائب، ثم حكمت من وراء ولدها المكرم، فإن أروى الصليحية كنتها حكمت اليمن عشر سنوات وراء زوجها، وحكمتها منفردة بعد مماته أربعين سنة؛ لذلك لقبت ببلقيس الصغرى.

ولأول مرة نسمع أن كنة تابعت مسيرة حماتها، كما فعلت أروى الصليحية، فهي ربيبتها ومبشرة بدعوتها.

وقد سبقت أروى كثيراً من النساء المعاصرات في حكم بلاد مترامية الأرجاء بيدٍ من حديد، تُسَيِّر الجيوش، وتشيد العمران وترصف الطرق وتعمر المساجد ودور العلم وتعنى بالزراعة وتمد الجسور، وتهتم بالتجارة فتزدهر اليمن ازدهاراً لا نظير له. ولعلها أول ملكة مستقلة في الإسلام.

وما عرفت اليمن في العصور القديمة عصراً أزهى من عصر بلقيس، ولا عرفت عهداً أكثر ازدهاراً ورفاهية من عصر السيدتين الحرتين أسماء وأروى الصليحيتين في العصور الوسطى.

وسواء كنا مع أروى في مذهبها الديني أم لم نكن فإننا نكنُّ لها

الاحترام والإعجاب الكبير؛ لما حققته لليمن من سمو ورفعة وإنهاء لعهد التبعية للفاطميين.

لقد كانت أروى مصداقاً لقول الشاعر:

وما التأنيثُ لاسم الشمس عيبٌ ... ولا التذكيرُ فخرٌ للهلالِ
ولو أن النساءَ كمن عَرَفْنا ... لفُضِّلت النساءُ على الرجالِ

كان أهل اليمن يخاطبونها بلقب (الملكة الحرة) حباً بها وإجلالاً لها، وهي أروى بنت أحمد بن محمد الصليحي.

ولادتها سنة ٤٤٠هـ، ويروى أن أباها أحمد بن محمد الصليحي، هو الذي بعثه الملك علي الصليحي، مع الوفد اليمني، إلى الخليفة الفاطمي المستنصر بالله، بعد استيلائه على حصن مسار. وذلك كي يستأذن الخليفة الفاطمي في إظهار الدعوة الإسماعيلية في أنحاء اليمن. ويروي التاريخ أنه مات في عدن بسقوط بيت كان يسكنه عليه وكانت أروى في ذلك الوقت طفلة صغيرة.

أمها الرداح بنت الفارع بن موسى الصليحي، وقد تزوجت من عامر بن سليمان بن عبدالله الزواحي بعد موت زوجها أحمد الصليحي، وقد رزقت منه بسليمان بن عامر الزواحي؛ القائد الكبير الذي لعب دوراً هاماً في الفتوحات الصليحية، فكان أخا أروى لأمها.

كان أبوها أحمد بن محمد الصليحي والياً على عدن وما حولها من قبل علي بن محمد الصليحي، وقد بقي كذلك حتى مات في حادث انهدام منزله في كارثة من كوارث الطبيعة.

قامت السيدة أسماء بنت شهاب بتربية أروى وتهذيبها وتأديبها، بعد موت أبيها وزواج أمها، فأنشأتها تنشئة طيبة فاضلة؛ فكانت لها نعم الابنة العاقلة القارئة الكاتبة، تحفظ الأخبار والأشعار والتواريخ. وكانت موضع اهتمام الملك علي الصليحي الذي كان كثيراً ما يقول لزوجته أسماء: (أكرميها فهي - والله - كافلة ذرارينا وحافظة هذا الأمر على من بقي منا).

كانت أروى على جانب كبير من الأخلاق الفاضلة، إلى جانب ما تمتعت به من جمال الخَلق؛ فكانت بيضاء اللون مشربة بحمرة، مديدة القامة، معتدلة البدن تميل إلى السمنة، كاملة المحاسن جهورية الصوت، قارئة كاتبة ولها تعليقات وهوامش على الكتب تدل على غزارة مادتها. وكانت إلى جانب ذلك متبحرة في علم التأويل والتنزيل الإسماعيليين، وكان الدعاة يتعلمون منها من وراء الستر؛ يأخذون عنها ويرجعون إليها. وامتازت أيضاً بالصلاح والتقوى والخبرة الواسعة والمعرفة الفائقة بأحوال الناس، مما ساعدها على إدارة شؤون بلادها في ظروف حرجة أحاطت بالبلاد اليمنية.

ويقول التاريخ: (إنها كانت امرأة فاضلة ذات نسك وورع، وفضل وكمال عقل، وعبادة وعلم، تفوق الرجال فضلاً عن ربات الحجال)[1].

وقد استحقت السيدة الحرة أروى التقديم والتفضيل، على الأفاضل من الرجال؛ فكان الخليفة الإمام المستنصر الفاطمي قد أصدر إليها أجلَّ أبواب دعوته، فأفادها من علوم الدعوة الإسماعيلية ما رفعها عن حدود الدعاة إلى مقام الحجج الكبار.

فالصفات الكريمة التي لم تتجمع قط إلا في القليل من نساء العالم، تجمعت في الملكة الحرة أروى. يقال بأنه لا يضارعها أحد في بلاغتها وكثرة مقروءاتها، سواء كان ذلك في محادثاتها أو تعليقاتها وشروحها[2].

ويقال بأنها قالت للملكة أسماء يوماً: (رأيت البارحة «أي في المنام» كأن بيدي مكنسة وأنا أكنس قصر مولانا). فقالت لها أسماء: كأني بك والله يا حميراء قد كنست آل الصليحي وملكت أمرهم.

زواجها من الأمير المكرم:

من الطبيعي بعدما علمنا من كل هذه الصفات عن السيدة الحرة

---

(١) أروى بنت اليمن ص١١٦ و١١٧ و١١٨.

(٢) قراءة في فكر الزيدية والمعتزلة ص١٦٦.

أروى. تلك الصفات التي لم تتجمع إلا في القليلات من النساء، وما عرفنا من اهتمام الملك علي الصليحي وزوجته الملكة أسماء بنت شهاب؛ أن يختاراها زوجة لابنهما المكرم، وكان يومها ولياً للعهد وذلك سنة ٤٥٨هـ. وكان لها من العمر ثماني عشرة سنة وكان صِداقها ارتفاع عدن وما زال يرفع إليها وهو مئة ألف تزيد وتنقص[١].

وفي هذا الزواج قال الشاعر الحسين بن علي القمي قصيدة مدح بها المكرم جاء فيها:

وكريمة الحسبيْن يكنفُ قصرَها أُسدٌ تخافُ الأسْدُ من صولاتها[٢]
وتكاد من فرطِ الحياءِ تغضُّ عن تمثالِها المرئيّ في مرآتِها
ظفرتْ يداكَ بها فبخٍ إنما لكَ تذخرُ العلياءُ مضنوناتها[٣]

وقد ولدت للملك المكرم علياً ومحمداً وفاطمة وأم همدان. وأما محمد وعلي فقد توفيا صغيرين في صنعاء. وأما أم همدان فقد تزوجها أحمد بن سليمان الزواحي فرزقت منه بعبدالمستعلي. وأما فاطمة بنت الحرة فقد تزوجها علي بن سبأ بن أحمد الصليحي.

وماتت أم همدان سنة ٥١٦هـ وماتت فاطمة بعد أمها بعامين أي عام ٥٣٤هـ[٤].

كانت أروى مع حماتها أسماء تجوبان الشوارع، سافرتي الوجه لما كانتا عليه من مركز سام، ومكانة عالية. وكان الملك علي بن محمد الصليحي يشاورهما في الأمر ويعمل برأيهما.

وقد أثبتت الملكتان أسماء وأروى أن المرأة الحرة ذات الذكاء النادر والأخلاق القويمة تفوق الرجال في كثير من أمورها. وحق للشاعر أن يقول:

---

(١) تاريخ اليمن لعمارة ص٥٨.
(٢) يكنف: يحيط.
(٣) مضنوناتها: ما يضن به الإنسان ويبخل.
(٤) الصليحيون ص١٤٧.

وما التأنيثُ لاسمِ الشمْسِ عيبٌ ولا التذكيرُ فخرٌ للهلالِ
ولو أن النساء كمن عرفنا لفُضّلت النساءُ على الرجالِ[1]

الملكة الحرة السيدة أروى:

بدأت الملكة أروى نشاطها السياسي الفعلي في عهد زوجها المكرم. وفي هذا يقول عمارة اليمني في تاريخه:

لما توفيت أسماء بنت شهاب والدة المكرم، فوض الأمر لزوجته الملكة أروى فقامت بالأمر وحدها، واستعفته من نفسها وقالت: (إن المرأة التي تراد للفراش لا تصلح لتدبير أمر فدعْني وما أنا بصدده).

وكانت تستشير في أمور الدولة القاضي عمران بن الفضل اليامي، وأبا السعود بن أسعد بن شهاب الصليحي. ولما توفي المكرم زوجُها سنة ٤٧٧هـ حملت الملكة أروى وحدها عبء هذه المسؤولية الجسيمة. وأصبحت بتفويض من الخليفة الفاطمي الإمام المستنصر بالله، تتصرف في أمور الدولة والدعوة الإسماعيلية في اليمن والهند وعمان[2].

لقد أثبتت الملكة الحرة أروى ومن قبل أثبتت حماتها أسماء، أن المرأة إذا أعطيت فرصتها كان لها قصب السبق على النساء والرجال على السواء. وأنها ليست كما قال المثل السائر على ألسنة بعضهم (المرأة ناقة ولو هدرت) وأنها ليست مخلوقة لخدمة الرجل وإنجاب الأطفال فقط. وأن النظرة القاسية التي توجه إليها لتجعلها ذليلة وضيعة مهملة مملوكة، ما هي إلا ظلم فرضه عليها مجتمع كبت شعورها وسلبها تفكيرها لمدة طويلة في الماضي والحاضر[3].

---

(١) البيتان للمتنبي في رثاء أخت سيف الدولة.
(٢) أروى بنت اليمن ص١١٩.
(٣) الصليحيون والحركة الفاطمية هامش ص١٤٦.

زوجها الملك أحمد بن علي الصليحي الملقب بالمكرم:

ظهر أبو علي أحمد المكرم على صفحة تاريخ اليمن، والبلاد غارقة في حمى الاضطرابات، وذلك حين قُتل الملك علي الصليحي أبوه، وأُسرتْ أسماءُ بنت شهاب أمه. وكان يومها ولياً لعهد أبيه. وقد درّبه الملك الصليحي على إدارة شؤون البلاد، وكيفية حكمها. ثم ولاه نائباً عنه في غيابه في الحج. وكان قبل ذلك قد استعمله على الجند[1] وما جاورها من المناطق. فلما جاءه خبر مقتل أبيه وأسر أمه أسماء، والقضاء على خيرة رجال الدولة، قرر الأخذ بثأر أبيه وإطلاق أمه من الأسر وأقسم على ذلك.

اتصف المكرم بالشجاعة وكرم الأخلاق والتسامح وعلو الهمة، وكأنه نسخة من والده حتى قال عنه أحد المؤرخين: (كان المكرم ضخماً شجاعاً وفارساً مقداماً) وقد لقبه الإمام المستنصر الفاطمي بلقب المكرم. ثم أصبح ولياً لعهد أبيه؛ فأخذ يتدرب على شؤون البلاد حتى إن والده لما عزم على أداء فريضة الحج أنابه في حكم البلاد. ولما جاءه خبر مقتل والده الملك الصليحي في المهجم وأسر والدته، أحس أنه إن لم يتصرف فإن صرح الدولة الصليحية سينهار، وأنه سيُقضى على دولته قضاءً مبرماً، ولا سيما أن كثيراً من الدويلات الصغيرة التي وحّدها أبوه علي الصليحي، كانت تتحين الفرصة للوثوب.

وكاد يخرج الأمر من يد المكرم، حتى إن عدوى التمرد وصلت إلى صنعاء نفسها، لدرجة أن المكرم كان يقيم مع جماعة من خلصائه وأتباعه لا يزيد عددهم على ستمئة من الحجازيين.

---

(١) الجَنَد: قال أبو سنان اليماني: اليمن فيها ثلاثة وثلاثون منبراً قديمة وأربعون حديثة. وأعمال اليمن في الإسلام مقسومة على ثلاثة ولاة فوالٍ على الجندِ ومخاليفها وهو أعظمها، ووال على صنعاء ومخاليفها وهو أوسطها، ووال على حضرموت ومخاليفها وهو أدناها. وبالجَنَدِ: مسجد بناه معاذ بن جبل. قال صاحب معجم البلدان: ورأيت الناس يحجون إليه كما يحجون إلى البيت الحرام وبين الجند وصنعاء ٥٨ فرسخاً. معجم البلدان ١٦٨/٢.

وهنا قرر المكرم قتال الذين خرجوا عن سيطرة دولته. ومع علمه بأن هذا الخروج ساهم فيه معظم الأمراء والرؤساء والقبائل فاستعرت الأرض ناراً حوله، كان لا بد له من معالجة هذا الأمر، والتغلب على الثائرين، وإطفاء نار ثورتهم. فصمم بصدق وعزيمة مستمدة من شجاعة اليأس قدراً كبيراً، فخطب في الناس وشجع أصحابه على الولاء وملاقاة الصعاب، يذكرهم بما وعد الله به عباده الصابرين، وبما ابتلى به مواليه الطاهرين. فاستطاع مع أعوانه أن يرفعوا الحصار عن صنعاء، ويتتبعوا الأعداء فانتصروا في ناحية خَضور، انتصاراً تنفسوا بعده نسيم الأمل، وحاربوا الأعداء في كل مكان. والله يعطيهم النصر ويبسط يدهم عليه. وهذا النصر شجع أنصار المكرم على الاستماتة في الدفاع عن كيانهم، فأخذ الجو المظلم الذي أحاط بالدولة يصفو رويداً رويداً، وبدأت الشدة التي حاقت بهم تنقشع بفضل شجاعة المكرم، وحسن بلائه وشجاعة جيشه وقواده[1].

ثم أصبح لزاماً على المكرم أن ينظم جيشه ويعده إعداداً مناسباً لمواجهة الموقف؛ وهذا يتطلب الكثير من التدبير والحزم وإعمال الرأي، وذلك كي يتمكن بقوته الصغيرة من إعادة الخارجين عليه إلى صوابهم، ويأخذ بثأره من الأحباش النجاحيين بتهامة.

وقد أحسن المكرم التدبير، ورأى بمشورة خلصائه أن وجود والدته الملكة أسماء أسيرة في يد النجاحيين أمر لا يمكن التغاضي عنه.

وأصبحت الصورة قاتمة في ذهن المكرم، وقد انعكست كذلك على نفوس أصحابه فأصبحت نار الغيظ تأكل أكبادهم، وتشحذ قواهم؛ ليقفوا في وجه الفتن والثورات التي كانت منبعثة في كل مكان. ثم التوجه إلى زبيد لأخذ الثأر من بني نجاح وتخليص الملكة أسماء من سجن الأحباش.

وبصعوبة شديدة وحسن بلاء من المكرم وقواده، استطاع أن يثبت أقدام الدولة الصليحية بمحاربة جميع مناوئيه من ثائرين ومنتقضين، حتى

---

(١) أروى بنت اليمن ص٨٦ ـ ٨٨.

استقرت الأمور في صنعاء وما حولها. عند ذلك سار المكرم إلى زبيد لتصفية حسابه مع الأحول؛ فخرج من قرية العمد في عشرة آلاف راجل وفارس فخطبهم قائلاً:

(إننا لم ننزل لعرض من الدنيا نصيبه، ولا لمال نخزنه، ولا لشيء نذهب به من متاع الدنيا، سوى إدراكنا ثأرنا من هؤلاء العبيد والأحباش، واستنقاذ حريمنا. وإن قصدنا ليس الإضرار بأحد من الناس، ولا تغيير شيء مما يملكون. وعلينا ألا نعتدي على زروعهم ومواشيهم وحريمهم ونحن في طريقنا. وقد رجوت أن تكون سيرتكم جميلة، ولكم حسن الأحدوثة فتنالون حميد العاقبة والثناء، ولا أنهاكم عمن وتركم ونال منكم وحاول أن يفاجئكم)[١].

هذه الوصية تكشف عن فروسية المكرم وشهامته وكرم أخلاقه وعزة نفسه. وتظهره لنا بمظهر الرجل الذي لا يريد إلا حقه. وأنه ما أراد إلا الثأر لنفسه وقومه وإنقاذ والدته الملكة أسماء. فنهى جنده عن كل ما يخل بالنظام والآداب ويسيء إلى سمعته، ورجا ألا يكون تعدي جندي سبباً في إثارة سخط العامة عليه.

ثم قام في اليوم الثاني خطيباً فقال:

(أيها المؤمنون لا أريد اليوم غير ما سمعتموه مني بالأمس، وفيما قبله، وفيما قلته كفاية وقد كنت أعرض عليكم الرجوع وفي المسافة إمكان، فأما اليوم فقد صار الخيار إلى عدوكم لأنكم توغلتم عليه وإنما هو الموت أو العار بفرار لا يجدي) ثم تمثل بقول الشاعر:

وأورد نفسي والمهند في يدي   موارد لا يصدرْنَ من لا يحاول

وقد أخذ المكرم بثأره، وأخرج أمه من الأسر كما مر عند الكلام عن أسماء الصليحية. بعد أن قتل سعيداً الأحول، وأتي برأسه إلى المكرم. ثم

---

(١) المصدر السابق ص٩٦.

عاد إلى زبيد. وفي اليوم الأول من شوال صلّى بالناس صلاة العيد وخطبهم خطبة أفاض فيها بالدعاء لأبيه الملك الصليحي.

ثم ترك المكرم زبيد وسار وراء جياش بن نجاح، الذي هرب إلى بلاد الهند. ثم وصل إلى قرية المهجم حيث أمر بحمل جثتي والده وعمه في تابوتين إلى صنعاء فدفنهما إلى يمين الجبانة العامة، وأمر ببناء مشهد جامع لهما.

وقد مدحه عمرو بن يحيى الهيثمي بقوله:

لك الله ـ ذا السيفين ـ يكلأ ناصر فمجدك بعد الأوحد الملك قاهر

استقر الملك المكرم في صنعاء بعد أن أدّبَ العصاة، ووطد الاستقرار لليمن وأخذ يصرّف أمور دولته بحكمة ودهاء ومرونة، أخذها عن أبيه الملك علي الصليحي، إلى أن توفيت أمه أسماء بنت شهاب بصنعاء وذلك سنة ٤٦٧هـ.

كانت السيدة أسماء الصليحية قد زوجت ابنها المكرم من أروى بنت أحمد الصليحية، التي كانت كاملة المحاسن جهورية الصوت قارئة كاتبة تحفظ الأخبار والأشعار والتواريخ وأيام العرب، ولها تعليقات وهوامش على الكتب تدل على غزارة مادتها. ويقال لها بلقيس الصغرى لرجاحة عقلها وحسن تدبيرها (وكانت متبحرة في علم التنزيل والتأويل والحديث الثابت عن الأئمة والرسول عليه السلام وكان الدعاة يتعلمون منها من وراء الستر ويأخذون عنها ويرجعون إليها)[١] كما مر معنا.

وقال عنها إدريس[٢]: وكانت امرأة فاضلة ذات نسك وورع، وفضل وكمال عقل، وعبادة وعلم، تفوق الرجال فضلاً عن ربّات الحجال. وجاء في عيون الأخبار أيضاً: (وقد استحقت التقديم والتفضيل على الفضلاء من

---

(١) عيون الأخبار ج٧/٢٠٨.

(٢) الصليحيون والحركة الفاطمية ص١٤٣.

الرجال). وفي ذلك يقول أحد أقطاب الدعوة في عهدها السلطان الخطاب بن الحسن الحجوري الهمداني، رداً على اعتراض المعترضين أن الإناث لا يستحققن رتبة الحجية (درجة من درجات الدعوة):

(نقول إن القمص[1] البشرية الجسمانية لا قول بها ولا عمل عليها: إنا نجد من هو ظاهر بقميص الإناث، هو في أعلى الرتب وأشرفها، كالزهراء البتول وخديجة بنت خويلد ومريم بنت عمران، ونجد أيضاً بالعكس من هو ظاهر بقمص الذكور وهو أسفل سافلين من رتب الاستحالة).

إلى أن يقول: (ومن هذه الطريق يتبين المؤمن الولي من الجاحد الغوي. فإذا كان الظاهر بقمص الإناث، قد أحرز جميع الخلال المحمودة فقد خرج من دائرة الاستفادة وصار بمنزلة الذكور، وإذا كان الظاهر بقمص الذكور غير محرز لجميعها فهو أبداً مستفيد بمنزلة الإناث، والإناث والذكور لا من يكون من قبل الأجسام التي هي القمص عندهم، بل من قبل الإفادة والاستفادة فقط).

كيف نقلت أروى العاصمة إلى ذي جبلة:

بعد أن تزوج المكرم من أروى رأت بثاقب فكرها أن تجعل (ذي جبلة) عاصمة لها بدل صنعاء. فكانت تنتهز الفرصة لتقنع زوجها بنقل العاصمة، لذلك فقد ارتحلت من صنعاء في جيش جرار تريد الاستطلاع عن مكان تجعله عاصمة، فارتادت (ذي جبلة) المسماة باسم رجل يهودي كان يصنع الفخار ويبيعه هناك (هكذا يُقال).

والذي اختط هذه المدينة هو عبدالله بن محمد الصليحي، بأمر من أخيه الملك علي بن محمد الصليحي سنة سبع وخمسين وأربعمئة بمخلاف جعفر. وكان أخوه قد ولاه حصن التعكر المطل على ذي جبلة.

وجبلة مدينة في سفحة بين نهرين كبيرين جاريين في الصيف والشتاء. ويقال لها مدينة النهرين. ويقال في المثل المشهور: إن جبلة لا يدخلها أحد

---

(١) القمص: مفرده قميص.

إلا طاهر، وإن صباحها صباح عروس.

لما وصلت أروى إلى ذي جبلة حشدت الرعايا في مخلاف[1] جعفر، تحت ركابها وعادت إلى صنعاء. قالت للمكرم زوجها: أرسل يا مولانا إلى أهل صنعاء فليحتشدوا في غد، وليحضروا إلى هذا الميدان. فأذاع المكرم الأمر في الناس فاحتشدوا كما أرادت. ثم طلبت من زوجها أن يشرف على الناس. فلما نظر إليهم قالت: ماذا ترى يا مولانا؟ فما وقعت عينه إلا على برق السيوف ولمع البيض والأسنة. ثم أخذت المكرم إلى ذي جبلة وطلبت منه أن يحشد الناس كما فعلت في صنعاء. فأذاع الأمر في الناس. وفي الغد قالت للمكرم: أشرف عليهم يا مولانا وانظر إلى هؤلاء القوم. فلم يقع بصره إلا على رجل يجر كبشاً أو يحمل ظرفاً مملوءاً سمناً وعسلاً فقالت: (العيش بين هؤلاء أصلح وأفضل، وأسلم للمملكة، وأثبت لقواعدها وأسهل جانباً، في مصادر الأمور ومواردها. وهي متوسطة بين اليمن الأعلى والأسفل وبها يخصب العيش ويطيب المحل)[2].

وقد قال الشاعر عبدالله بن يعلى الصليحي يصف (ذي جبلة):

هبَّ النسيمُ فبتُّ كالحيران ... شوقاً إلى الأهلين والجيرانِ
ما مصر؟ ما بغدادُ؟ ما طبريَّةٌ؟ ... كمدينةٍ قد حفَّها نهرانِ
خدد لها شامٌ وحب مشرقٌ ... والتعكر السامي الرفيع يماني

كانت أروى تبغي لزوجها الاستقرار والراحة، فالمرض الذي أصابه حين خلص أمه من الأسر استمر يزداد ويزداد، والفالج الذي كان محدوداً في وجهه انتشر إلى أجزاء أخرى من جسمه. ولما جرب المكرم العيش في ذي جبلة؛ اقتنع بوجهة نظرها وجعل «ذي جبلة» مقراً وولّى على صنعاء عمران بن الفضل اليامي القاضي؛ فهي تريد السلم والخير لبلادها ولا تريد

(١) المخلاف بمنزلة الكور والرساتيق وتضاف إليه أسماء قبائل اليمن. معجم البلدان ج٥/٦٧.

(٢) الصليحيون والحركة الفاطمية ص١٣٦.

الثورة والعنف والقوة. فهو تدبير حكيم من امرأة حكيمة.

والواقع أن الملك المكرم لم يطلع حصن التعكر (المطل على ذي جبلة) إلا بمشورة الأطباء الذين نصحوه باعتزال الحكم والاعتكاف لما به من المرض. فصرف أمر شؤون الدولة إلى زوجته أروى.

هذا وقد بلغت الدولة الصليحية في عهد الملك المكرم أقصى اتساعها وأوج قوتها ولم تكسب أرضاً ولا نالت نفوذاً، أكثر مما كسبته في عهده. إذ قام الملك المكرم بأمر المُلك والدعوة معاً في شبه جزيرة اليمن، وفي الجهات المضافة إليها. ولعل الظروف التي أحاطت بالدولة في عهده، وبعد مقتل أبيه الملك الصليحي، وما ناله من انتصارات هي التي جعلت المؤرخين يصفونه بأنه (كان ملكاً شجاعاً شهماً جواداً هماماً وفارساً مقداماً) كما أبدى الخليفة المستنصر بالله الفاطمي مسرته على انتصارات المكرم بقوله: (عُرض بحضرةِ أميرِ المؤمنين ملطفٌ (أي رسالة لطيفة) يبشر بذكر سلامتك، ويسخر الأقدار لإرادتك، ومواجهتك وجوه الظفر في أبواب وجهتك. ومقاساتك للخطوب بعد الخطوب، واصطلائك بنار الحروب، مما لو جرى في مثله في السنين لكانت قضيتها عجيبة، وحالتها غريبة، فكيف في هذه الأشهر القريبة. وإنك ما لقيت ذا بغي عليك وعتوّ إلا وقمّصك الله قميص ظفرٍ به وعلو. قد جعل الله ـ وله الحمد ـ النصر للوائك عَذَباً[1]، كما جعل الأعداء لنار سيوفك حَطَباً، فامتلأ إهاب أمير المؤمنين مسرة بك وفيك، وحمداً لله كثيراً على نجاح مساعيك وإصابة مراميك، وكونك خير خلف لأبيك)[2].

وقد كان المكرم فوق ذلك فصيحاً خطيباً، مشهوراً بالثبات والإقدام. ولم يكن في زمانه من يتعاطى حمل رمحه وسيفه وقوسه، وشدة قوته وعظيم خلقته[3].

---

(١) عَذَباً: عَذَبَة السوط طرفه. وطرف السيوف.

(٢) الصليحيون والحركة الفاطمية ص١٣٩.

(٣) تاريخ عمارة ص٧٦.

ولما رأى المكرم أن العملة تعتبر من مظاهر سيادة الدولة، وأن توحيدها يعمل على رواج التجارة، أمر بصك الدينار الملكي الذي ينسب إليه وكتب عليه (السيد المكرم عظيم العرب سلطان أمير المؤمنين) قال عمارة: وإلى اليوم الدينار على هذه السكة إلى أن ولي الداعي الملك عمران بن محمد الزريعي فسك ديناراً آخر[١].

دور الملكة أروى في قتل سعيد الأحول:

لقد كان لتخطيط أروى الدور الأكبر المباشر وغير المباشر في قتل سعيد الأحول. فقد كان آل نجاح بالمرصاد لآل الصليحي. والملكة أروى لم تنسَ أبداً مقتل حميها الملك علي الصليحي، وأسر حماتها الملكة أسماء. فخططت للأخذ بالثأر وإنهاء حكم بني نجاح، وفاء منها لأبي وأم زوجها؛ لذلك أوعزت إلى أسعد بن شهاب أخي حماتها أسماء، بأن يكاتب سعيداً الأحول ويخادعه (والحرب كما نعلم خدعة) ويستدعيه. وكان أسعد محبوباً لدى النجاحيين، عندما كان عاملاً على زبيد أيام الصليحي وولده الأكرم.

أرسل أسعد الصليحي إلى سعيد الأحول مظهراً رغبته في الاستعانة به، ضد مناوئيه من العرب، حتى استماله وأطمعه في ملك آل الصليحي قائلاً له: (إن المكرم قد أصابه الفالج، وقد عكف على الملذات ولم يبق أمره إلا في يد امرأته. وأنت اليوم أقوى ملوك اليمن، فإن رأيت أن تطبق على ذي جبلة، أنت من تهامة ونحن من الجبل فنستريح من هؤلاء الخوارج).

فلما وقف سعيد الأحول على الكتاب، حسن موقع ذلك عنده واستخفه الفرح بذلك، فخرج من زبيد يريد (ذي جبلة) في ثلاثين ألف حربة.

وكانت الملكة الحرة أروى قد كتبت إلى أبي الفتوح بن أسعد بن

---

(١) وتوفي عمارة سنة ٥٦٩هـ.

شهاب وعمران بن الفضل في صنعاء، أن يخلفا نجاحاً في ثلاثة آلاف فارس ثم أن يتبعا أثره منزلاً بمنزل ففعلا.

خرج سعيد الأحول من زبيد مع جنده متجهاً نحو الشَعَر. وكانت أروى قد جهزت قوات كثيرة من مختلف الجهات، وأمرت قواتها بالإحاطة بهم وقتلهم. فأطبقت الجيوش عليه فقتل هو ومن معه، وقيل نجا منهم ألفان. وكانت مع الأسيرات أم المعارك زوجة سعيد بن نجاح الملقب بالأحول، فتعرفت على رأس زوجها من بين القتلى، فأمرت أروى بأخذ رأس سعيد الأحول على طرف رمح، ونصبه أمام طاقة أم المعارك، كما فعل الأحول برأس الملك الصليحي وأخيه، مع السيدة أسماء الصليحية. وكانت أروى تقول كلما نظرت إلى رأس سعيد الأحول أمام نافذة أم المعارك السجينة في ذي جبلة: ليت للكِ عيناً يا مولاتنا أسماء حتى تنظري رأس الأحول تحت طاقة أم المعارك.

ثم أرسلت أروى إلى أسعد بن شهاب أخي الملكة أسماء، أنْ يدخل زبيد فدخلها دون حرب؛ إذ كانت خالية من المحاربين. وقد هرب جياش بن نجاح إلى جزيرة دهلك ثانية.

وهكذا فإن أروى ـ كما يبدو من سيرتها ـ امرأة لا كالنساء، إنها متميزة نادرة فتخطيطها لقتل الأحول، يدل على عبقرية حربية وعقل مفكر واسع، ولكنها امرأة مجروحة حاقدة منتقمة. والويل للآخرين من غضب المرأة الجريحة فإنه غضب لا يبقي ولا يذر.

لم يكن المكرم قد توفي عندما انتقمت أروى لحماتها الملكة أسماء، لكنه كان يراقب الأمور من حصن التعكر عن كثب، ولم يكن يتدخل في مجرياتها لأنه مطمئن أن شؤون الدولة بيد أمينة هي يد الملكة أروى.

وأخيراً مات الملك المكرم في حصن التَعكُر[1] سنة ٤٧٧هـ وبذلك

---

(١) حصن التعكُر: قلعة حصينة، عظيمة في اليمن من مخلاف جعفر مطلة على ذي جبلة، ليس في اليمن قلعة أحصن منها. معجم البلدان ج٢/٣٤.

ختمت سيرة مجاهد كبير عاش لأجل بلاده، وبدأت بوفاته صفحة جديدة في تاريخ اليمن لا تقل عمن سبقوها أي عهد الملكة أروى الصليحية[1].

نشاط الملكة أروى السياسي:

إن مسؤولية الحكم بالنسبة لأروى كانت متدرجة؛ ففي حياة حميها علي الصليحي كانت مع حماتها أسماء مستشارتين يُعمل برأيهما في كثير من الأمور. ولما مات الملك علي الصليحي كانت من وراء زوجها المكرم، تدفعه في أعماله وتشير عليه فيما حزب به من أمر، وقد استعفته من نفسها وقالت له:

(إن المرأة التي يُرغب فيها للمضاجعة فحسب لا تصلح أن تقوم على شؤون الدولة فدعني وما أنا بصدده).

وشرعت تحكم البلاد من صنعاء إلى حضرموت ثم البحرين فالهند. وتسير الجيوش بتفويض من زوجها المكرم. وفي رواية أن المكرم كان منغمساً في اللهو والترف وسماع الموسيقى (ويبدو أن ذلك كان في أواخر حياته حين مرض ولم يعد يقوى على تصريف أمور الدولة) فظلت أروى عاكفة على تدبير شؤون الملك بكل إخلاص حتى وفاة زوجها المكرم.

لما مات الملك المكرم أخفت زوجته أروى خبر وفاته على الناس، ريثما جاء كتاب من الخليفة الفاطمي بولي العهد (علي بن أحمد المكرم). وكان هذا الكتاب هو الذي عزّز مكانة الملكة أروى وجمع الناس على وجوب طاعتها. إنه تدبير حكيم منها.

ولم يقف حسن سعي الخليفة الفاطمي الإمام المستنصر بالله عند هذا الحد، بل أمد الملك علي بن المكرم بالتأييد، وأوصاه أن يهتدي بهدي أمير المؤمنين. وكلفه بالقيام بمرافق الدعوة وأمور الدولة بقوله: (وقد رأى أمير المؤمنين أن يصطنعك ويلحقك برتبة أبيك، وينصّبك منصبه ويرقى بك

---

(١) أروى بنت اليمن ص١١٥.

درجته وأمره (أي الأمير أبا الحسن جوهر المستنصري) أن يقلوك النظر فيما كان أبوك تقلده من الدعوة الهادية والأحكام في سائر بلاد اليمن، وسائر الأعمال المضافة إليه براً وبحراً وسهلاً ووعراً، ونازحاً ودانياً، وقريباً ونائياً، حتى خصك من ملابس الإمامة بشريف الحباء)[1] كما أرسل له الأمير (أبا الحسن جوهر المستنصري) بالسجل أي (سجل التولية) وكلفه بأن يقوم بتعزية الملك علي بن المكرم في والده، وأن يشد أزره ويظهر التشريف له على رؤوس الأشهاد، ليلتف حوله المؤمنون ويجدع أنف المخالفين، وتجتمع كلمة الأمة تحت لوائه وتنقمع نار الفتنة[2] كما أرسل إلى كافة السلاطين والمقدمين والمؤمنين، بل وإلى الملكة أروى نفسها يأمرها بضرورة طاعة الملك علي عبدالمستنصر والامتثال لأوامره، وأن تعول عليه في سرها وجهرها وتستعين بأهل الدعوة في اليمن على من عاداهم وعاداها.

ثم أرسل المستنصر سجلاً آخر إلى الملك لقبه فيه بلقب (سليل الدعوة ونجلها) وقد قصد الإمام بذلك أن يشعر الجماعة في بلاد اليمن، بمكانة علي من الدعوة ويبين لهم مدى تأييد الإمام له، وأنه قد اختاره في رئاسة الدعوة والدولة في اليمن، لما كان لآبائه من فضل في رعاية الدعوة الفاطمية. وقال له: (وأعلمك أن دعاة أمير المؤمنين وأولياءه نجوم في سمائه، إذا خوى نجم أطلع نجماً، وسيوف إذا أغمد حساماً انتضى حساماً) وقد بين له المستنصر أنه قلد علياً هذا المنصب بالرغم من صغر سنه، وأنه لا ضير في ذلك لأن المستنصر نفسه قد تولى الخلافة الفاطمية وعمره دون الثامنة. وعلي بن المكرم كان في العاشرة. وقد جاز هذا في الإمامة ـ كما قال المستنصر ـ وهي الدرجة التي تلي النبوة فكيف في الدعوة التي لأمير المؤمنين أن يتصرف فيها على اختياره.

وهكذا دلت سياسة المستنصر على بُعد نظره، فقد رفض تولية السلطان أبي حمير سبأ بن أحمد الصليحي، الذي كان المكرم قد أوصى له

---

(١) الصليحيون والحركة الفاطمية ص١٤٩.

(٢) المصدر السابق ص١٥٠.

بها. والمستنصر واثق أن وراء علي بن المكرم أمه أروى وهي من القوة والكفاية، بحيث يمكن الاعتماد عليها في تنفيذ سياسة الفاطميين في اليمن فهي (سيدة ملوك اليمن وولية أمير المؤمنين) كما كان يلقبها.

وهكذا جمع كلمة أهل الدعوة وأوجب على المسلمين طاعتها مما جعل السلطان سبأ يتخلى عن المطالبة بحقه، وتمكنت من جعله نائباً عن ولدها، وحامياً لذمار دولته من المعتدين، فأبلى سبأ في ذلك بلاءً حسناً. وبذلك قضت على كل محاولة للفساد أو النيل من الدولة.

دخل سبأ في حروب متوالية مع جياش بن نجاح الحبشي، الذي هرب بعد مقتل سعيد الأحول إلى الهند. وما لبث أن عاد إلى اليمن متنكراً حين علم بمرض المكرم، واضطراب أحوال دولته. فظل جياش مختفياً في زبيد هو وزوجته الهندية وابنه (الفاتك) ثم أخذ يعد العدة لحرب سبأ الصليحي، فاتصل بالأحباش المتفرقين، بالبلاد ولما أكمل استعداداته أمر بضرب الطبول فثارت معه العامة وطردوا الوالي. ولم يمضِ شهر واحد حتى كان جياش يركب في عشرين ألفاً من الأحباش وبني عمه والموالين له.

وبدأت الحرب بينه وبين سبأ لفترة طويلة مرة مع جياش ومرة مع سبأ حتى جرت وقعة الكظائم المشهورة في اليوم الخامس من ذي الحجة عام ٤٧٩هـ حيث انهزم سبأ ومن معه، وقتل أخوه الأمير أحمد بن المظفر، وعقر فرس سبأ فاضطر أن يسير راجلاً بين الناس حتى حمله بعض جنده على جواده.

وملك جياش زبيد ولم يقدر العرب أن يستردوها بعد تلك المعركة. فقد كانت هزيمة العرب ضربة قاسية على كيان الدولة الصليحية، بل على فكرة وحدة البلاد اليمنية[1].

(١) الصليحيون والحركة الفاطمية ص١٥٤ وما بعدها. وانظر أروى بنت اليمن ص١٢٨ و١٢٩.

النزاع بين سبأ الصليحي وعامر الزواحي:

في عهد الملكة أروى قام نزاع بين الصليحيين والزواحيين، وكان هؤلاء سداة الدولة الصليحية ولُحمتها. فشغل ذلك النزاع الملكة أروى حقبة من الزمن. لأن المخالفين لها انتهزوا هذه الفرصة ووجدوا في هذا النزاع وسيلة لدك صرح الدولة الصليحية. مما دعا الملكة أروى إلى أن تعرض الأمر على الخليفة المستنصر بالله، الذي أسرع في رده وكلف الملكة بوجوب العناية لفض هذا النزاع. وشدد عليها بوضع حد لهذا النزاع حرصاً على سلامة الدولة. وأرسل لها رسالة في ذلك.

ولما كانت مسألة هذا النزاع مسألة حيوية بالنسبة لبقاء دولة الصليحيين واستمرار نفوذ الفاطميين في اليمن، فإن الخليفة المستنصر لم يأل جهداً في أن يتولاها بعنايته ورعايته، لكي يوقف تيار النزاع ويثبت قدم هذه الدولة. فبادر بإرسال رسالة إلى سلاطين الصليحيين، وإلى الزواحيين، وإلى مشايخ الحجاز، وكل رجال الدين وأهل الدعوة في اليمن؛ يحثهم فيها على تناسي الأحقاد ويأمرهم بوجوب طاعة الملكة الحرة أروى، وابنها الملك علي بن المكرم والتعاضد والتناصر في نصرة الدعوة. وتعتبر هذه الرسالة - بل هذا السجل كما تسميه الكتب القديمة - شهادة هامة على اعتراف الإمام بفضل الدولة الصليحية على الدعوة الفاطمية. كما يعتبر من أهم العوامل التي ساعدت على تثبيت مركز الدولة في الصدر الأول من حكم الملكة الحرة.

وكان من أثر هذه الرسالة - بل هذا السجل - أن انتظمت الأمور وأذعن المؤمنون هناك لأوامر الإمام ودانوا بالطاعة للملكة الحرة. وقد سُرَّ الخليفة المستنصر كثيراً حين جاءت الأخبار من الملكة بأن النزاع بين الصليحيين والزواحيين قد انتهى على أحسن حال.

وفاة الملك علي بن المكرم:

لم تطل الأيام على السلطان علي بن أحمد المكرم فقد توفي بعد أخيه الأصغر محمد فعاد سبأ يطالب بحقه في تولي أمور الدولة والدعوة. ولكن

الملكة الحرة لم تمكنه من ذلك بل قامت هي فكفلت كافة المؤمنين، والدعاة الميامين، والحدود المستجيبين خير كفالة، وأوضحت البرهان في ولاية الأئمة، وأظهرت معالم الدعوة للتابعين وما وهنت لما أصابها في سبيل الله. ثم نصبت نفسها مسؤولة عن شؤون الدولة. فاتخذ سبأ سبيلاً آخر لإقناعها بأن طلب يدها للزواج، وقد ظن أنه يستطيع أن يصل بهذه الطريقة لتحقيق غرضه في الحكم، مع أنه كان يدرك تماماً أنها لن ترضى بهذا الزواج وهي التي استعفت زوجها الملك المكرم بقولها: (إن المرأة التي تراد للفراش لا تصلح لتدبير أمر فدعني وما أنا بصدده) أما الآن وقد تولت تدبير شؤون الدولة الداخلية والخارجية وحدها، بل وأمور الدعوة أيضاً فإنه يبعد كثيراً أن تقبل بهذا الزواج السياسي.

حين رفضت الملكة أروى ذلك وأنكرته غاية الإنكار، جمع السلطان سبأ جموعه وسار من حصن أشيح بجيشه إلى ذي جبلة حيث كانت الملكة أروى؛ وذلك ليعرض قوته ويستعرض عضلاته. لكنها هي أيضاً جمعت جموعها متخذة الحذر سبيلها، تحسب للطوارىء حسابها، فتناور الفريقان وكادت الحرب تنشب بين الجيشين، لولا أن سليمان بن عامر الزواحي (وهو أخو الملكة الحرة لأمها) أنقذ الموقف بأن أشار على الأمير سبأ بأن يتصل بالخليفة المستنصر الفاطمي، ليستعين به على فض المشكلة بين الملكة أروى والأمير سبأ؛ فيقيمه حداً فاصلاً بينهما وقاضياً في حل هذه القضية.

ترك سبأ لغة الجيش والقوة والحل العسكري، ورجع إلى حصن أشيح، وهو على مسافة مرحلتين من صنعاء وأرسل إلى المستنصر رسولين اثنين هما القاضي أبو عبدالله، الحسين بن إسماعيل الأصبهاني، وأبو عبدالله الطيب. فلما وصل الرسولان إلى القاهرة، لم يرض الخليفة بحال من الأحوال استمرار النزاع بين أنصاره، فعمل على أن يجذب إليه الفريقين المتنازعين، وإقرار الوحدة بين الدولة الصليحية والدعوة الإسماعيلية واستتباب الأمن في اليمن، وفكر أن ذلك لن يتم إلا بزواج الملكة أروى من الأمير سبأ. فكتب إليها يأمرها بقبول أمر الزواج وأرسل

لها رسولاً سار بصحبة الرسولين الذاهبين إليه من اليمن، فدخلوا على الملكة وهي بدار العز في ذي جبلة، فتكلم رسول الخليفة وهو واقف بين وزرائها وكتّابها وأهل دولتها فقال: (أمير المؤمنين يقرأ السلام على الحرة الملكة السيدة الرضية، الطاهرة الزكية، وحيدة الزمن، سيدة ملوك اليمن، عمدة الإسلام ذخيرة الدين، عصمة المؤمنين، كهف المستجيبين وولية أمير المؤمنين، كافلة أوليائه الميامين ويقول لها: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ۗ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَـٰلًا مُّبِينًا ﴿٣٦﴾﴾[1] وقد زوجك مولانا أمير المؤمنين من الداعي الأوحد، المنصور المظفر عمدة الخلافة، أمير الأمراء أبي حمير سبأ بن أحمد بن المظفر الصليحي، على ما حضر من المال وهو مئة ألف دينار عيناً، وخمسون ألفاً أصنافاً، من تحف ولطائف وطيب وكساوي) فقالت: أما كتاب مولانا فأقول: ﴿إِنِّىٓ أُلْقِىَ إِلَىَّ كِتَـٰبٌ كَرِيمٌ ﴿٢٩﴾ إِنَّهُۥ مِن سُلَيْمَـٰنَ وَإِنَّهُۥ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَـٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٣٠﴾﴾[2] ولا أقول في أمر مولانا ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ أَفْتُونِى فِىٓ أَمْرِى مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّىٰ تَشْهَدُونِ ﴿٣٢﴾﴾[3] أما أنت يا بن الأصبهاني - وهو رسول الخليفة الفاطمي - فوالله ما جئت إلى مولانا من سبأ بنبأ يقين، ولقد حرفتم القول عن موضعه، وسوّلت لكم أنفسكم أمراً فصبر جميل والله المستعان على ما تصفون) ثم تقدم وزيرها زريع بن أبي الفتح والقاضي الأصبهاني ونظراؤهما للسيدة الحرة، ولم يزالوا يلاطفونها حتى أجابتهم إلى تحقيق رغبة الخليفة. فعقدوا عقد الزواج.

ولم يلبث الأمير سبأ بن أحمد أن سار في أمم عظيمة إلى ذي جبلة، فأقام شهراً والضيافات الواسعة تخرج إلى مخيمه كل يوم، حتى أُنفق عليه وعلى عساكره مثلُ ما أنفق من المهر. فرأى سبأ من عالي همتها ما حقر نفسه معها وندم على خطبتها. ويروى أنه أرسل إليها سراً يستأذنها في

(١) الصليحيون والحركة الفاطمية ص١٥٦.

(٢) سورة النمل، الآيتان: ٢٩ - ٣٠.

(٣) سورة النمل، الآية: ٣٢.

الدخول إليها بدار العز، ليوهم الناس أنه دخل بها ففعلت ذلك. وزعم قوم من ذي جبلة[1] أنه اجتمع بها ليلة واحدة ثم ارتحل في صبيحتها. وقال آخرون إنها بعثت إليه بجارية شبيهة بها فعرف ذلك السلطان سبأ، فباتت الجارية واقفة على رأسه وهو جالس لا يرفع طرفه إليها، حتى إذا طلع الفجر صلى وأمر بضرب الطبول ثم سار فلم يجتمعا بعد.

ومع ذلك فإن الملكة أروى أقامت السلطان سبأ في الدعوة والملك[2].

فضائل السلطان أبي حمير سبأ بن أحمد الصليحي:

هو الحاكم الثالث والأخير من الأسرة الصليحية أسند إليه ابن عمه المكرم أحمد بن علي الصليحي أمر تهامة والجبال المحيطة بها. ثم خلف المكرم بعد وفاته إلا أن زوجة المكرم الملكة أروى استصرخت عليه الخليفة الفاطمي المستنصر ثم رضيت بزواجها منه طاعة لأمر الخليفة ومحافظة على الدعوة والمُلك[3].

عُرف السلطان سبأ بالشجاعة والكرم والفصاحة وقول الشعر، وكان فاضلاً تقياً ورعاً زاهداً.

قال عمارة اليمني: (ويقال بأن سبأ بن أحمد ما وطيء أمة قط، ولا شرب مسكراً وكانت زوجته الجمانة بنت سويد بن زيد الصليحي تقول: أنا لا أغير على مولانا سبأ لأنه لا يطأ أمة قط.

ويضيف عمارة: والعربيات تقول: ما نسلت حواء مثل الجمانة غير أسماء بنت شهاب).

---

(١) رواية شفوية.

(٢) الصليحيون والحركة الفاطمية ص١٥٧ ـ ١٥٩ وانظر تاريخ مدينة زبيد من ص٤٥ ـ ٥٧.

(٣) الموسوعة اليمنية ج٢ ص٥٠٨ و٥٠٩.

وقد مكث في حصن أشيح، يقدم المساعدة للملكة في كل ما يعود على الدولة بالخير. أما صفاته الجسمية فكان دميم الخَلْقِ، قصيراً لا يكاد يظهر من السرج بطائل، وكان جواداً كريماً شاعراً كريم الأخلاق، أديباً فاضلاً عالماً بالمذهب الفاطمي جيداً، وبأقوال الحكماء. يثيب على المدح بالمدح، ما خيب قاصداً قط. وكان الشعراء يقصدونه فيمدحونه فيكرمهم، وربما مدحهم بشيء من الشعر مع الإثابة. وقد أقام معه في أشيح شاعره الحسين بن علي القمي ومدحه وأسرته بغر قصائده ومنها:

إن ضامك الدهرُ فاستعصِمْ بأشيحَ أو ... أزرى بكَ الفقرُ فاستمطِرْ بَنانَ سَبا[1]
ما جاءَهُ طالبٌ يبغي مواهبه ... إلا وأزمع منه فقرُه هَرَبا
تخالُ صارِمَه يومَ الوغى نَهَراً ... تضرَّمَتْ من دَمٍ حافاتُهُ لَهَبا
بني المظفر ما امتدتْ سماءُ عُلا ... إلا وأُلفيتُمُ فيَّ أفقِها شُهُبا
إن امرأ كنت دون الناس مطلبهُ ... لأجدرُ الناسِ أن يحظى بما طَلَبا

وفيه يقول شاعره الحسين بن القم هذا حين مدحه، فأجازه بجائزة سنية لا تصدر إلا عن مثله وأجابه بشعر مثل شعره:

ولما مدحتُ الهزبري ابن أحمد ... أجازَ وكافاني على المدحِ بالمدحِ
فَعَوَّضني شِعراً بشعري وزادني ... نوالاً فهذا رأسُ مالي وذا ربحي
شققتُ إليه الناسَ حتى لقيتُهُ ... فكنتُ كمن شقَّ الظلامَ إلى الصبحِ
فقُبحَ دهرٌ ليس فيه ابنُ أحمدٍ ... ونُزِّهَ دهرٌ كان فيه ـ من القبحِ

وفيه يقول ابن القم أيضاً:

وما يلتقي صدقُ الودادِ وطاعةُ الـ ... ـعذول، ولا جودُ ابن أحمدَ والجدبُ

---

(١) أشْيَح: اسم حصن منيع عال جداً في اليمن. قال عمارة اليمني: إن المشرق في أشيح مكشوف من الجبال لعلو ذروته.. وبيت الشعر موجود في معجم البلدان:

إن ضامك الدهر فاستعصم بأشيح أو ... نابك الدهر فاستمطر بنان سبا

معجم البلدان ج١/٢٠٢.

كـريـمٌ إذا جـادتْ فـواضـلُ كـفِّـهِ تيقنتَ أن البخلَ ما يفعلُ السحبُ
أجـار فـلا خـوفٌ وأحـيـا فـلا رَدَى وجـادَ فـلا فـقـرٌ ورامَ فـلا صَـعْـبُ
ويـثـنـي عـلـى قـصّـادِهِ فـكـأنّـه يجاد بما يُجْدي ويُحبئ بما يحبو
كـتـبـتُ إلـيـه والـمـفـاوزُ بـيـنـنـا وكان جوابي جودُ كفّيه لا الكتبُ

ومن شعر ابن القم فيه أيضاً:

مـعـالـيـكَ لا مـا شـيـدتـه الأوائـلُ ومـجـدُك لا مـا قـالَـه فـيـك قـائـلُ
وما المجدُ إلا حيثُ يَمَّمْتَ قاصداً ومـا الـنـصـرُ إلا حـيـثُ تـنـزلُ نـازِلُ
مليكٌ يغضُّ الجيشَ والجيشُ حافِلٌ ويُخجل صوبَ المزنِ والغيثُ هاطِلُ
سـحـابٌ غـواديه، لـجـيـنٌ وعـسـجـد ولـيـث عـواديـه، قـنـاً وقـنـابـلُ
تَـوَقـى الأعـادي بـأسـه وهـو بـاسـم ويـرجـو الـمـوالي جوده وهـو صـائلُ

بقي الأمير يقدم المساعدات للملكة أروى في كل ما يعود على الدولة بالخير، إلى أن وافته المنية سنة ٤٩١هـ ثم مات بعده أخو الملكة أروى لأمها عامر بن سليمان الزواحي وكانا من أركان الدولة الصليحية. وهما المستشاران والدعامتان للملكة أروى، ولما مات الأمير سبأ وأخوها عامر خرجت صنعاء وأعمالها عن مملكة الصليحيين، وارتفعت أيديهم عنها، ولم يبق لأحد منهم فيها ذكر، فاستولى على صنعاء وأعمالها يومئذ السلطان حاتم بن الغشيم المغلس الهمداني. ولم تحاول الملكة أروى إعادتها إلى مملكتها بل قبلت الأمر الواقع، واتجهت إلى تدعيم ما بقي من المملكة واستولت على ما حولها من الأعمال والحصون وأقامت لها وزراء وأعمالاً. وامتدت أيامها بعد ذلك أربعين سنة وهي تحكم ويُدعى لها على المنابر، وبقيت الحاكم غير المنازع حتى توفيت سنة ٥٣٢ وعمرها اثنتان وتسعون سنة[١].

اتجهت الملكة أروى إلى تدعيم ما بقي لها من مملكتها؛ فأقامت المفضل بن أبي البركات الحميري على قيادة الجيش وإدارة شؤون الدولة،

(١) الموسوعة اليمنية ج٢/٥٠٨.

التي كانت بحاجة إلى شخصية قوية. وكان هذا الوصف ينطبق على المفضل الذي نشأ في قصر الملكة، وهو من صغار الدار ـ كما يقول كتاب (الصليحيون والحركة الفاطمية)[1] ـ الذين يدخلون على الملكة برسائل زوجها الملك المكرم. ولما مات المكرم جعلت ولاية التعكر إلى المفضل، والتعكر كما هو معروف مقر ذخائر آل الصليحي التي آلت إليهم من ملوك اليمن. وكانت الملكة أروى تطلع من ذي جبلة في أيام الصيف، فتقيم به. وإذا برد الجو سكنت بذي جبلة. والمفضل يتصرف حسب أوامرها، ويدخل عليها مع خواص وزرائها والأمراء والأكابر من عبيدها. وهو رجل الدولة ومدبرها والمرجع إلى رأيه وسيفه، والحرة لا تقطع أمراً إلا به فعظم بذلك شأنه وعلت كلمته، وغزا تهامة مراراً فتارة له وتارة عليه. وهبط عدن مراراً وكان له في نصرة الملكة أروى مواقف حميدة.

مواقف المفضل مع الملكة أروى:

للمفضل في نصرة الملكة أروى مواقف كثيرة حميدة، منها أنه تولى قيادة الجيش لمواجهة السلطان سبأ بن أحمد الصليحي، حين خطب الملكة الحرة ولم تجبه إلى طلبه. كما حارب شمس المعالي علي بن سبأ بن أحمد الصليحي وهو زوج فاطمة بنت المكرم من الحرة. وقصة ذلك كما حدثنا عمارة: أنه تزوج عليها فكتبت إلى أمها تستنجدها فأمدتها بالمفضل في عساكر، ولبست فاطمة زي الرجال وفصلت من حصن زوجها في عسكر المفضل فسيرها إلى أمها الملكة، وأدار الحصار حول شمس المعالي حتى أخرجه من الحصن. ثم دسّ عليه من قتله بالسم سنة ٤٩٥هـ.

وحدث خلاف بين أولاد جياش النجاحي وكادت الفتن تقضي على دولتهم في تهامة، ولم تنتهز أروى فرصة ذلك الخلاف، لكن أحد أولاد جياش سار في عبيده وعبيد أبيه فنزلوا في رحاب الملكة أروى وتحت حمايتها، فأكرمت مثواهم وحمتهم فتعهدوا للملكة بدفع ربع محصول تهامة

(١) الصليحيون والحركة الفاطمية ص١٦٢.

إذا ساعدتهم. وتم نصرهم فأرسلت المفضل بجيش كبير استطاع أن يستولي على زبيد بعد حصار طويل. وله مواقف كثيرة أخرى في الحفاظ على ملك السيدة الحرة أروى.

أما نهاية المفضل فكانت كما ذكرها عمارة في تاريخه:

إن عمي إبراهيم بن محمد بن زيدان كانت له البيعة، فحلف ألا يموت حتى يقتل المفضل فعمد إلى حظاياه من السراري وأخرجهن في أكمل زي وأحسنه، وجعل بأيديهن الطارات وأطلعهن على سقوف القصور بحيث يشاهدهن المفضل ويسمع هو وجميع من معه أصواتهن[1]، وكان المفضل أكثر الناس غيرة وأنفة. وقيل إنه مات في تلك الليلة. رمضان/٥٠٤هـ، وقيل إنه امتص خاتماً مسموماً كان بيده فأصبح ميتاً والخاتم في فيه.

لقد قيّض الله للملكة الحرة أروى رجالاً مخلصين كانوا تحت إمرتها إطاعة وإخلاصاً، من بينهم الأمير المفضل الذي كان حازماً عاقلاً شجاعاً شهماً، له عدة مكارم وجملة مفاخر كما يقول كتاب (الصليحيون والحركة الفاطمية)[2] لكنه دون مكارم سبأ بن أحمد، وكان جواداً ممدحاً قصده الشعراء من الأماكن البعيدة.

وهو الذي ـ أي المفضل ـ جر الغيل من خنوة إلى مدينة الجنَد، بأمر من الملكة أروى فمدحه القاضي أبو بكر اليافعي فقال:

وأقلُّ مكرمةٍ له وفضيلةٍ   إجراؤه للغيلِ في الأجنادِ[3]
شق الجبال الشامخات كأنما   كانت معالمُها متونَ وِهادِ

وذلك أنه حفر في الصفا حفراً عديدة، وخرق بعضها إلى بعض

(١) أروى بنت اليمن ص١٣٦ و١٣٧.
(٢) الصليحيون والحركة الفاطمية ص١٦٥.
(٣) الغيل: الماء الجاري على وجه الأرض. والأجناد: جمع جَند والجَنَد: الأرض الغليظة وحجارة تشبه الطين. لسان/جند.

وأجرى الماء فيها في مواضع لا يصدق بها إلا من رآها. ثم لما جاء إلى موضع بين الجبلين أمر الصنّاع فبنوا جداراً من الجبل إلى الجبل طوله مئتا ذراع، وعرضه نحو من عشرة أذرع بالحديد، وارتفاعه نحو من خمسين ذراعاً بحيث إذا رآه شخص يقول: ما فعل هذا إلا الجن.

وبنى مسجد الجَنَد وجدد بناءه من المقدم والجناحين ما هو مبني بالحجارة وسقفه كذلك.

ويقال إن شاعراً مدحه فوصله المفضل بألف دينار.

وكان من صفات المفضل أنه عندما عظُم أمرُه كان يحتجبُ عن الناس فترة، حتى لا يرجى لقاؤه ثم يظهر فيغني من اجتمع ببابه من الوفود، ويصل إليه الضعيف والقوي فينظر في أحوال الأعمال والعمال، ويجيب عن كل كتاب وصل إلى الباب ثم يغيب فلا يظهر ولا يوصل إليه وهكذا.

وقد أدت وفاة المفضل إلى خروج بعض الجهات على الملكة أروى فاستولى مسلم بن الزر على حصن خُدد، وأخرج منه حاكمه الصليحي. ثم أظهر ولاءه إلى الملكة أروى بأن قدم ولديه عمران وسليمان رهينة لديها. فاهتمت الملكة أروى بتربيتهما ثم ولت كلاً منهما حصناً من الحصون.

وحرصاً على سلامة الدولة أقامت الملكة أروى مقام المفضل ابن عمه الأمير أسعد بن أبي الفتوح الحميري للقيام بدولتها، والدفاع عن مملكتها، والتوجه أينما أمرته فأخذ يدير شؤون الدولة على أحسن حال حتى غدر به رجلان من أصحابه فقتلاه بين البابين في حصن تعز سنة ٥١٤هـ.

مع ابن نجيب الدولة:

تسرب الضعف إلى الدولة الصليحية بعد وفاة القادة والدعاة الأقوياء والمخلصين، وتقلصت رقعة الدولة باستقلال بعض البلدان عنها. ولما تعقدت الأمور على الملكة أروى رأت أن تطلب من الخلفاء الفاطميين في مصر إعارتها مستشاراً يساعدها في تدبير شؤون دولتها. وقد شعرت الدولة الفاطمية بأن مركز الدولة الصليحية بدأ يتزعزع فبادر الوزير الأفضل ابن بدر

الجمالي سنة ٥١٣هـ إلى إرسال الموفق (علي بن إبراهيم بن نجيب الدولة) يصحبه عشرون فارساً مختاراً إلى بلاد اليمن ليقوم بمساعدتها ويعيد الأمور إلى نصابها في الدولة الصليحية، ويقضي على الحركات المناهضة والمواقف العدوانية ضد الملكة وضد الدولة.

وكان ابن نجيب الدولة عند حسن ظن الدولة الفاطمية. فلما وصل إلى جزيرة دهلك لقيه أحد الدعاة الإسماعيليين فكشف لابن نجيب الدولة أسرار اليمن، وأحوال الناس وأسماءهم وكناهم، وتواريخ مواليدهم وما تحت ثيابهم من شامة أو جراح أو أثر نار[(١)].

وصل ابن نجيب الدولة إلى ذي جبلة وتشرف بمقابلة الملكة الحرة فقلدته إمرة جيوشها فاستخدم أربعمئة فارس من همدان، وغيرهم فاشتد بهم جانبه وقويت شوكته. وتمكن من وضع حد للخلافات الداخلية وإعادة الأمن والطمأنينة للبلاد.

كان ابن نجيب الدولة متفقهاً في أصول الدعوة الإسماعيلية متبصراً في المذهب الشيعي الجعفري وكان على خزائن الكتب الأفضلية في مصر. وكان نبيهاً حسن التدبير كثير المحفوظات قيماً بتلاوة القرآن على عدة روايات. وكان يلقب بألقاب تدل على سمو قدره، وكان موضع ثقة الخلافة الفاطمية. وكان عليه ترسيخ الدعوة الفاطمية في اليمن وتعزيز مركز الملكة أروى بعد أن فقدت أفضل رجالها وأشجع قوادها، فطمع فيها زعماء البلاد المجاورة لها وبدؤوا يستقلون بما تحت أيديهم. ولا سيما أنها بدأت تكبر سناً.

كان أول عمل قام به ابن نجيب الدولة هو تأديب الخولانيين؛ لأنهم كانوا قد بسطوا أيديهم على الرعايا في البلاد واستهانوا بالسيدة الحرة، فطردهم من ذي جبلة ونواحيها ولم يبقِ إلا على من كان منتسباً للملكة.

---

(١) الصليحيون والحركة الفاطمية ص١٦٩.

فلما رأت ذلك منه أمرته أن يسكن الجنَد[1].

وقد أمنت البلاد واستقرت الأمور ورخصت الأسعار بحسن سياسته وتدبيره وبتوجيهات الملكة أروى. وأقام العدل، وعفّ عما في أيدي الناس من الأموال وأقام الحدود. وعز به جانب الملكة وارتدع أهل اليمن عن الطمع في أطراف بلادها. وقد كان برنامج ابن نجيب الدولة مقصوراً على إخضاع إمارات اليمن الصغيرة للسيدة الملكة الحرة. فتحسنت بجهوده الدعوة في اليمن وقويت شوكتها. كما ساعد الملكة أروى على جمع شمل كل من كان تفرق عنها. وقد وصل ابن نجيب الدولة إلى هذا النجاح خلال عامين بين سنة ٥١٣ ـ ٥١٥هـ واستمر نجمه في صعود ولا سيما حين أرسل له المأمون البطائحي (الذي تولى الوزارة بعْد ابن بدر الجمالي في مصر) مدداً من المال والرجال مما رفع شأنه عند الملكة أروى ولا سيما بعد أن كتب له الوزير البطائحي بالتفويض في الجزيرة اليمنية وبسط يده ولسانه. وفرض عليه تقديم المساعدة للملكة أروى في كل ما تطلبه.

ولقد أطمعه هذا المركز الحربي الممتاز في محاربة الدولة النجاحية في زبيد سنة ٥١٨هـ لكنه انهزم أمامهم وركب إلى ذي جبلة حيث الملكة أروى، فاجتمع بها فعاضدته وأعطته الأموال وجمّعت إليه الرجال فما زال يغزو الأعداء حتى أقصى البلاد.

على أن ابن نجيب الدولة لم ينج من حسد منافسيه الذين أخذوا يوقعون بينه وبين الملكة الحرة. فأخذت علاقته بها في الفتور منذ سنة ٥١٩هـ حتى إنه (أي ابن نجيب الدولة) رماها بالخبل فقال: (ولقد خرفت واستحقت عندي أن يحجر عليها).

---

(١) الجَنَدُ: سميت بجَنَد بن شهران (بطن من المعافر) وفي الجند مسجد بناه معاذ بن جبل رضي الله عنه. وقد رئي الناس يحجون إلى هذا المسجد كما يحجون إلى البيت الحرام. وبين الجند وصنعاء ثمانية وخمسون فرسخاً. وقد نسب إلى الجند كثير من أهل العلم وعلى رأسهم طاوس بن كيسان اليماني. عن معجم البلدان ج١٦٩/٢.

ثم اجتمع عليه سلاطين اليمن في ألفي فارس وثلاثة آلاف راجل فأحاطوا به في الجَنَد وكانت الجَنَدُ ذات سور. ولما اشتد الحصار على ابن نجيب الدولة وهو في أشد التعب أرسل إلى الملكة أروى يطلب النجدة، فأرسلت على جاري عادتها إلى عمرو بن عرفطة الجنبي فأتاها فخيم في ذي جبلة وبعثت إلى وجوه القبائل ففرقت فيهم عشرة آلاف دينار مصري وقالت للرسل: أشيعوا في العسكر أن ابن نجيب الدولة فرق في الناس عشرة آلاف دينار مصرية، فإن أنفق السلاطين شيئاً من الذهب المصري بقينا وإلا ارتحلنا. فلما خوطب السلاطين بذلك وعدوا الناس فلما كان الليل ارتحل السلاطين كل إلى بلده هرباً من مطالبة العسكر لهم. وبذلك أصبحت الحشود من كل بلد بلا رأس فانفض الناس عن الجَنَد بهذه الحيلة الحربية. وقيل لابن نجيب الدولة: هل أبصرت هذا التدبير من التي قلت إنها قد خرفت؟!

لقد أصبح الأمراء بلا جيش والجيش بلا أمراء. فركب ابن نجيب الدولة إلى ذي جبلة وتنصل لها واعتذر[1] فأنقذ نفسه ونال عفو الملكة الحرة.

لكن هذه الطريقة التي أنقذت ابن نجيب الدولة ودلت على دهاء الملكة أروى وحنكتها، وحرصها على إبقاء كلمة الفاطميين في اليمن هي العليا، قد أغضبت سلاطين اليمن لإخفاقهم في التشفي من منافسهم.

ولما رأى الخليفة الفاطمي أن سياسة ابن نجيب الدولة التي رسمها له الفاطميون، قد حادت عن خطتهم المرسومة، أرسل إليه يستدعيه إلى مصر مع رسولٍ له. فانتهز سلاطين اليمن الفرصة واتصلوا برسول الخليفة الفاطمي فشوهوا سمعة ابن نجيب الدولة. وانتهى الأمر بالقضاء على ابن نجيب الدولة. وكان ذلك كما يقول عمارة بأن سلمته الملكة أروى لرسول الخليفة

(١) عمارة اليمني ٠٠٠ ـ ٥٦٩هـ: مؤرخ ثقة وشاعر فقيه أديب من أهل اليمن لم يزل موالياً للفاطميين حتى دالت دولتهم، واتفق مع سبعة من أعيان مصر للفتك بصلاح الدين فعلم بهم فصلبهم بالقاهرة. عن الأعلام ج٥/٣٧.

بعد أن بَرّأته مما نُسب إليه، وأظهرت براءته وطهارته وإخلاصه، وأوصت به خيراً واستوثقت له من رسول الخليفة (ابن الَخياط) بأربعين يميناً. وكتبت إلى الخليفة الآمر وأرسلت إليه بدرة من الجواهر تقوّم بأربعين ألف دينار - على ذمة عمارة - ثم خرج ابن نجيب الدولة من ذي جبلة وهو في قفص من خشب والناس ينظرون إليه فقال لهم: (وماذا تنظرون؟ أسد في قفص).

واختلف المؤرخون في نهاية ابن نجيب الدولة فبعضهم يقول: إن السيدة الحرة سلمته إلى رسول الخليفة. وبالرغم من شفاعتها للخليفة وأخذها الأيمان الغليظة، على رسول الخليفة ألا يمسه بسوء، تآمر أعداؤه مع الرسول على إغراقه وقد تم ذلك عند باب المندب كما أغرق معه رسول الملكة الحرة. ورواية أخرى تقول إنه وصل إلى مصر وشُهّر به في القاهرة في سنة ٥٢٤هـ. وقيل إنه لا يعلم أحد ما جرى لابن نجيب الدولة بعد خروجه من اليمن.

ومهما يكن من أمر فإن نجم ابن نجيب الدولة قد أخذ في الأفول، منذ أن دب النزاع بينه وبين الملكة أروى، ومع ذلك فإن الملكة الحرة فقدت بخروجه من اليمن أنشط أنصارها ومساعديها. ثم اختارت علي بن عبدالله الصليحي للدفاع عن دولتها، لكنه لم يكن على قدر المسؤولية لذلك بدأت الدولة الصليحية بالانهيار. ولم يحدثنا تاريخ اليمن عما قام به من أعمال.

والذي يبدو أن أمراء اليمن تاقت نفوسهم إلى الاستقلال والاحتفاظ بما تحت أيديهم من القلاع والحصون والبلاد عندما انفردت الملكة الحرة بالحكم في آخر أيامها. وبالرغم مما بذلته من جهود واستعملته من حكمة ودهاء، وما اعتمدت عليه من الرجال المشهورين بالكفاءة والمقدرة والإدارة، وبالرغم من معاضدة الخلافة الفاطمية في القاهرة لها[1] لكن عوامل

(١) الصليحيون والحركة الفاطمية ص١٧٣ واليمن في ظل الإسلام ص١٣٢ وأروى بنت اليمن ص١٤٧.

الانحلال تسربت إلى قلب الدولة فكانت أقوى من عوامل البناء فتغلبت عليها أخيراً.

بين الفاطميين والملكة أروى:

لم تكن علاقة أي حاكم يمني بالخارج تتعدى اللقاء الروحي والاتفاق في وجهات النظر الدينية، وفيما عدا ذلك فالاستقلال تام حتى لا تتسبب التبعية في خلق الاضطرابات وهز ثقة المحكومين بحكامهم. وبفضل ذلك الموقف أو تلك العلاقة اقتصر طموح الخليفة الفاطمي في مصر على أن تكون له علاقة حسنة بالحاكم في اليمن. وكان الدعاء له على منبر أحد المساجد أقصى ما يحلم به. وهذا كل ما حققته الدولة الفاطمية في ظل الدولة الصليحية، فلم تصبح دولة فاطمية بل دولة صليحية نسبة إلى مؤسسها علي بن محمد الصليحي[1].

أما بالنسبة للملكة أروى ففي الشطر الأول من حكمها منحها الإمام لقب «حجة»، قال صاحب عيون الأخبار[2]: (فرُفعت بذلك عن حدود الدعاة إلى مقامات الحجج وكفلت كافة المؤمنين والدعاة الميامين والحدود والمستجيبين خير كفالة. وأوضحت البرهان في ولاية الأئمة عليهم السلام وأظهرت معالم الدعوة للتابعين وأبانت وما وهنت لما أصابها في سبيل الله. ويكفي ما كان يخاطبها به الخليفة الفاطمي في قوله: (الحرة الملكة السيدة الرضية الزكية، وحيدة الزمن وسيدة ملوك اليمن، عمدة الإسلام، وذخيرة الدين، عصمة المسترشدين، كهف المستجيرين، ولية أمير المؤمنين، وكافة أوليائه الميامين)[3] وغاية الخلفاء الفاطميين من كيل الألقاب كيلاً للملكة الحرة أروى، أن يحافظوا على ارتباطهم الاسمي باليمن، وقد بلغ عدد الألقاب للملكة في بعض الرسائل أكثر من خمسة عشر لقباً. وهذا يدل من

---

(١) مواقف نسائية رائدة ص١٢٣.

(٢) عيون الأخبار ج٧/١٤١.

(٣) اليمن في ظل الإسلام ص١٧٢.

طرف خفي على ضعف الفاطميين وقوة الصليحيين ممثلين بالملكة.

وقد استعانت أروى لتثبيت قواعد الدعوة الفاطمية بقاضي القضاة (لمك) الذي لقب في عهدها بداعي البلاغ. واستمر القاضي بوظائفه العديدة إلى أن توفي سنة ٥١٠هـ. فخلفه ابنه يحيى في نفس الوظيفة إلى جانب الملكة أروى (فاستمر ينصب الدعاة ويوضح ملامح الدين ويحيي مراسمه، ويبين شريعته ويفسر تأويله وحقيقته)[١] وبفضل جهوده إلى جانب السيدة الحرة، تمكنت الدعوة ورسخت في بلاد اليمن وسميت بالدعوة المستعلية وأضيفت إليها عُمان والهند. وزادت ثقة الإمام بالصليحيين لأنهم برهنوا على صدق إخلاصهم لمذهبهم وولائهم له.

ولما توفي الخليفة المستعلي سنة ٤٩٥هـ وخلفه ابنه الآمر قامت الملكة الحرة بالدعوة له خير قيام، وساعدها في ذلك الداعي يحيى بن لمك. فاستقامت بهما أمور الدين في أقطار اليمن، ووضحت بهما الفروض الشرعية والسنن ومضت بهما الأحكام، وأقيمت شعائر الإسلام وعرف الحلال والحرام. واستمر يحيى يعمل مع الملكة الحرة إلى أن توفي عام ٥٢٠هـ.

ولما تبين للملكة أن مملكتها أخذت تتزعزع أركانها قررت بثاقب فكرها، أن تفصل الدعوة عن الدولة فصلاً تاماً كما هي الحال في مصر. حتى تباشر الدعوة نشاطها العملي والديني مستقلة عن تأييد الدولة؛ ففصلت هيئة الدعوة عن إدارة الحكومة وأصبحت منظمة دينية بحتة يعوزها تعاون الدولة وتأييدها. وهي من أول تسلمها أمور الحكم لم تجبر أحداً على اعتناق مذهبها بل تركت للجميع الحرية المذهبية.

وقد رزق الآمر (الخليفة الفاطمي) بمولود ذكر سماه الطيب وكناه أبا القاسم، وكتب سجلاً إلى الملكة أروى يقول فيه: (فإن نعم الله عند أمير المؤمنين لا يحصى لها عد.. ومن أشرفها لديه قدراً؛ أن رزقه مولوداً ذكياً مرضياً، براً تقياً سماه الطيب؛ لطيب عنصره. وكناه أبا القاسم كنية جده نبي الهدى، ولمكانك من حضرة أمير المؤمنين المكين، ومحلك الذي

(١) عيون الأخبار ١٤٤/٧.

امتنع عن المماثل والقرين، أشعرك هذه البشرى؛ لتأخذي من المسرة بها بأوفى نصيب، وتذيعيها فيمن قبلك من الأولياء المؤمنين)[1].

أذاعت الملكة بشرى المولود الجديد في أنحاء المملكة، وأخذ دعاتها البيعة لولي العهد الجديد. وأمرت الملكة عند قراءة مجالس الحكمة بالصلوات على الطيب بن الآمر. ولم يلبث أن قتل الآمر وتولى بعده الحافظ لدين الله. واختفى الطيب.

أما الملكة أروى فقد اعترضت على تولية الحافظ للخلافة واعتبرته مغتصباً لها من صاحب الحق الشرعي فيها وهو الإمام الطيب.

وقد حاول الخليفة الحافظ عبثاً التقرب إلى الملكة الحرة، والتودد إليها بقوله: (حجة الأئمة في الجزيرة العربية ذات الرتبة السنية من ولي عهد المسلمين وابن عم أمير المؤمنين).

ثم كتب إليها (من أمير المؤمنين) فقالت: أنا أروى بنت أحمد بالأمس، وهو ولي عهد المسلمين واليوم أمير المؤمنين، لقد جرى في غير ميدانه، وادعى أمراً يبعد عن مكانه. وأعلمت أهل دعوتها أنه قد نكث عهده، وخالف رشده، وادعى ما ادعاه الظالمون من قبله، وارتقى إلى مقام ليس من أهله[2].

كانت الملكة أروى حجة إمامها الفاطمي في الجزيرة اليمنية؛ لذلك كانت تتمتع بقسط وفير من السلطان المطلق، في أمور الدعوة «قبل انفصال اليمن عن مركزها الرئيسي بالقاهرة».

وقد وصل الأمر بها أن تملي شروطها ومواقفها على عاصمة الخلافة؛ فقد أعلنت معارضتها للخليفة الحافظ، ورفضت الانصياع له بل وخرجت عليه وعلى الخلافة الفاطمية، واستطاعت بذكائها أن تبرر ذلك الخروج بميولها نحو الطيب ابن الخليفة الآمر. وأنهت بذلك أي وجود صوري للنفوذ والتبعية.

---

(١) اليمن في ظل الإسلام ص١٧٧.

(٢) اليمن في ظل الإسلام ص١٧٩ و١٨٠.

ولو أن خروج أروى على الدعوة الفاطمية كان قد حدث في بداية عهدها، أو في قوة الدولة الفاطمية، لكان الأمر عسيراً، لكن خروجها حصل في أواخر الخلافة الفاطمية، التي كانت تترنح للسقوط وتميل شمسها نحو الغروب، لقد عرفت كيف تستغل المناسبة.

إن حكم السيدة الحرة أروى لليمن قد حافظ على الاستقلالية والسيادة الوطنية. وامتد بنفوذ اليمن إلى مناطق بعيدة كعمان والهند، والبحرين والأحساء فحققت للبلاد مجداً مادياً ومعنوياً دون تفريط في أي حق.

ويبدو أن الملكة أروى ظهرت في أخطر مرحلة من المراحل التي مرت بها اليمن داخلياً وخارجياً؛ فالفاطميون كانت تربطهم بالدولة الصليحية علاقة وطيدة، في إطار المذهب المشترك. فأصبحوا بعد غياب مؤسس الدولة، يحلمون بأن يكون لهم من النفوذ المادي بقدر ما لهم من النفوذ الروحي. لكن أروى استطاعت أن تقطع صلاتها نهائياً بالخلافة الفاطمية.

كيف حكمت السيدة أروى اليمن:

تدرج حكم الملكة الحرة لليمن درجة درجة ومرحلة مرحلة. فقد استفادت من أستاذتها وأمها الروحية أسماء فائدة كبرى. ثم ساعدت زوجها الملك المكرم في حكم البلاد فكانت تلك المشاركة تمهيداً وتدريباً لها، وكانت منذ تسلمه زمام الأمور ثم أثناء مرضه حتى مات. فقبضت هي على البلاد بيد من حديد، بحزم وعزم تسير الجيوش وتؤدب العصاة. فقد ذكر الجندي في تاريخه أن ابن بخيت الدولة كان حافظاً لدار العز في جبلة، وكان على اتصال بالسيدة أروى في كل ما يتعلق بأمر الدولة، ثم ولته أمر الجَنَد، فخرج عن طاعتها، فجهزت له جيشاً، قوامه عشرون ألف مقاتل بل أكثر، ما بين مشاة وفرسان فسيق إليها ابن بخيت الدولة طائعاً مستغفراً[1].

وكانت إلى جانب ذلك على مكانة من الفضل والأدب والمعرفة

(١) الصليحيون والحركة الفاطمية ١٦٢ و١٦٣.

والدهاء وسمو التفكير وسداد الرأي ولها في اليمن كثير من المحاسن والأعمال الخيرية الجليلة، والإنشاء والبناء إلى جانب منزلتها الدينية. إذ يقول أحد العلماء بالإسماعيلية ومذهبهم: إنها تعد من زعماء الإسماعيليين؛ فقد استطاعت ممارسة الدعوة والحكم بفضل وقوف الدعوة والدعاة إلى جانبها من جهة، ولما كانت تتمتع به من صفات شخصية وبعد نظر وعلم من جهة أخرى[1].

وقد حكمت أروى حكماً مستنيراً وسعت إلى تنمية اقتصاد البلاد ورفع مستوى المعيشة لأن الاقتصاد في نظرها ذو أهمية كبرى لا تقل عن أهمية الدفاع، وتثبيت الدولة سياسياً. ولعل في طريقة اختيارها للعاصمة (ذي جبلة) أفضل برهان على ذلك المبدأ؛ فقد اختارت المنطقة التي عكف سكانها على زراعة الأرض، واستغلال خيراتها، والانشغال في تنمية اقتصادهم. وتركت المدينة التي نزع أهلها نحو إثارة المشاكل، واستخدام العنف والتستر وراء السلاح. ولكي توفر لشعبها متطلباته من اللحوم والأجبان والألبان اهتمت برعي الماشية وتحسين نسلها، وأقطعت أراضي واسعة للمزارعين لرعي البقر فيها.

ثم مهدت سبيل التجارة وذلك بفتح الطرق وتمهيدها. واهتمت بالتعليم فأنشأت الكثير من المدارس والمساجد ووسعت جامع صنعاء، ويقال بأنها أمرت أن يُكتب فيه جميع أسماء الأئمة ـ من الإمام علي بن أبي طالب حتى إمام عصرها ـ على الحائط القبلي من المسجد الجامع. وشيدت مسجد (الضربة) في بلاد (يريم)[2] والمسجد الجامع في ذي جبلة.

كما بلّطت مدينة جبلة بالأحجار والقضاض، وشقت طريق سمارة[3] إلى السياني وتعز[4]، وغيرها من المحاسن والمساجد، ومعاهد العلم

(١) الموسوعة اليمنية ص٥٣٩.

(٢) يريم: حصن باليمن بيد عبدعلي بن عواض في جبل تيس. معجم البلدان ج٥/٤٣٥.

(٣) سمارة في معجم البلدان سمار.

(٤) سمارة وسيّا: صقع في اليمن. وتَعِزُّ: قلعة عظيمة من قلاع اليمن المشهورات.

والوقفيات الكبيرة، والصدقات ورواتب العلماء والمرشدين والمدرسين. واهتمت بإيصال المياه من خنوة إلى مدينة الجند، وأنفقت أموالاً كثيرة في شق الجبال وإقامة الأعمدة والكضائم[1]. وفي زمنها حفرت الترع والقنوات، وكانت خزائنها مترعة بالذهب. ويقال إن من بين الأشياء التي فرضت عليها الضريبة المسك والكافور والعنبر والصندل والأدوات الصينية. وكانت التجارة الهندية تأتي إلى الموانىء اليمانية بكثرة عظيمة وكان سكان عدن يؤدون إليها نصف خراجهم سنوياً[2].

وإذا كانت الدول الناهضة في العصر الحاضر تعمل على تنمية اقتصادها بشتى الوسائل، ومحاولة الاكتفاء اكتفاءً ذاتياً لإسعاد الشعوب، وتوفير الرخاء لأكبر نسبة من السكان، وذلك برفع مستوى المعيشة بين الأفراد، فإن الملكة الحرة لم تدع ناحية من نواحي الإنتاج إلا أولتها اهتمامها لتصل إلى هدفها في إسعاد شعبها.

فقد اهتمت ـ كما قلنا ـ بالزراعة والصناعة والتجارة والمواصلات. ويعتبر هذا العمل من قبل الدول عملاً مشكوراً ومجدياً، ويعتبر كذلك من أهم الأسباب التي تساعد على تقوية مركز الحكومات في نظر الشعوب. فقد سبقت الملكة الحرة الحكومات المتحضرة المعاصرة في اهتمامها باقتصاد بلادها؛ فقد اهتمت بتحسين نسل المواشي فقد قيل عنها إنها وقفت أراضي واسعة في نواحي جبلة وحقل رقتاب تصرف غلاتها في شراء الفحول من البقر. كما أوقفت أراضي كثيرة خصبة لرعي المواشي. ولا تزال هذه الأوقاف موجودة إلى الآن ومعروفة باسم (صلبة السيدة)[3]. وقد حدث ذلك في العصور الوسطى مما يدل على أن الملكة أروى سبقت في تفكيرها

---

(١) الكضائم أو الكظائم: جمع مفرده كظامة قناة في باطن الأرض يجري فيها الماء. وقيل هي آبار متناسقة تحفر ويباعد بينها ثم يخرق ما بين كل بئرين بقناة تؤدي المياه من الأولى للتي تليها. لسان/كظم.

(٢) الصليحيون والحركة الفاطمية ص١٦٢ و١٦٣.

(٣) صلبة السيدة أي أوقاف السيدة.

ووعيها، دول العصر الحديث التي تعمل بشتى الوسائل على تنمية اقتصادياتها كما تصرف الأموال الطائلة في سبيل ذلك.

وعرفت الملكة كذلك ما للتجارة من أهمية في الاقتصاد الوطني، وأن التجارة لا تزدهر إلا بالمواصلات الميسرة، لتسهيل نقل البضائع فعبدت الطريق من رأس جبل سمارة إلى السياني وهو على مسافة ثلاث مراحل. ويعتبر هذا الطريق من أول الطرق الزراعية الممهدة في اليمن ومن أكثرها فائدة حتى اليوم. وأولت عنايتها لعمارة المدارس ومنها مدرسة لتدريس الصحيحين في ذي جبلة وأنشأت المصالح العامة المتعددة فأصبحت سمعة اليمن عالية. وبنت كذلك مسجد الضربة في بلاد يريم والمسجد الجامع في جبلة، وأهم ما بنته دار العز التي يقال بأن فيها ٣٦٠ غرفة تنام الملكة كل يوم في غرفة منها[١].

ورغم وجود المذاهب المتصارعة، التي كانت قبل الملكة أروى سبباً في تفكك اليمن وغليانه بالحروب، والتنافس بين الملوك، على المذاهب المختلفة من سنية وفاطمية وزيدية؛ فإن السيدة الحرة استطاعت أن توفق بين جميع المذاهب فتركت الحرية المذهبية للشعب ولم تتعصب لمذهب دون آخر..

والمعروف أن الملكة أروى وصلت إلى الحكم بسبب كفاءتها؛ فقد نشأت في البيئة الحاكمة فكأنها أُعدت بالتدريج لتولي عظائم الأمور بينما كان زوجها المكرم يضعف صحياً يوماً بعد يوم. كانت هي تقوى وتشتد وتمارس الحكم كأفضل ما يكون الملوك، ولولاها لفكك الأعداء وحدة اليمن، ولكنها بقيت شامخة غنية حتى عُد عصر الملكة أروى العصر الذهبي بين جميع عصور اليمن. وكان من نتيجة سياستها الرشيدة ومنحها لرعاياها حرية العقيدة أن أصبحت سمعة اليمن عالية؛ لأنها كانت تعمل لمصلحة الشعب وإتاحة الفرصة لجميع الكفاءات أن تشترك في بناء الوطن، ولأن

(١) رواية شفوية من أهل اليمن.

السيدة أروى اعتبرت أن اليمن ملك الشعب، لا لأسرتها ولا لنفسها بل قامت في الأرض لا لعلو فيها ولكن لما يفيد فيها.

ورغم أنها وصلت إلى سن متأخرة فإنها ما زالت تأمر وتنهى وتحكم وهي المرجع الأول للجميع، وقد جعلت ولاية التعكر إلى المفضل بن أبي البركات (والتعكر مقر ذخائر آل الصليحي).

كانت تطلع من ذي جبلة في أيام الصيف فتقيم في (التعكر) وإذا برد الجو عادت إلى ذي جبلة. والمفضل يتصرف حسب أوامرها، ويدخل عليها مع خواص وزرائها والأمراء والأكابر من عبيدها، وهو رجل الدولة ومدبرها والمرجع إلى رأيه وسيفه، والحرة لا تقطع أمراً إلا به. فعظم بذلك شأنه وعلت كلمته. وغزا تهامة مراراً فتارة له وتارة عليه. وهبط عدن مراراً ولم يبق في اليمن من يساميه، وقد قال للحرة يوماً: (انظري يا مولاتنا إلى ما كان في هذا الحصن من ذخائرك فانزلي به إلى دار العز فاعزليه في بعض القصور، أما هذا الحجر (يعني التعكر) فاتركيه لي فلا طاعة لك على ما فيه بعد اليوم) فقالت: (لو لم تقل هذا القول ما أحوجتك إليه. الحصن حصنك وأنت رجل البيت ولا حرج عليك مني فيما عاد لسمو قدرك وعلو أمرك) فخجل منها وأطرق. ونزلت الحرة إلى ذي جبلة وبقي المفضل يترضاها كي تعود للتعكر فلا تفعل. وهي مع ذلك تواصل بره ولا تسمع وشاية أحد فيه. والدول ـ كما يقول ابن خلدون ـ كالإنسان له عمر؛ فللدول شباب وكهولة وشيخوخة، وكذلك الدولة الصليحية فقد وصلت في عهد الملكة الحرة إلى أوج ازدهارها ولما طال بها الزمن بدأت بالعد التنازلي. ورغم كبر سنها فقد ظلت المرجع الأول والأخير لمستشاريها وقوادها لا يصدرون إلا عن أمرها ولا يفعلون إلا ما تشير به.

وشيء آخر لا يقل أهمية عما ذكرنا، يدل على سبق الملكة أروى في تفكيرها لعصرها، وهو الاستعانة بالمستشارين من الدول الأخرى، على الرغم من وجود شخصيات وزعماء وسلاطين ممتازين في بلادها؛ فقد أثر عنها أنها أرسلت إلى الخليفة الآمر تطلب منه إرسال أحد رجاله المشهود

لهم بالكفاءة والخبرة والمقدرة، فأجابها الآمر وأرسل لها ابن نجيب الدولة[1]. كما مر معنا.

وفاة الملكة الحرة:

في غرة شعبان من سنة اثنتين وثلاثين وخمسمئة توفيت الملكة أروى عن اثنتين وتسعين سنة من العمر. ودفنت في جامع ذي جبلة أيسر القبلة في منزل متصل بالجامع وكانت هي التي تولت عمارة هذا المسجد وهيأت موضع قبرها فيه.

وقبرها إلى اليوم يزوره جميع فرق الإسلام ويعترف بفضلها العام والخاص.

وانقرض بموتها ملك آل الصليحي وزال فسبحان الذي لا يزول ملكه[2].

وصية الملكة أروى:

وقد أورد صاحب كتاب الصليحيون والحركة الفاطمية نقلاً عن كتاب العيون (عيون الأخبار) صيغة وصية الملكة أروى[3] بالملحق رقم (٩) جاء فيها:

(بسم الله الرحمٰن الرحيم. الحمد لله رب العالمين، وصلواته على سيدنا محمد وآله الطاهرين.

هذا ما أوصت به أمة الله تعالى، وأمة أوليائه السيدة ابنة أحمد بن محمد بن القاسم وعهدت أنها تحمد الله تعالى على آلائه المتواترة ونعمه الباطنة والظاهرة، وتشهد أن لا إله إلا الله تعالى مبدع المبدعات، وخالق

---

(١) الصليحيون والحركة الفاطمية ٢٠٥ ـ ٢٠٦.

(٢) بلوغ المرام في شرح مسك الختام ص٤٦.

(٣) انظر الصليحيون والحركة الفاطمية ص٣٢٣ ملحق رقم (٩).

المخلوقات، جل وعلا أن تناله صفة أو تدركه معرفة، وأن الخلائق في قبضته والأشياء صادرة عن أمره وإرادته، لا مُعَقِّب لحكمه ولا راد لأمره، وأنه العدل الذي لا يجور والحكم الذي لا يحيف، والصادق الذي لا يخلف والعفو الذي لا يؤاخذ. خالق السماوات والأرضين وإله الأولين والآخرين ذو الأسماء الحسنى والكلمات التامات صدقاً وعدلاً).

ثم تذكر أسماء الأئمة واحداً تلو الآخر ثم تقول:

(على ذلك عاشت وعليه تموت وعليه تبعث وبه تلقى الله. وأوصت به من بعدها بتقوى الله تبارك وتعالى وإيثار طاعته وبما أوصى إبراهيم بنيه ويعقوب ﴿يَٰبَنِيَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصۡطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ﴾[1] وأوصت متى حدث بها حدث الموت، الذي جعله الله حتماً على عباده وساوى بين القوي والضعيف والمشروف والشريف، عدلاً في قضيته، ونفاذاً لحكمه في بريته، أخرج عنها من جميع تركتها جميع الأشياء المسلمة الموصوفة في هذا الكتاب وهي الأشياء التي منها:

عصابة ذهب كبيرة مفصصة واسطتها ياقوتة حمراء ويليها من يمين ويسار درتان ويليها ياقوتتان زرقاوان، ويلي هاتين درتان لطيفتان ويلي هاتين فصا ياقوت أحمران ويليهما في الطرفين أيضاً درتان لطيفتان يحيط بالجميع من ذلك خيطا لؤلؤ أحدهما لؤلؤه لؤلؤ لطيف عدده مئتا حبة وحبة واحدة، والآخر لؤلؤه كبار عدده مئتا لؤلؤة ولؤلؤتان وزن جميع ذلك سبعون مثقالاً).

وتمضي الوصية في ذكر مئات الحلي من ذهب ودر وياقوت ولؤلؤ مما يشكل كنزاً ضخماً ويمضي الوصف لكل حلية بدقة متناهية ووزنها وألوان الجواهر فيها. وأوصت بذلك كله للإمام الطيب ليتصرف بها في شؤون بلادها، وهو الطفل الذي اختفى وتأمل أن يعود.

ومن يقرأ الوصية يجدها من نوادر الوصايا التي تركها الحكام في

---

(١) سورة البقرة، الآية: ١٣٢.

التاريخ ويجد أية ثروة مادية عظيمة تكونت من الهدايا والحلي التي أهديت للملكة من خارج اليمن، وقد اعتبرته هي من حق الدعوة لتستفيد منها وتستغلها في إقامة المشاريع الحيوية في ربوع البلاد.

الملكة الحرة أروى والشعر:

الشعر في التاريخ العربي القديم وزارة كاملة بل وزارات. إنه وزارة الثقافة ووزارة الإعلام بكل أقسامها وفروعها، وهي تخلد الإنسان فترفعه، وهي التي تخفض منزلته فتضعه في الهاوية. وقد مدح الشعراء الملكة أروى مدائح كثيرة نبدؤها بشعر الشاعر الحسين بن علي بن محمد بن القم. فقد مدحها بقصيدة أولها:

أعـلـمـتَ أنَّ مـن الـرمـاحِ قُـدودا ... ومـن الـصـفـاحِ مـحـاجِـراً ونُـهـودا

ومنها قوله:

أعـلـى الأنـام أبـاً وأكـرمُ طـيـبـة ... وأتـم أعـراقـاً وأصـلـب عـودا
وإذا الـوفـودُ تـأخـرتْ وفـدتْ عـطـا ... يـاهـا فـكـانـت لـلـوفـودِ وفـودا
هـي نـعـمـةُ الـلّـهِ الـتـي مـا ماؤهـا ... ثـمـداً ولا مـعـروفـهـا مـجـحـودا[1]
هـي رحـمـة الله الـتـي مـا زال مـن ... فـوق الـبـريـة ظـلـهـا مـمـدودا

وقال عنها مادح بن الفضل:

وأقـل مـكـرمـة لـهـا وفـضـيـلـة ... إجـراؤهـا لـلـغـيـل فـي الأجـنـاد
شق الجبال الشامخات فأصبحت ... فـكـأنـمـا كـانـت بـغـيـر وهـاد

ومما مدحت به الملكة الحرة الصليحية قول الخطاب بن الحسن الحجوري وهو لا يمدح أحداً إلا الحرة الملكة وذلك من خالص ولائه وعظيم إجلاله لها:

---

(١) ثمد: الثَّمَد: الماء القليل الذي لا مادَّ له.

همم النفوس على النفوس مدارها ... وبها تبين كبارها وصغارها
وإذا تفرس في الورى متفرس ... ببصيرة لاحت له أخبارها
إن النفوس فروع أجسام وما ... تبديه من همم النفوس ثمارها
وحياة أفضلها التقى إذ بالتقى ... تحوي بها مما ابتغت آثارها
كوحيدة الزمن التي أضحى التقى ... وشعارها من محضه ودثارها[1]
رضي الأئمة سعيها فتوطدت ... في الأرض دولتها وقر قرارها
وتواصلت بركاتها ممدودة ... منها حبائل ما استرم مُغارها[2]
موصولة بحبالها تبقى على ... مر الزمان وصرفه أسرارها
وإذا الملوك أطاعت الرحمٰن لم ... تخذل وطالت في الورى أعمارها
وجرت لها بميامن وسعادة ... موصولة بدوامها أطيارها
أما علاكِ فإنها مشهورة ... لاحت أدلتها وطال منارها
شهدتْ عداكِ بها فإن هم طالبوا ... إدراكَها فقُصارها إقصارُها[3]
أنتم بنو الأصلوحِ جوهرُ يعربٍ ... وسواكم أصدافُها وبحارها
ولأنتِ يا بنة أحمد تنميك من ... تلك اللآلي الفائقاتِ كبارُها
أنقذتِ من يَمِّ الضلالةِ أهلَها ... كانوا بها طامٍ بهم تيّارُهَا[4]

رثاء الشعراء لها:

بعد وفاة الملكة أروى رثاها عدد من الشعراء مشيدين بفضلها ذارفين الدموع حزناً عليها. فهذا القاضي حسين بن عمران بن الفضل اليامي يرثيها لما زار (ذي جبلة) بقصيدة قال فيها:

---

(١) شعارها ودثارها: الشعار: ما استشعرت به من الثياب. والدثار والوثار كل ما كان فوق الثياب من الشعار.

(٢) استرم مغارها: استرم الحائط آن له أن يُسترم أي حان له أن يرمم.

(٣) أي أقصروا عن إدراك عُلاك.

(٤) طام: مرتفع قد ملأ النهر.

وقفتُ على قبر الوحيدةِ وقفةً وقد زينَ منها مسجدٌ وسُتورُ
فقبّلْتُه واستَفْتُ رَيّا ترابه وعاودَ قلبي رَنةٌ وزفيرُ[1]
وسالتْ دموعُ العَيْن مني كأنها بشطِّ مجاري المقلتين سطور[2]
ولله منها روحُ قدسٍ تميَّزَتْ فصارتْ بأعلى الدائراتِ تطير
خلا القصر في ذي جبلة من مكارم يحن إليها بائس وفقير
ومن جود بحر بالعطايا نواله على معتفيه عسجدٌ وحرير[3]
ومن درسٍ ما ضم الكتابُ وبعده صلاة وتسبيح معاً وطهور
وما سمعت أذني ولا راع ناظري تجاوب قينات بها وخمور[4]
ولو كان داعي الموت يثنيه دونها قبيل وينجي من سطاهُ عسير[5]
لقام له من حميرٍ كل أزْعَن سحاب المنايا حيث حل مطير[6]
وصار له من صيدِ كهلان جحفل تسير الجبال الشمُّ حيث يسير[7]
ولو حال دون الموت عنها مبلّط منيع يرد الطرف وهو حسير[8]
لكان لها في حصن قيضان معقل تقصر عنه في العلو طيور
ولكن أبى إلا خفياً بشخصه حقير وما يسطو عليه كبير

وقال القاضي محمد بن أحمد بن عمران بن الفضل اليامي يرثيها:

نأت ربة القصر الشريف عن القصر فأيأس راجي النصر فيه عن النصر

---

(١) استفت: استفّ استفافاً: اشتم. والاستفاف الاشتمام. لسان/سيف.
(٢) أي بشاطىء - جانب النهر.
(٣) العسجد: الذهب.
(٤) القينات: مفردها قينة وهي المغنية.
(٥) السطا: القهر والبطش.
(٦) الأرعن: الأحمق.
(٧) صيد: جمع أصيد. وهو البطل.
(٨) مبلط: المكان المبلّط المفروش بالآجر أو الحجارة. يقال لزم فلان بلاط الأرض أي لازم وجه الأرض. وقيل البلاط مجرد الصلب. لسان/بلط.

إذا اجتث دهر الشر دوحة روضة … فقضبانها لا تستقيم على الهصر
سخطتِ على أهل الزمان لفعلهم … حقيقون أهل العصر يا ربة العصر
فصاروا بلا نور يتيهون في العمى … وذلك تمثيل لما كان في مصر
فكم ظلمةٍ يغشونها ومضلةٍ … وكم إصر ذنب يحملون على إصر
رجونا بها بدء الظهور ونشره … فعدنا إلى الستر الحقيقي والحصر(١)
وقد ينقص التيار من بعد مدّه … ويضطر حرف المد حيناً إلى القصر
فذاك كسوف الشمس قد طال مكثه … وهذا خسوف دائم المكث للبدر
وذاك سرار لا انجلاء لليله … وهذا محاق ليس يسفر عن فجر(٢)
ونرجو فروعاً ثمّر الله نبتها … وأيّدها بالنصر والفتح والقهر
لهم وبهم رجاؤنا وسلوّنا … لأنْ رجاء اليسر في عقب العسر(٣)
وأورث أملاك الأنام وسيطهم … علي بن عبدالله عالي ذرا الفخر(٤)
فصبراً على ريب الزمان وصرفه … فأوفر أهل الأجر حظاً أولو الصبر

ومما قاله السلطان الخطاب بن الحسن بن أبي الحفاظ الحجوري في قصيدة يرثيها(٥):

عليكِ سلام الله والصلواتُ … ورحمته ما شاء والبركاتُ
وكافاك عنا بالذي لك عندنا … إله لديه تضعف الحسناتُ
كفلتِ جميع المؤمنين كفالة … علت لهم في ظلها الدرجاتُ

---

(١) الحصر: ضرب من العي. يقال: حصر الرجل حصراً هو حَصِر لم يقدر على الكلام. لسان/حصر.
(٢) المُحاق: آخر الشهر إذا انمحق الهلال فلم يُرَ. لسان/محق.
(٣) السلو: النسيان.
(٤) أملاك الأنام: أي ملوكهم.
(٥) الخطاب بن الحسن الحجوري: من دعاة الإسماعيلية في اليمن وكان أخا الحرة الصليحية في الرضاع وكان له عندها مكانة رفيعة وكان شاعراً، له ديوان معظم قصائده في مدح آل البيت. ولد ٠٠٠ ـ ٥٣٣ هـ الأعلام ج٢/٣٠٨.

وقمت بأمر الله فيهم فأخلصت سرائر في طاعاته ونياتُ
أمولاتنا يا من بباهر نورها تَجَلَّيْنَ عن أبصارنا الظلماتُ[1]
أجلك عن موتٍ بروحك نازلٍ وأنت لأرواح الأنام حشاةُ[2]
بصرت بأمر منك ما بصرت به عيون لهم في غيها وَسِناتُ[3]
ولاح لي السر الذي حجبتهم عقول لهم من نوره وذواتُ
فقالوا مقال الجهل، غبتِ بميتةٍ عليهم فما الأنباء مشتبهاتُ
وهل غاب عنا أو يغيب الذي اغتدت له رتب في الدين منحفظات
أما نوره سارٍ، أما لحظاته بنا وهو نائي الدار متصلات؟
أليس لنا منه إليه محرّك ومنا وعنا تصدر الحركات؟
أما قال مولانا عليّ - سلامه علينا - مقالاً أسندته ثقات:؟
نعلمكم منكم وعنكم نفيدكم أشيء سوى هذا المقال فهاتوا
وأزعم أن الأولياء تقدمت مقاماتهم كفر مقالي ماتوا
فكيف بمن هم في كفالته غدوا وظلوا بها مستكفلين وباتوا؟

مكانة الملكة الحرة السيدة أروى الصليحية:

من الألقاب التي كان الفاطميون يرسلونها للملكة الصليحية، ومن النهاية الطبيعية للملكة الصليحية، نستنتج أنها كانت امرأة نادرة المثال. فقد ذكرت الملكة بالألقاب الكثيرة التي كالها الفاطميون لها فقد جاء في السجلات قولهم:

(الحرة - السيدة - السديدة - الرضية - الطاهرة - المخلصة - المكينة - ذخيرة الدين، عصمة المسترشدين - عمدة المؤمنين - كهف المستجيبين - كافلة أوليائه الميامين - ولية أمير المؤمنين - عمدة الإسلام - وحيدة الزمن - سيدة ملوك اليمن).

---

(١) تجلّين: لغة أزد شنوءة في وجود فاعليْن: نون النسوة وكلمة الظلماتُ.

(٢) حشاة: نفس.

(٣) وسِنات: نائمات. من الوسن.

وهذه الألقاب لم يكن يمنحها الفاطميون إلا لكبار رجال دولتهم، وقد رأوا أن الملكة الحرة تستحق ذلك لوفائها وإخلاصها ولمقدرتها الفائقة على تحمل المسؤوليات الجسام. كما أن نهاية الملكة الحرة كانت نهاية طبيعية بينما كانت نهاية الزباء في تدمر نهاية مؤثرة ونهاية كليوباترة كذلك. وإذا أردت أن أعدد نهاية ملكات كثيرات لوجدنا أن الملكة الحرة كانت في حياتها المديدة الأم الروحية لكل الشعب اليمني، وبعد مماتها جعلت الشعب اليمني، ينحني أمام ذكراها إجلالاً واحتراماً لها، ولنستمع إلى قول الدكتور عبدالعزيز المقالح الذي قال عنها(١):

لقد اجتمعت الشجاعة والذكاء وحب الوطن في نفس واحدة هي نفس أروى بنت أحمد الصليحي، المرأة اليمنية التي تولت الحكم قبل مارغريت تاتشر بألف عام وأكثر، وأثبتت تفوقها في إدارة نظام الحكم على عشرات الحكام الذين سبقوها أو جاؤوا بعدها. وقد ظل اسمها في تاريخ اليمن المخضب بالدم والذل والاضطهاد، نجوىً علوية وحلماً بهيجاً لا يُنسى، واستحقت لذلك قول الشاعر المعاصر لها:

وما التأنيث لاسم الشمس عيب ولا التذكير فخر للهلال
ولو كان النساء كمن ذكرنا لفُضلت النساءُ على الرجال(٢)

وقد قدمت السيدة حياة عبدالقادر المرسي بجامعة الملك عبدالعزيز في جدة بحثاً لنيل شهادة الماجستر (عن دور المرأة الحرة أروى بنت أحمد الصليحي في اليمن) وهذه هي الدراسة الأولى عن امرأة اليمن الثانية التي تولت الحكم بعد بلقيس بنت الهدهاد. وتقول السيدة حياة عبدالقادر: (والسيدة أروى امرأة سطرت الكثير من صفحات التاريخ الإسلامي بصفة عامة وتاريخ اليمن بصفة خاصة).

---

(١) قراءة في فكر الزيدية والمعتزلة ص١٥٣.
(٢) البيتان للمتنبي في رثاء أخت سيف الدولة. وفي البيت الثاني يقول:
ولو كان النساء كمن فقدنا لفضلت النساء على الرجال

وقد كتبت الكاتبة البريطانية (فريا ستارك) مقالاً بعنوان (السيدة حرة ليمانية) والمقال خلاصة رحلة قامت بها الباحثة المذكورة إلى اليمن، طالعت فصولاً من تاريخها وطالعت أشكالاً من عاداتها وتقاليدها، وكتبت لمقال الذي يصور صورة وافية دقيقة الملامح والتعابير عن حياة السيدة روى، وثقافتها ونشاطها السياسي والاجتماعي، ويعترف بما وصلت إليه لمرأة العربية في ظل الإسلام الحقيقي، من تقدم ومشاركة فعلية باعتبارها كائناً وشريكاً بشرياً لا تابعاً ولا سجيناً محتقراً.

وهذه الكاتبة قد أذاعت المقال المذكور في محطة الإذاعة البريطانية ضمن سلسلة لها عن شهيرات النساء. وقد قارنتْها بغيرها من الملكات للواتي كانت عاقبتهن الفشل الذريع وهوين عن عرشهن فمحت آية الليل ما كان لبلادهن من مجد وسؤدد.

وأخيراً لا بد من القول إن الملكة أروى الصليحية الإسماعيلية ستبقى خالدة في نفوس اليمنيين خاصة والعرب عامة مدى الدهور؛ لأنها لم تتعصب لمذهبها بل أعطت لشعبها الحرية الدينية فكان يحبها ويحترمها.

كما بقيت إلى اليوم مآثرها وأعمالها الجليلة تنطق بعظمتها، وستظل وحياً ونوراً في حياة الشعب مهما اختلفت الطرق واشتدت الأزمات وبعدت المسافات وتخلفت القوافل، لأنها وحيدة كل زمان والمرأة التي حكمت اليمن بعد بلقيس بنت الهدهاد فسميت بلقيس الصغرى.

ومما يستنتج من الحوادث التاريخية أن الخليفة الفاطمي الإمام المستنصر بالله كان يعدها مثلاً أعلى للمرأة وذلك لكفايتها في إدارة شؤون البلاد وحكمتها وسياستها. وهي من شهيرات النساء اللواتي كان لهن أثر ظاهر في حياة بلادهن، مما يجعل الأجيال تحني هاماتها إجلالاً واحتراماً لها.

وقد قدسها شعبها لما حصلوا عليه من رخاء في زمانها، وأمان وحرية وتوحد لم يعرفوه في ماضي أيامهم. ولا يزال إلى هذا اليوم ذكرها خالداً وقصرها المسمى بدار العز شاهداً على عظمتها. فقد عرض في برنامج

تلفزيوني يقدمه (صبحي أبو لغد) قصرها الذي يحتاج الآن إلى ترميم. عرض على شكل قصر مرتفع يتألف من أكثر من ثلاثة طوابق وذكر أنه يتألف من ثلاثمئة وستين غرفة، على عدد أيام السنة. ويتداول أهل اليمن خبراً أنها كانت تنام كل يوم في غرفة من هذه الغرف الثلاثمئة والستين.

حكمت الملكة الحرة أروى اليمن وكانت آمنة والرخاء مسيطر عليها، والزراعة مثمرة فيها والفلاح آمن. وحق لليمن في عهدها أن تسمى اليمن السعيد. وإذا كانت الكثيرات من ملكات العالم يملكن ولا يحكمن فإن أروى قد حكمت وملكت، وتزعمت الدعوة الدينية فهي حجة الإسلام. بالإضافة إلى أنها ملكت قلوب الشعب من أشرس طبقاته وأقواهم شكيمة، إلى أطيب طبقاته من عمال وفلاحين ومزارعين. ويقال بأنه لم ينسب إليها الكذب والخديعة والغدر والخيانة وما شاكلها من الرذائل.

رحم الله الملكة الحرة السيدة أروى وبعث من أمثالها الكثيرات، إنه على كل شيء قدير.

❀ ❀ ❀

فهرس المصادر والمراجع

١ ـ آثار اليمن قبل الإسلام: د. عبدالأحد أبو عيون. دار النشر: الشرق الأوسط ـ المعهد الجامعي. نابولي ـ إيطاليا. ط. د.ت.

٢ ـ أدوار التاريخ الحضرمي: محمد بن أحمد بن عمر الشاطري. عالم المعرفة للتوزيع والنشر. جدة ط١، ١٣٩٢هـ، ١٩٧٢م.

٣ ـ أروى بنت اليمن: عامر تامر، سلسلة اقرأ، العدد ٢٣، القاهرة ١٩٧٠م.

٤ ـ الأعلام: خير الدين الزركلي. دار العلم للملايين، الطبعة السادسة، بيروت ـ لبنان ١٩٧٧م.

٥ ـ الإكليل من أخبار اليمن وأنساب حمير: الحسن بن أحمد بن يعقوب الهمداني. الدار اليمنية للنشر والتوزيع. توزيع دار المناهل بيروت ـ لبنان، ط٢، ١٤٠٨هـ ـ ١٩٨٧م.

٦ ـ الأنباء عن دولة بلقيس وسبأ: محمد بن محمد بن يحيى زبارة. مكتبة اليمن الكبرى. صنعاء ـ اليمن ١٤٠٤هـ ـ ١٩٨٤م.

٧ ـ بدائع الزهور في وقائع الدهور: لمحمد بن أحمد بن إياس الحنفي. مكتبة الجمهورية العربية، القاهرة ـ مصر، د.ت.

٨ ـ البداية والنهاية: الحافظ ابن كثير ـ منشورات مكتبة المعارف ـ بيروت، ط٥، ١٤٠٣هـ ـ ١٩٨٣م.

٩ ـ بغية المستفيد في تاريخ مدينة زبيد: لعبدالرحمٰن بن علي بن محمد بن عمر بن الربيع. تحقيق عبدالله الحبشي ـ مركز الدراسات اليمانية صنعاء ١٩٧٩م.

١٠ ـ بلقيس ملكة سبأ امرأة الألغاز: منى زياد، رياض الريس للكتب والنشر، بيروت ولندن، ط١، ١٩٩٧.

- BALQIS QVEEN OF SABA
- DIFFUSING THE RIDDLES
١١ ـ بلوغ المرام في شرح مسك الختام ممن تولى ملك اليمن من ملك وإمام: للقاضي حسين بن أحمد العرشي. نشره الأب أنستاس ماري الكرملي، دار إحياء التراث، بيروت ـ لبنان، د.ت.
١٢ ـ تاريخ الرسل والملوك: لابن جرير الطبري، تحقيق أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف، مصر، ط٥.
١٣ ـ تاريخ خليفة بن خياط: تحقيق د. أكرم ضياء العمري، ط٣، دار القلم ـ بيروت، ودمشق ١٩٧٧م.
١٤ ـ التاريخ العام لليمن قبل الإسلام: محمد يحيى حداد ـ شركة التنوير للطباعة والنشر. بيروت ـ لبنان ١٤٠٧هـ ـ ١٩٨٦م.
١٥ ـ تاريخ مختصر الدول: غريفوريوس الملطي المعروف بابن العبري ١٩٨٠م، دون ناشر أو مدينة.
١٦ ـ تاريخ اليمن الفكري في العصر العباسي: لأحمد بن محمد الشامي ـ دار النفائس ـ بيروت، ط١، ١٤٠٧هـ ـ ١٩٨٧م.
١٧ ـ تاريخ اليمن القديم: محمد عبدالقادر بافقيه. بيروت ـ لبنان، ١٩٨٥م.
١٨ ـ سيرة عمر بن عبدالعزيز خامس الخلفاء الراشدين: عفت وصال حمزة. دار ابن حزم للطباعة والنشر والتوزيع. بيروت ـ لبنان، ط١، ١٤١٨هـ ـ ١٩٩٨م.
١٩ ـ صبح الأعشى في صناعة الإنشا: لأحمد بن علي القلقشندي، وزارة الثقافة والإرشاد القومي ـ دمشق ١٩٨١م.
٢٠ ـ الصليحيون والحركة الفاطمية في اليمن: حسين بن فيض الله الهمداني اليعربي الحرازي، ط٣، ١٤٠٧هـ، ١٩٨٦م منشورات المدينة، صنعاء.
٢١ ـ غاية الأماني في أخبار القطر اليماني: يحيى بن الحسين بن القاسم بن محمد بن علي. تحقيق د. سعيد عبدالفتاح عاشور. دار الكاتب العربي. القاهرة ١٣٨٨هـ ـ ١٩٦٨م.
٢٢ ـ قراءة في فكر الزيدية والمعتزلة: د. عبدالعزيز المقالح، دار العودة، بيروت ١٩٨٢.
٢٣ ـ قصص الأنبياء: للحافظ الإمام عماد الدين إسماعيل بن كثير الدمشقي القرشي. تحقيق علي عبدالحميد أبو الخير ـ محمد وهبي سليمان ـ معروف زريق. دار الخير ـ دمشق وبيروت، ط٥، ١٤١٦هـ ـ ١٩٩٥م.

٢٤ ـ الكامل في التاريخ: لابن الأثير الجزري. تحقيق عبدالله القاضي، دار الكتب العلمية، بيروت ـ لبنان، ط١، ١٤٠٧هـ ـ ١٩٨٧م.
٢٥ ـ كتاب التيجان في ملوك حمير: عن وهب بن منبه. مركز الدراسات والأبحاث اليمنية ـ صنعاء، ط١، ١٣٤٧هـ.
٢٦ ـ مختصر أنساب الأنبياء والرسل الكرام: محمد أحمد ياسين الخياري المدني الحسيني، دار العلم للطباعة والنشر، جدة ـ السعودية، ط٣، ١٤١٢هـ ـ ١٩٩٢م.
٢٧ ـ مع الأنبياء في القرآن الكريم: عفيف عبدالفتاح طبارة، دار العلم للملايين، بيروت ـ لبنان، د.ت.
٢٨ ـ معجم البلدان: أبو عبدالله ياقوت بن عبدالله الحموي، دار إحياء التراث العربي، بيروت ـ لبنان، ١٣٩٩هـ ـ ١٩٧٩م.
٢٩ ـ معجم النساء اليمنيات: عبدالله بن محمد الحبشي، دار الحكمة اليمانية، صنعاء ـ اليمن، ط١، ١٤٠٩هـ ـ ١٩٨٨م.
٣٠ ـ المقتطف من تاريخ اليمن: القاضي عبدالله بن عبدالكريم الجرافي اليمني، منشورات العصر الحديث، بيروت، ١٤٠٧هـ ـ ١٩٨٧م.
٣١ ـ ملوك حمير وأقيال اليمن: (شرح قصيدة نشوان الحميري) أو خلاصة السيرة الجامعة لعجائب أخبار الملوك التبابعة. تحقيق علي بن إسماعيل المؤيد وإسماعيل بن أحمد الجرافي. دار العودة ـ بيروت. د.ت.
٣٢ ـ الموسوعة اليمنية: مؤسسة العفيف الثقافية ـ الجمهورية اليمنية، تنفيذ دار الفكر المعاصر، بيروت، ط١، ١٤١٢هـ ـ ١٩٩٢م.
٣٣ ـ هذه هي اليمن: عبدالله أحمد محمد الثور ط٣/١٩٨٥، دار العودة، بيروت.
٣٤ ـ اليمن في ظل الإسلام: د. عصام الدين عبدالرؤوف الفقي، دار الفكر العربي ـ بيروت، ط١، ١٩٨٢م.
٣٥ ـ اليمن شماله وجنوبه: محمود كامل المحامي، دار بيروت للطباعة والنشر ـ بيروت ١٩٩٨م.
٣٦ ـ اليمن عبر التاريخ: أحمد حسين شرف الدين، مطابع الفرزدق التجارية ـ الرياض، ط٤، ١٤٠٦هـ ـ ١٩٨٦م.
٣٧ ـ اليمن ماضيها وحاضرها: د. أحمد فخري، المكتبة اليمنية للنشر والتوزيع، منشورات المدينة، بيروت ـ لبنان، ط٢، ١٤٠٩هـ ـ ١٩٨٨م.

الفهرس

الموضوع	الصفحة
الإهداء	٥
تقديم	٧
بلقيس ملكة سبأ المثال والرمز	١٣
جغرافية اليمن وتاريخها	١٥
أبوها الهدهاد	٢٦
ملك بلقيس بنت الهدهاد	٢٩
اسمها	٣٤
أعمال بلقيس بنت الهدهاد	٣٧
النبي سليمان عليه السلام	٤٢
قصة داود وسليمان في الحرث	٤٤
نعم الله على سليمان	٥٢
قصة النملة	٥٧
وفاة سليمان	٦١
بلقيس وأفعى نجران	٦٦
قصة سليمان والهدهد مع بلقيس	٦٩
بلقيس في قصر سليمان	٨٦
بلقيس في شعر الشعراء	٩٥
دروس وعبر	١٠٨

الموضوع	الصفحة
أسماء الصليحية	١١٧
تقديم	١١٩
الحالة السياسية لليمن قبل الصليحيين	١٢٠
أصل الصليحيين	١٢٢
علي بن محمد الصليحي	١٢٢
نهاية الملك الصليحي	١٣١
الملكة أسماء الصليحية	١٣٥
يخطب لها على المنابر	١٣٧
أسر أسماء ومقتل زوجها	١٣٨
رثاء الشعراء للملك الصليحي	١٤٠
كيف أنقذت أسماء من الأسر	١٤٢
مع أروى الصليحية	١٥٢
الملكة السيدة الحرة أروى الصليحية	١٥٣
زواجها من المكرم	١٥٧
الملكة الحرة السيدة أروى	١٥٩
زوجها المكرم	١٦٠
كيف نقلت أروى العاصمة إلى ذي جبلة	١٦٤
دور الملكة أروى في قتل سعيد الأحول	١٦٧
نشاطها السياسي	١٦٩
النزاع بين سبأ الصليحي وعامر الزواحي	١٧٢
وفاة المكرم	١٧٢
فضائل السلطان سبأ	١٧٥
مواقف المفضل مع الملكة أروى	١٧٨
مع ابن نجيب الدولة	١٨٠
بين الفاطميين والملكة أروى	١٨٥
كيف حكمت السيدة أروى اليمن	١٨٨
وفاة الملكة الحرة	١٩٣

الموضوع	الصفحة
وصية الملكة أروى	١٩٣
أروى والشعر	١٩٥
رثاء الشعراء لها	١٩٦
مكانة الملكة أروى	١٩٩
فهرس المصادر والمراجع	٢٠٣
الفهرس	٢٠٦

❋ ❋ ❋

نساءٌ حَكَمْنَ اليَمَن